جامعة القاهرة
كلية الآداب
قسم التاريخ

دور زوجات الأباطرة والأميرات في عصر أسرة باليولوجوس

(١٢٦١-١٤٥٣م)

رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه

إعداد
نعيمة محمد إبراهيم السيد داود

إشراف
أ.د. حامد زيان غانم
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
رئيس قسم التاريخ الأسبق – كلية الآداب – جامعة القاهرة

القاهرة (٢٠١٠م)

ملخص
المقدم

المحتويات

لا غرو أن الإمبراطورات أو نساء العرش البيزنطي قد لعبن دورًا هامًا ومؤثرًا طيلة تاريخ الإمبراطورية الطويل، بل إن بعضهن في ظروف معينة قد تحكمن في مصير الإمبراطورية ذاتها وفي مقدراتها، ذلك أن هؤلاء النساء قد حكمن الإمبراطورية أو مارسن السلطة السياسية تحت عدة مسميات.

الإمبراطورة كوصية على إمبراطور قاصر، كالإمبراطورة ثيودورا Theodora زوجة الإمبراطور ثيوفيلوس Theophilos (٨٢٩-٨٤٢م)[١] التي شاركت في مجلس الوصاية على ابنها الإمبراطور ميخائيل الثالث Michael III خلال الفترة (٨٤٢-٨٥٦م) وزوي كاربونوبسينا Zoe Karbounopsina الزوجة الرابعة للإمبراطور ليو السادس Leo VI (٨٨٦-٩١٢م) التي تولت الوصاية على ابنها قنسطنطين السابع Constantine VII خلال الفترة (٩١٤-٩٢٠م) ويودوكيا ماكريمبوليتيسا[٢] Eudokia Markrembotitissa زوجة الإمبراطور قنسطنطين العاشر دوكاس Constantine X Doukas (١٠٥٩-١٠٦٧م) التي تولت الوصاية على ولديها القاصرين ميخائيل السابع وقنسطنطيوس خلال الفترة (١٠٦٧-١٠٦٨م)، والإمبراطورة أنا دلاسينا Anna Dalassena[٣] التي تولت الوصاية على ابنها الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين Alexios I Komnen (١٠٨١-١١١٨م) ومارية

---

(١) ثيودورا زوجة ثيوفيلوس : إمبراطورة وقديسة، وتنحدر من أصل أرميني ولدت في بافلاجونيا، تزوجت الإمبراطور ثيوفيلوس وأنجبت له خمسة بنات وولدين وتولت الوصاية على ابنها ميخائيل بعد موت زوجها الإمبراطور بمساعدة مستشارها ثيوكتيستوس Theoctistus وأعادت تبجيل الصور والأيقونات.

- لمزيد من التفاصيل :

ODB, 3, pp 2037-8 ;

عليه عبدالسميع الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص٥٢-٩٧، ١٢٦٤-١٧٠.

(٢) يودوكيا ماكريمبوليتيسا، الزوجة الثانية للإمبراطور قنسطنطين العاشر دوكاس وبعد وفاة زوجها تولت الوصاية على ولديها وقد تمتعت بسلطة مطلقة في إدارة الشئون الإمبراطورية وكانت مثالاً يحتذى في السلطة المطلقة لما جاء بعدها من إمبراطورات، واضطرتها الظروف الخارجية للإمبراطورية من الزواج من أحد القادة العسكريين ورفعه للعرش الإمبراطوري.

لمزيد من التفاصيل :

Garland, L. Byzantine Empresses Women and Power in Byzantium AD 527–1204, New York 1999, pp 168–179 ,

عليه الجنزوري : المرأة في الحضارة البيزنطية، ص٣٥-٤٢.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن الإمبراطورة أنا دلاسينا ودورها بعد تولي ابنها العرش الإمبراطوري. انظر الفصل الأول، ص ٤١، حاشية رقم ٣.

الأنطاكية Maria of Antioch[1] زوجة الإمبراطور مانويـل الأول كـومنين Manuel I Komnen (١١٤٣-١١٨٠م) التي تولت الوصاية على ابنها الإمبراطور الكـسيوس الثـاني Alexios II (١١٨٠-١١٨٣م)[2].

الإمبراطورة كوصية ثم إمبراطورة منفردة، وتمثل هذه الفئة إيرين زوجة الإمبراطـور ليو الرابع Loe IV (٧٧٥-٧٨٠م) والتي تولت الوصاية على ابنهـا القاصـر قنـسطنطين السادس Constantine VI، خلال الفترة الممتدة بين سنتي ٧٨٠-٨٩٧م ثم أزاحته من الحكم وحكمت كإمبراطورة منفردة حتى سنة ٨٠٢م[3].

الإمبراطورة كزوجة للإمبراطور، مثل ثيودورا[4] زوجة الإمبراطور جـستنيان الأول Justinian I (٥٢٧-٥٦٥م) والتي كانت شريكة لزوجها في الحكم، وإيرين ديوكاينا Irene

---

(١) مارية الأنطاكية، ولدت سنة ١١٤٠م وماتت في القسطنطينية سنة ١١٨٢م وهي ابنـة ريمونـد بواتيـه Roymond Poitiers وقد اتخذها الإمبراطور مانويل زوجه له بعد وفاة زوجته الأولى برثا سـالزباخ Bertha of Sulzbach سنة ١١٦١م، وبعد موته تولت الوصاية على ابنها الكسيوس الثالـث وكانـت معروفة بشدة جمالها.

– لمزيد من التفاصيل :

ODB, 2, p. 1298 ; Garland, Byzantine Empresses, pp. 201–209.

(٢) عليه الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص٢٢؛ عبدالعزيز رمضان، المرأة والمجتمـع فـي الإمبراطورية البيزنطية، ص١١٩-١٢٠.

(٣) الإمبراطورة إيرين، ولدت سنة ٧٥٢م وماتت سنة ٨٠٣م، تزوجـت الإمبراطـور ليـو الرابـع ٧٦٨م وأنجبت ابنها الوحيد قنسطنطين سنة ٧٧١م وبعد موت زوجها ٧٨٠م حكمت الإمبراطورية كوصية على ابنها قنسطنطين حتى سنة ٧٩٠م ثم سملت إيرين عين ابنها وتولت الحكم منفردة حتى سنة ٧٩٧م.

– لمزيد من التفاصيل :

ODB, 2, p, 1008–9 ;

عليه الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص٢٢-٣٥.

(٤) ثيودورا، زوجة الإمبراطور جستنيان وشريكته في حكم الإمبراطورية، ولدت في القسطنطينية بافلاجونيا سنة ٤٩٧م وماتت في العاصمة ٥٤٨م، وهي ابنة أكاكيوس، مدرب الحيوانات المتوحـشة فـي ميـدان السباق، وقضت جزء من حياتها في الإسكندرية وأنطاكية وكانت ممثلة على المسرح وقد تمتعت بنفـوذ كبير في إدارة شئون الإمبراطورية وكانت ذات تأثير قوي على زوجها الإمبراطور وعرفـت بمنحهـا العديدة للأديرة والكنائس ودور الأيتام والمستشفيات وكان لها سياسة دينية مميزة.

– لمزيد من التفاصيل :

Garland, Byzantine Empresses, pp. 11–40 ; ODB, 3, p. 203 ;

عليه الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص٧٩-١٠٦، ١٣٧-١٥٣.

Doukaina زوجة الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين[١].

الإمبراطورة كإمبراطورة منفردة وتمثل هذه الفئة زوي Zoe وثيودورا Theodora ابنتا الإمبراطور قنسطنطين الثامن Constantine VIII (١٠٢٥-١٠٢٨م) وأخر أعضاء الأسرة المقدونية[٢].

على هذا النحو يمكن القول أن الإمبراطورات البيزنطيات في الفترة السابقة لعصر أسرة باليولوجوس قد حظين بنصيب وافر في المشاركة في شؤون الحكم والسياسة، سواء لكونها أمًّا لإمبراطور قاصر أو زوجة لإمبراطور أو إمبراطورة منفردة، بل ومارسن نفوذًا غاية في القوة والتأثير على الحياة البيزنطية، وهذا ما دفع الباحثة ليندا جرالاند Lynda Garland إلى القول بأن الإمبراطورات في عصر أسرة باليولوجوس لم تتح لهن الفرصة ليلعبن دورًا مثل إمبراطورات الفترة المبكرة[٣]. الأمر الذي أصاب الباحثة بالقلق في بداية طريقها لإعداد هذه الدراسة، ولعل ما دفع جراند إلى قول ذلك، هو أن المصادر لم تتحدث باستفاضة وتفصيل عن حياة إمبراطورات وأميرات هذه الفترة، وإنما كان تناول المصادر لهن بصورة متناثرة وقليلة، ومن هنا سعت الباحثة نحو جمع هذه الإشارات المتناثرة هنا وهناك في الحوليات والمصادر الأدبية واللوائح الديرية والمراسلات لإظهار دور نساء أسرة باليولوجوس، تلك الأسرة الهامة، والتي تنسب إلى مؤسسها الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس[٤] وحكمت الإمبراطورية

---

(١) Garland, Byzantine Empresses, pp. 11-40.

عليه الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص٧٩-١٠٦.

(٢) Garland, Byzantine Empresses, pp. 161-7.

عليه الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص١١١-١٢٧.

(٣) Garland, Byzantine Empresses, p. 228.

(٤) حكمت هذه الأسرة من سنة ١٢٦١-١٤٥٣م وتنسب إلى مؤسسها الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوجوس، فبعد سقوط القسطنطينية على يد اللاتين سنة ١٢٠٤م فر الكثير من البيزنطيين من وجه الغزاة وتجمعوا حول بعض النبلاء الوطنيين، وأقاموا حكومات في المنفى ظلت تكافح لاسترداد العاصمة البيزنطية في أبيروس وطرابيزون، ولكن كانت أقوى هذه الحكومات في آسيا الصغرى التي أسسها ثيودور الأول لاسكاريس Theodore I Laskaris (١٢٠٥-١٢٢١م)، وفيها ظهر ميخائيل باليولوجوس، وكان جده جورج باليولوجوس George Palaiologos من أهم العناصر التي ساعدت أسرة كومنين في الوصول للعرش الإمبراطوري، وتولى حفيده ميخائيل مناصب هامة في إمبراطورية نيقية حتى أصبح الوصي على الطفل يوحنا ابن الإمبراطور ثيودور الثاني لاسكاريس Theodore II Laskaris آخر أباطرة نيقية ولكنه طمع في العرش لنفسه وسمل عيني الطفل ليحرمه من حقه في الحكم وتوج إمبراطورًا بعد أن انتقل للقسطنطينية في شهر سبتمبر سنة ١٢٦١م.

لمزيد من التفاصيل، عن إمبراطورية نيقية واستئثار ميخائيل الثامن بالعرش، انظر :

Akropolites, The History, pp. 79-88 ;

إسحق عبيد: الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس، ص١٦-١٨، ٣٣-٤١.

البيزنطية قرابة قرنين من الزمان، وشهدت هذه الأسرة السقوط النهائي للإمبراطورية البيزنطية، وبالتالي فهي الأسرة التي بعدها وجد الانقطاع وعدم التواصل بعد أن حكمت ١٩٢ عامًا وكانت من أطول الأسر البيزنطية على مدى تاريخ الإمبراطورية الطويل[١].

فقد واجه أباطرتها العديد من التحديات، فكان عليهم أن يسعوا لإصلاح القسطنطينية بعد أن دمرها اللاتين[٢]، فلوثوا القصر الإمبراطوري بمخلفاتهم، وهدمت أجمل طرقات المدينة وحوانيتها، وأكلت ألسنة النيران كثيرًا من الكنائس والأديرة، وجردت المباني من نفائسها وزخارفها، وكسدت التجارة، وتناقص عدد سكان العاصمة مع تناقص مواردها[٣]، وأن يتصدوا لأخطار القوى الأوربية كالصرب والبلغار، وكذلك المدن الإيطالية كجنوة والبندقية ولتوسعات العثمانيين الذين استغلوا فترة الصراعات والحروب الأهلية بين القادة السياسيين للوصول للعرش الإمبراطوري، وعملوا على السيطرة على الأراضي البيزنطية على نحو أدى إلى قلة أراضي الإمبراطورية الصالحة للزراعة ونشر الخراب في أنحائها بسبب هذه الحروب في وقت كثرت فيه الأمراض والأوبئة وتزايدت معدلات الجريمة والانحلال الجنسي[٤].

وفي ظل هذه الظروف هل كان من المتوقع وجود دور لنساء العرش في هذا العصر ؟! والذي أطلق عليه البعض فترة الاحتضار أو الموت طويل الأجل الذي وهنت فيه الإمبراطورية وأخذ الضعف يدب في أوصالها، وفشلت محاولات أباطرتها الواحد تلو الآخر لإقالتها من عثرتها وسقطت في النهاية، الأمر الذي أدى للتساؤل بشغف عن دور الإمبراطورات والأميرات في الحياة البيزنطية في هذه الفترة.

مما لاشك فيه أن نساء الأسرة الإمبراطورية كانوا استثناء عن غيرهن من النساء، ومثلن خروجًا واضحًا عن القاعدة، وهن بمفردهن اللاتي كانت لديهن الفرصة للقيام بدور مؤثر في الحياة البيزنطية حتى في ظل ظروف الإمبراطورية الصعبة، فقد مُنحن نفوذًا وسلطة سياسية خولت لهن بمقتضى صلتهن بالأباطرة، وسمح لهن بأن يلعبن دورًا هامًا في مجريات

---

(١) محمد مؤنس عوض : الإمبراطورية البيزنطية، ص٣٧٨-٣٧٩، ٤٢٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الخراب الذي أحدثه اللاتين في العاصمة، انظر :

Choniates, N., O city Of Byzantium, Annals of Niketas Choniates, English. Trans Magoulias H.J., Detroit 1984, pp. 321–7.

(٣) إسحق عبيد : الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس، ص٤١.

(٤) محمد مؤنس : الإمبراطورية البيزنطية، ص٤١٤.

الأحداث وفي الحياة البيزنطية(١).

وهن بمفردهن اللاتي امتلكن ثروات ضخمة ساعدتهن على القيام بدور اقتصادي واجتماعي، كإنشاء الأديرة والكنائس والمستشفيات ودور رعاية الأرامل والمطلقات وغيرها من مؤسسات اجتماعية وخيرية والإنفاق عليها، وكذلك تمتعن بقدر من التعليم مكنهن من تحصيل قدر كبير من المعرفة والثقافة، وأيضًا الاتصال بكبار الشخصيات الثقافية والفكرية في عصرهن وتبادل المعرفة معهم، وساعدتهن في اتخاذ مواقف معينة من الحركات الفكرية والدينية في عصرهن، كما سنرى بالتفصيل.

---

(١) Talbot, A-M., " Women ", in : Women and Religious Life in Byzantium, Ashgate 2001, pp. 140–1; Garland, Byzantine Empresses, p. 20; James, L. and Hill, B., " Women and Politics in The Byzantine Empire : Imperial Women, in : Women in Medieval Western European Culture, ed. Mitchell, L.E., New York 1999, p. 160; Gitting, E.A., " Elite Women : Dignity, Power and Piety ", in : Byzantine Women and Their World, ed. Kalavrezou, I., Cambridge, 2003, p. 68.

١) دور الإمبراطورات والأميرات في إدارة شئون الإمبراطورية والدفاع عنها :

مما لاشك فيه أن إمبراطورات وأميرات عصر أسرة باليولوجوس قد لعبن دوراً هاماً في السياسة البيزنطية. فبعضهن قمن بدورٍ بارزٍ في إدارة شئون الإمبراطورية والدفاع عنها برفقة أزواجهن أو أبنائهن الأباطرة، فقد كانت الإمبراطورة تقوم بالإشراف على الإمبراطورية أثناء غياب زوجها أو ابنها الإمبراطور، وفى حالة موت زوجها تقوم بالوصاية على أبنائها الصغار وإدارة شئون الإمبراطورية. فضلاً عن ذلك فقد عمل بعض إمبراطورات عصر أسرة باليولوجوس كإمبراطورات مستقلات، وحكمن أجزاء من الإمبراطورية مثل الإمبراطورة إيرين مونتفرات والإمبراطورة أناسافوى.

ويظهر ذلك واضحاً عند معرفة ما كان للإمبراطورة من سلطة كبيرة ونفوذ على موظفي الدولة، وخير مثال على ذلك الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس والتي أصدرت الكثير من القرارات والعقود التي تثبت ما تمتعت به هذه المرأة من سلطة، بل كانت أعمالها أحياناً تؤكد أعمال الإمبراطور، وكانت توجه الأوامر لموظفيه، فقد قامت بحل النزاع الذى نشب بين أحد الأفراد والمسئولين عن دير في جزيرة كوس Kos[١] حول قطعة أرض ادعى هذا الرجل إنها ملكه، فأمرت الإمبراطورة ثيودورا المشرفين على الأراضى فى هذه الجزيرة بعمل سجلات للأراضي من أجل ترسيم حدود تلك الأراضي وتسجيلها باسم أصحابها عن طريق الرجوع للأوراق والعقود الرسمية القديمة، والتأكد ما إذا كانت قطعة الأرض المتنازع عليها تابعة للدير أم أنها تخص ذلك الرجل، وبعدما أثبت أن تلك الأرض تابعة للدير، أصدرت الإمبراطورة ثيودورا أوامرها بإعادة الأرض إلى الدير وحررت عقدًا بذلك، وأمرت بإعفاء هذه الأراضي من الضرائب وهددت بالعقوبة الشديدة لمن يخالف أوامرها[٢].

ويرى المؤرخ الصربى بارزيك **Barišic** أن ما أصدرته ثيودورا من عقود للكنائس والأديرة وأوامر لمختلف الموظفين فى أنحاء الإمبراطورية وكذلك إعفائها للأراضى من

---

(١) جزيرة كوس: تقع شمال جزيرة رودس، وقد زادت أهميتها منذ القرن الحادى عشر الميلادى، وفى منتصف القرن الثانى عشر تولى حكمها نقفور كومنين Nichephoros Komnene جد الأميرة آنا كومنين Anna Komnene.

ODB, 2, p. 1150.

(٢) Barišic, F., " Povelje Vizantijskich Carica (Les Chartes des imperatrices Byzantines)", ZRVI xiii (1971), pp. 148-154, Garland, Byzantine Empresses, p. 226.

الضرائب بأوامر شخصية منها دون الرجوع للإمبراطور، وما وضعته من عقوبات لمن يخالف أوامرها لدليل على مدى سلطتها الواسعة وهيمنتها على موظفى الدولة، ومن هنا يصفها المؤرخ بأنها " شريكة ومتقاسمة السلطة الإمبراطورية مع زوجها الإمبراطور"[١].

وكان للإمبراطورة أيضاً كلمة مسموعة لدى الإمبراطور فى كافة أمور الدولة، وكثيراً ما نصادف تدخل نساء أسرة باليولوجوس لدى أزواجهن وأقاربهن الأباطرة للعفو عن بعض رجال الدولة وإعلاء البعض أو الشك وعقاب البعض الآخر، فقد نجحت الإمبراطورة ثيودور باليولوجوس في التأثير على زوجها الإمبراطور، ميخائيل الثامن لتخفيف العقوبة على أحد رجال حاشيته والذي غضب عليه الإمبراطور، فأمر بنفيه بدلاً من إعدامه، وطلبت كذلك الإمبراطورة منه الرأفة لابن عمها القائد ميخائيل استراتجوبولوس **Michael Strategopoulos**[٢] والذي اتهمه الإمبراطور بالخيانة وعزله من منصبه وأمر بالتحقيق معه، وكانت نتيجة توسلات ثيودورا أن أنقذته من العمى[٣].

كما أنها تدخلت مرة أخرى للعفو عن المشرف على الخزانة الإمبراطورية[٤] ويدعى كالويداس **Kaloeidas** وكان رجلاً غاية فى التقوى والورع، ويتعامل بكرم وبسخاء مع الجميع، ولكن اتهم بتشويه سمعة الإمبراطور وتم اعتقاله، ولم تشفع له سمعته الطيبة، وإنما تدخل الإمبراطورة فقط هو ما أنقذه من عقوبة الإعدام[٥].

---

(١) Barišic, Povelje Vizantijskich, p. 155.

(٢) ينتمي هذا القائد إلى أسرة استراتجوبولوس، وهي واحدة من الأسرات النبيلة المشهورة في إمبراطورية نيقية وقد تولى أعضاؤها وظائف هامة في البلاط الإمبراطوري.
ODB., 3, pp. 1963-4.

(٣) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 615-617; See Also: Talbot, Empress Theodora, p. 296.

(٤) صاحب هذا المنصب يحمل لقب ساكلاريوس Sakellarios، وهو أمين خزانة الأموال الخاصة بالإمبراطور، وكانت هذه الخزانة تستمد معظم مواردها من دخل الضياع الزراعية والمراعي المملوكة للإمبراطور، ومن المحتمل أن ارتفاع شأن الموظف المسئول عن هذه الخزانة يرجع إلى أنه كان يقوم في كثير من الأحيان بتغطية العجز في خزائن الإدارات المالية الأخرى من خزانة الإمبراطور، وزادت أهمية صاحب هذا المنصب منذ القرن الثامن الميلادي وأصبح يؤدي دور المراقب العام والمشرف على كافة الإدارات المالية الأخرى.
وسام عبدالعزيز فرج، الألقاب والمناصب الحكومية في بيزنطة، ص٤٥.

(٥) Pachymeres, Relations Historiques, I, p. 620; See Also: Talbot, Empress Theodora, p. 296.

وكان لشفاعة الإمبراطورة إيرين باليولوجوس زوجة الإمبراطور يوحنا كنتاكزينوس الفضل فى الإفراج عن أخويها يوحنا آسن **John Asen** ومانويل آسن **Manuel Asen** اللذين سجنهما الإمبراطور بتهمة الخيانة(١).

كذلك تدخلت الإمبراطورة هيلينا كنتاكزينوس للعفو عن ديمتريوس كيدونيس، وذلك عندما ترك القسطنطينية بسبب شك الإمبراطور يوحنا الخامس بالتآمر ضده وأبعده من منصبه وأرسل ديمتريوس خطاباً للإمبراطورة يوضح لها فيه موقفه ويطلب نصيحتها متعهداً بأنه سوف يعتبر نصيحتها " كما لو كانت وحياً ولن يخالفها " ورجاها أن تتدخل له عند الإمبراطور ليكون أكثر مرونة معه ويعفو عنه، ووصف الإمبراطورة بأنها كانت دائماً الملجأ الآمن له وقت الشدة(٢).

وأيضاً كانت الأميرة سيمون **Simon** ابنة الإمبراطور أندرونيقوس الثانى السبب فى العفو عن أخيها ديمتريوس الذى اتهم بتدبير مؤامرة ضد الإمبراطور أندرونيقوس الثالث مع بعض أمراء البلاط الإمبراطورى للاستيلاء على السلطة أثناء غياب الإمبراطور، وحضرت سيمون المجلس الذى عقده الإمبراطور بعد عودته من القتال مع الأتراك(٣) وحضره كبار رجال الدولة والكنيسة للتحقيق مع المتآمرين الذين حاولوا اتهام ديمتريوس بالتآمر معهم، ولكن تغاضى الإمبراطور عن اتهاماتهم وعفا عنه بسبب أخته سيمون(٤).

ويبدو أن ديمتريوس كان مشاركًا بالفعل في هذه المؤامرة والذي قدم فيها المتآمرون للإمبراطور الدليل القاطع على تورطهم جميعًا، وكان هدفهم الاستيلاء على العرش الإمبراطوري، وأن ينصب أحدهم إمبراطورًا، ولم يكن هناك أفضل من ديمتريوس ابن

---

(١) Nicol, Byzantine Family, p. 104.

(٢) Letters of Demetrios Kydones, Letter No. 34, p. 160.

(٣) هم أتراك سواحل الهلليسبونت Hellespont والذين أطلق عليهم نقفور جريجوراس أتراك السكيتين Skythen وقاموا بالهجوم على تراقيا في ربيع سنة ١٣٣٦م، فخرج لهم الإمبراطور أندرونيقوس الثالث على رأس القوات البيزنطية وفرقة من القوات المرتزقة وألحق بهم هزيمة ساحقة.

Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, pp. 280-1 ;

إبراهيم مصباح، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص١٢٥.

(٤) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, pp. 277-9; See Also: Laskaris, M., Vizantiske Prinzese u Srednevekovnoj Srbiji, Belgrade 1926, pp. 81-2; Runciman, S. "Thessalonica and the Montferrat Inheritance ", GP, xlii (1959), p. 33.

الإمبراطور السابق أندرونيقوس الثاني الذي عرف بطموحه السياسي ليكون إمبراطورًا، واشترك في الوصاية على مدينة سالونيك لفترة طويلة، ووقف مع أبيه في حربه ضد أندرونيقوس الثالث، وعانى مرارة الهزيمة عندما أُجبر أبوه الإمبراطور على التنازل عن السلطة ودخول الدير سنة ١٣٢٨م على يد حفيده أندرونيقوس الثالث الذي تولى العرش الإمبراطوري بدلاً منه(١).

ولما كان للإمبراطورات البيزنطيات مكانة ونفوذ لدى أزواجهم الأباطرة وموظفي الإمبراطورية، فإن هذا النفوذ والمكانة قد خولت لهن القيام بدور هام فى شئون الدولة وممارسة السلطة السياسية، سواءً أثناء وجود الإمبراطور أو أثناء غيابه. فقد تولت الإمبراطورة هيلينا كنتاكزينوس إدارة شئون الإمبراطورية أثناء غياب ابنها الإمبراطور مانويل الثاني لعدة شهور عن القسطنطينية فى آسيا الصغرى سنة ١٣٩١م وأيضاً أثناء غيابه للمرة الثانية عن العاصمة فى الفترة الممتدة من سنة ١٣٩٣-١٣٩٤(٢).

وفى حياة الإمبراطور مانويل الثانى كانت أمه الإمبراطورة هيلينا شخصية هامة تسند

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 279; See Also: Laskaris, Vizantiske Prinzese, p. 82; Runciman, Thessalonica and The Montferrat, pp. 33-4.

- انظر ما سبق ص ١٤هامش رقم (٤).

(٢) Letters of Manuel II, Letter No. 23, p. 64; See Also: Kyrris, C.P., "Le Role de la femme dans la Société Byzantine Particulierment Pendant Les Dernier Siecles " JOB xxxii 2 (1982), p. 469; Gill, J., "Matrons and Brides of Fourteenth Century Byzantium", BF X (1985), pp. 53-4; Barker, J.W., Manuel II Palaeologus (1391-1425): A Study in Late Byzantine Statesmanship, New Jersey 1969, p. 87.

كانت المرة الأولى عندما خرج الإمبراطور على رأس قوات بيزنطية لمساعدة السلطان العثماني بايزيد الأول Bayazid I (١٣٨٩-١٤٠٢م) في حملته ضد بعض المدن في آسيا الصغرى، أما المرة الثانية فقد خرج الإمبراطور مانويل الثاني لحضور الاجتماع الذي عقده السلطان بايزيد لحكام الدول والأقاليم التابعة له في مدينة سيريس Serres ودعا إليه أفراد أسرة باليولوجوس مع الإمبراطور، ويرى البعض أن هدف هذا الاجتماع هو جمع أعضاء الأسرة والتخلص منهم مرة واحدة بالقتل، في حين يرى البعض الآخر أن السلطان أراد من وراء هذا الاجتماع أن يعرف هؤلاء الأفراد الحقوق والواجبات المفروضة عليهم نحوه. ويذكر الدكتور صلاح ضبيع أن السلطان كان يرغب من وراء اجتماع سيريس ممارسة نفوذه وسلطانه على أعضاء أسرة باليولوجوس جميعًا.

Barker, Manuel II Palaeologus, pp. 87-99, 114-120.

صلاح محمد ضبيع : العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية في عصر آل باليولوجوس ١٢٦١-١٤٥٣م [رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة جنوب الوادي، ١٩٩٨م]، ص١٦٥-١٦٧.

إليها الشئون الدبلوماسية اليومية للبلاط الإمبراطوري، كما أنها شاركت ابنها فى الإدارة الإمبراطورية سواءً عن طريق نصيحته فى الأمور السياسية والعسكرية أو عند مقابلة السفراء الأجانب والتفاوض معهم، واستمرت تقوم بهذا الدور حتى قبل وفاتها بقليل، فقد قابلت السفراء البنادقة وتفاوضت معهم فى بداية سنة ١٣٩٦م حول تسليم بعض المواقع للفرسان الأسبتارية Hospitallers[١] وماتت بعد ذلك بشهور قليلة – حدث ذلك بين شهرى أغسطس وديسمبر من نفس العام[٢].

ومما يدل على دور هيلينا النشط فى الأمور السياسية خطبة رسمية ألقاها ابنها مانويل فى تأبين أخيه ثيودور حاكم المورة وأحد أجزائها يوضح مشاركة هيلينا فى اتخاذ القرارات السياسية المتعلقة بعلاقة الإمبراطورية البيزنطية مع جيرانها، وأن موافقة الإمبراطورة هيلينا كانت شرطاً أساسياً لسريان قرار ثيودور برهن كورنثة Corinth بقوله: "لمدة ثلاثة أعوام أخذوا كورنثة التى أعطاها أخى لهم بعد موافقة أمى وموافقتى أنا"[٣].

وهناك عمل أدبى آخر عبارة عن حوار عن الزواج دار بين الإمبراطور مانويل وأمه الإمبراطورة هيلينا حول زواج الإمبراطور، يصور هيلينا امرأة ذات وعى سياسى وقدرات هائلة وأنها ذات تأثير كبير على ابنها فى القرارات ذات الأهمية السياسية والخاصة بمستقبل

---

(١) الفرسان الأسبتارية، منظمة دينية عسكرية نشأت في بيت المقدس عصر الحروب الصليبية للعناية بفقراء الحجاج وإيوائهم وخاصة العناية الطبية، ومن هنا أطلق عليم اسم Hospitallers وكان أعضاؤها من الرهبان الذين اشتهروا بالتقوى والصلاح، ثم تطورت هذه الجماعة بعد ذلك وأصبحت مهمتها إعداد الفرسان الأشداء الذين ينذرون أنفسهم للدفاع عن المسيحية وحققت مكانة ونفوذاً كبيرين وخصصت لها أوقاف ضخمة حتى تتمكن من أداء واجباتها وخضعت مباشرًا للبابا.
قاسم عبده قاسم : ماهية الحروب الصليبية (الأيديولوجية ـ الدوافع ـ النتائج)، القاهرة ١٩٩٣م، ص١٥٧؛ محمد محمد مرسي الشيخ : عصر الحروب الصليبية في الشرق، الإسكندرية ١٩٩٦م، ص٢٠٤-٢٠٥.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن دور هيلينا في حياة ابنها الإمبراطور، انظر :
Letters of Manuel II, p. XIV; See Also: Grumel, V., "La Date de la Mort D'Helene Cantacuzene Femme De Jean v Paléologue", REB xiii (1995), p. 137; Laurent, V., "La Date de La Mort D'Hélène Cantacuzene, Femme de Jean V Paléologue", REB XIV (1956) pp. 200-201; Dennis, G.T., "The Reign of Manuel II Palaeologus in Thessalonica, 1382-1387", OCA 159 (1960) p. 59 Note 47; Barker, Manuel II Palaeologus, p. 105, No. 30 p. 120, No. 47.

(٣) Manuel II Palaeologus, Funeral Oration on His Brother Theodore, Trans. Chrysostomides, J., Thessalonica 1985, pp. 270-1; See Also: (Barker, Manuel II Palaeologus, p. 146).

الإمبراطورية، وأنها استطاعت أن تمارس على ابنها حقها فـي النـصح والإرشـاد وفقـاً لأيديولوجية الأمومة، وبدا الابن رغم سلطته الإمبراطورية منصاعاً لأمه احترامًـا وتـوقيراً لها(١).

ويبدأ هذا الحوار بذكر طبيعة العلاقة بين الحاكم وشعبه، ثم مزايا وعيوب الزواج لشخص فى وضع الإمبراطور، وتظهر هيلينا على أنها الشخص التى أقنعت ابنها بالزواج، وأنها تمتلـك فهمًا دبلوماسيًا وتأثيرًا سياسيًا على ابنها وهى التـى تـدير الـشئون الـسياسية والدبلوماسـية للإمبراطورية، وتظهر كذلك بصورة من تعطى النصائح والإرشادات، بينما الابن يوافق على ما تقول، وتصور كذلك الإمبراطورة هيلينا على أنها مصدر الحكمة وراعية السلطة الإمبراطورية والأمن الاجتماعي وحامى حمى الأسرة الإمبراطورية والدولة ككل، وأنها تؤيد ضرورة التحلى بالشفافية والمصارحة بين الحاكم والمحكومين، وأهمية إنجاب الإمبراطور للأطفـال لـضمان وجود خليفة له حتى لا يحدث صراع على السلطة الإمبراطورية(٢).

وفى نهاية الحوار يخضع ابنها الإمبراطور لرأيها، ويعترف وهو الإمبراطور بعدم فهمه أمام معرفة أمه قائلاً: " أنت على حق يا أمى... أنا أدرك ذلك، أنه مهما قلت أو حتى فعلـت شيئ مهلهل وغبي "(٣). وفى نهاية حواره يعترف بهزيمته أمام رأى أمـه، وأن رأيهـا هـو الصواب "قد بدا لى الآن أن كلامى لقى هزيمة فعلى أن ألجأ إلى العفو... الآن فـإن الـرأى الفائز هو الذى فى جانبك"(٤).

كذلك فإن الإمبراطورة ثيودورا كنتاكزينوس أم الإمبراطور يوحنا كنتـاكزينوس التـى سهرت على تربيته وعلمته وشجعت طموحه للسلطة، كانت امرأة ذات شخصية عظيمة وقدرة فائقة، وقال عنها ابنها: " إنها تتمتع بخبرة كبيرة فى الأمور السياسية والإدارية، كما إنها تمتلك إدراكًا وفهمًا يتجاوز حدود الطبيعة الأنثوية بقدر كبير"(٥).

ووصفها المؤرخ نقفور جريجوراس بأنها "تتميز بصفات شخصية رائعة وتمتلك قـدرة

---

(١) Manuel II Palaeologus, Dialogue with the Empress-Mother on Marriage, BV 19 (1991), pp. 62-117.

(٢) Dialogue with the Empress-Mother, pp. 61-117

(٣) انظر الملحق الأول.

(٤) انظر الملحق الأول.

(٥) Cantacuzenus, Historiarum, I, p. 92.

إدراكية جادة، وماهرة على نحو كبير، وبصفة خاصة فى إيجاد مخارج دائماً من المواقف الصعبة"[١]. فقد لعبت دوراً بارزاً فى الحياة السياسية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور أندرونيقوس الثالث – صديق ابنها يوحنا كنتاكزينوس – وتولت إدارة الإمبراطورية أثناء غيابه عن القسطنطينية، وفى إحدى المرات تفاوضت ثيودورا كنتاكزينوس مع ليون كالتيتوس **Leon Calthetos** وهو أحد نبلاء جزيرة خيوس **Chios**[٢]. والذى كان على صلة قرابة مع أسرة كنتاكزينوس وجاء إلى ثيودورا ليعرض عليها فرصة لإستعادة البيزنطيين للجزيرة والتى احتلها الجنويون منذ فترة طويلة، وأخذ يذكرها بأهمية الجزيرة للإمبراطورية البيزنطية وأيضاً بصداقته لها ولابنها يوحنا كنتاكزينوس، وأنه يهدف مصلحة الإمبراطورية، وقدم لها خطة للاستيلاء على الجزيرة، تقوم على أن يأتى الإمبراطور بأسطول أمام الجزيرة وعندئذ يقوم كالتيتوس وعائلته بمساعدته، خاصة وأن حاكمها لم يلتزم بشروطه مع الإمبراطور البيزنطي وقام ببناء قلعة حصينة دون علمه، وتناقشت ثيودورا مع الإمبراطور أندرونيقوس الثالث فى الأمر ووافق على رأيها، واستعد للحملة على خيوس والتى انتهت باستسلام حاكمها وتسليم الجزيرة للبيزنطيين[٣].

كذلك تولت الإمبراطورة ثيودورا كنتاكزينوس إدارة الإمبراطورية مع الإمبراطورة آنا سافوي أثناء غياب الإمبراطور أندرونيقوس الثالث عن القسطنطينية ونجحت في التصدي لإحدى المؤامرات التي اندلعت أثناء ذلك[٤].

وعندما مرض الإمبراطور أندرونيقوس الثالث سنة ١٣٤١م تناقشت معه ثيودورا حول من يقوم بتولى شئون الإمبراطورية فى حالة وفاته وحاولت معرفة ما إذا كان قد أسند الإمبراطور لأمه الإمبراطورة ماريه– اكسن **Maraia-Xene** المشاركة فى الوصاية مع زوجته أنا سافوي، ولكن أجابها بأنه من غير الممكن أن يجلس اثنان على العرش

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 277.

(٢) جزيرة خيوس: جزيرة تابعة للإمبراطورية البيزنطية تقع شرق بحر إيجة بالقرب من ساحل آسيا الصغرى، وقد إستولى عليها اللاتين أثناء الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م ثم آلت إلى الجنوية وأصبحت مركزًا تجاريًا هامًا، ولم يستطع العثمانيون الاستيلاء عليها إلا سنة ١٥٥٦م.
ODB, I, pp. 423-4.

(٣) Cantacuzenus, Historiarum, I, pp. 39-44; See Also: Kyrris, Role de La Femme, p. 368; Nicol, Byzantine Family, p. 31.

(٤) انظر ص ٦٢-٦٣.

الإمبراطوري، خاصة لو كانوا نساء[١]. ومن ناحية أخرى عندما اندلعت الحرب الأهلية بين الإمبراطورة آنا سافوي ويوحنا كنتاكزينوس وتم إتهامه كمنشق ظلت أمه ثيودورا في القسطنطينية تدافع عنه وتحاول تبرأته لدى الإمبراطورة آنا ومجلس الوصاية، حتى تم القبض عليها ومصادرة أملاكها ووضعت في السجن وماتت هناك[٢].

ويشبه رنسيمان **Runciman** ثيودورا كنتاكزينوس بالإمبراطورة آنا دلاسينا[٣]. أم الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين فكل منهما كانت امرأة ثرية تنتمى لأسرة أرستقراطية وسعت كل منهما بكل ما أوتيت من قوة من أجل رفعة وتقدم ابنها، ويذكر المؤرخ نفسه أن ثيودورا كانت أكثر نشاطاً من الناحية السياسية وكان دورها أكثر بروزًا، ولكنها ماتت قبل أن ترى تتويج ابنها يوحنا كنتاكزينوس باعتلائه العرش الإمبراطورى[٤].

كذلك لعبت الإمبراطورة الصربية هيلينا دراجاش **Helena Dragaš**[٥] زوجة الإمبراطور

---

(١) Cantacuzenus, Historiarum I, pp. 396-7; See Also: Kyrris, Role de La Femme, p. 468.

- وقد حدث أن تولى الحكم الإمبراطوري سيدتان وذلك في عصر الأسرة المقدونية عندما تولت زوى وأختها ثيودورا ابنتا الإمبراطور قسطنطين الثامن بعد وفاة والداهما وذلك في الفترة الممتدة من سنة ١٠٤٢-١٠٥٦م، والتي مثلت الحكم النسائي المشترك لأول وأخر مرة في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، وانقرضت بوفاة ثيودورا، هذه الأسرة البيزنطية العريقة.

لمزيد من التفاصيل عن حكمهما انظر :

عليه الجنزوري : المرأة في الحضارة البيزنطية، ص١١٢-١٢٦؛ محمد محمد مرسي الشيخ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص٢٩٠-٣٠٢.

(٢) Cantacuzenus, Historiarum, II,pp. 396-7.

(٣) آنا دلاسينا: ولدت سنة ١٠٢٥م وهى أم الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين، وكانت تتولى إدارة الإمبراطورية أثناء فترات غيابه الطويلة عن العاصمة وفى حملاته العسكرية، وأصدر الإمبراطور مرسومًا لتعينها كوصية واحتفظت بهذه المكانة لفترة طويلة. وكان الجميع يطيع أوامرها كما لو كانت صادرة عن الإمبراطور نفسه، وقيل أن ألكسيوس كان نظرياً الإمبراطور ولكن أمه كانت الإمبراطور الحقيقى. بل وتذكر الأميرة آنا أن الإمبراطور كان يرغب أن يكون حكم الإمبراطورية في يد أمه بدلاً منه.

آنا كومنينا، ألكسياد، ترجمه حسن حبشي، القاهرة ٢٠٠٤م، ص١٤٥-١٥٥؛ انظر أيضًا :

Garland, Byzantine Empresses, pp. 1-2; Gitting, Elite Women, p. 68, ODB, I, p. 578.

(٤) Runciman, S., "Women in Byzantine Aristocratic Society", in: Byzantine Aristocracy IX to XIII Centuries, Oxford 1984, p. 17.

(٥) هلينا دراجاش : هي ابنة الأمير الصربي قسطنطين دراجاش **Konstantin Dragaš**، وكان والدها نبيل وحاكم صربي مشهور حكم منطقة واسعة من مقدونيا الشرقية وعرف هو وأخيه يوحنا بكثرة منحهما للأديرة، وكانت علاقته طيبة بالإمبراطورية البيزنطية وتزوج أميرة بيزنطية، وأنجب ابنته هيلينا التي تزوجها الإمبراطور مانويل في فبراير سنة ١٣٩٢م.

Barker, Manual II Palaeologus, pp. 99-104; Anastasejevic, Kedina Vizantijka, pp. 26-30; ODB, I, pp. 505-6.

مانويل الثانى دوراً سياسياً هاماً واستطاعت الاحتفاظ بالعرش الإمبراطوري لابنها قنسطنطين الحادى عشر باليولوجوس **Constantine XI Palaiologos** (١٤٤٩-١٤٥٣م) ورتبت إعلانه كإمبراطور أثناء غيابه عن القسطنطينية، فقد حدث صراع على السلطة الإمبراطورية بين أبناء الإمبراطور مانويل الثاني، إذ كان ثيودور يعتبر نفسه الوريث الشرعي لأخيه الإمبراطور يوحنا الثامن باليولوجوس **John VIII Palaiologos** (١٤٢٥-١٤٤٨م) والذي مات دون أن يترك وريثًا، والأحق بالعرش من أخيه قنسطنطين، وأخذ يخطط لذلك قبل موت أخيه الإمبراطور، لذلك ترك منطقة المورة الذي يتولى حكمها وانتقل إلى تراقيا ليكون على مقربه من القسطنطينية، ولكنه مات قبل أخيه بقليل دون أن ينفذ خططه، وتبعه في سياسته العدائية أخوه ديمتريوس، والذي سعى للحصول على العرش الإمبراطوري بكل وسيلة والتصدي لمحاولات أمه الإمبراطورة هيلينا التي كانت تميل إلى تولية ابنها قنسطنطين العرش، فبمجرد وفاة أخيه يوحنا الثامن أسرع إلى القسطنطينية في أكتوبر سنة ١٤٤٨م ونادى بنفسه إمبراطورًا، ولكن سيطرت الإمبراطورة على مقاليد الأمور في العاصمة واجتمعت بكبار رجال الدولة وطلبت منهم تأيد رغبتها في تولية ابنها قنسطنطين العرش بدلاً من ديمتريوس، واستدعت باقي أبنائها من مناطق حكمهم وأخذت منهم الموافقة على تولية أخيهم قنسطنطين العرش الإمبراطوري وأقسموا أمامها بأنهم لن يعارضوا أوامرها ووعدوا بعدم التمرد على حكم أخيهم وأن يكونوا حلفاء له، وهنا استدعت الإمبراطورة ابنها قنسطنطين الذي جاء إلى القسطنطينية وتم تتويجه في يناير سنة ١٤٤٩م(١).

فضلاً عن ذلك فقد أثبتت الإمبراطورات البيزنطيات فى عصر باليولوجوس جدارتهن فى حكم بعض الأجزاء الإمبراطورية، فقد تولت الإمبراطورة إيرين مونتفرات حكم مملكة سالونيك **Thessalonica** (Salonike)(٢) والتى رحلت إليها سنة ١٣٠٣م غاضبة بعد أن رفض

---

(١) Sphrantzes, G., The Fall of The Byzantine Empire, Trans. Philippides M., Amherst 1980, pp. 57-8; See Also: Anastasejevic, D, "Jedina Vizantijka Carica Srkinja, (The only Serbian Byzantine Empress) B 30 (1939) pp. 35-8; Runciman, The Marriages of the sons, p. 282.

وانظر أيضًا : السيد محمد المتولي عطية : الدولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشر [رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة المنصورة، ١٩٩٨م]، ص٤٧-٥٢.

(٢) سالونيك: أحد موانى بلاد اليونان الواقعة إلى الشمال الغربي من شاطئ بحر إيجه. وتعد من أهم المدن البيزنطية وأكثرها سكانًا وثراء، وقد احتلت مكانة هامة منذ القرن الرابع عشر الميلادي. فمنذ الفتوحات العربية في القرن السابع الميلادي وحتى الاستيلاء على القسطنطينية بواسطة اللاتين سنة ١٢٠٤م كانت الحياة البيزنطية تتركز حول العاصمة ولم يكن لأي من المدن الإقليمية أي حياة اقتصادية أو اجتماعية أو فكرية هامة يمكن أن تقارن بالعاصمة، ولكن مع بداية القرن الرابع عشر =

زوجها تقسيم الممتلكات الإمبراطورية بين أبنائها وحكمت كإمبراطورة هناك، وأقامت بلاطًا خاصًا بها وأدارت الشئون الداخلية للمملكة وعينت الموظفين ونجحت في إدارة أمور سالونيك، وحلت الكثير من النزاعات حول ملكية الأراضى، ومارست سياسة خارجية بعيدة عن الإمبراطورية البيزنطية كما لو كانت حاكمة مستقلة فى مقاطعتها الصغيرة، واستمر ذلك حتى وفاتها سنة ١٣١٧م[١].

ونجحت الإمبراطورة إيرين فى الدفاع عن مملكة سالونيك ضد أى اعتداء خارجى، ويشير دونالد نيكول **Donald Nicol** إلى أنها انضمت إلى التحالفات الدفاعية لمنطقة البلقان ضد الكتلان[٢]. حيث جندت القوات من سالونيك ومن خارجها للدفاع عن المملكة[٣].

كذلك لعبت الإمبراطورة آنا سافوى دورًا نشطًا فى حكم مملكة سالونيك، ومارست سلطتها بواسطة حكمها كإمبراطورة، وبدأ حكمها الفعلى للمملكة سنة ١٣٥١م واستمر حتى وفاتها سنة ١٣٦٥م[٤].

= ظهرت سالونيك كعاصمة منافسة للقسطنطينية، ونعمت بحياة اقتصادية وتجارية مزدهرة وأفكار سياسية واجتماعية أكثر حيوية ونشاطًا. ومع ازدياد مكانتها زاد لدى سكانها النزعة الانفصالية عن الإمبراطورية ومن هنا حدث فيها العديد من حركات التمرد.

Rumciman, Thessalonica and the Montferrat, p. 27.

وانظر أيضًا : آمال حامد زيان : الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين والحملة الصليبية الأولى في ضوء كتاب الأكسياد، القاهرة ٢٠١٠م، ص١٤٤، حاشية رقم (٢).

(١) Nicol, Byzantine Lady, pp. 53, 57; Garland, Byzantine Empresses, p. 225; Lemerle, p., Philippes et La Macedoine Orientole à l'epoque Chretienne et Byzantine, Paris 1945, pp. 188-9.

(٢) الكتلان: نسبة إلى إقليم قطالونيا **Catalonia** الواقع شمال شرق شبه الجزيرة الأيبرية مثل آراجون **Aragon** ونافار **Navarre** وخارجها، وهم جماعة من الجند المرتزقة اشتهرت بالحرب والقتال منذ النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادي، وأول من استعان بهم فردريك الثالث الأرجوانى ملك صقلية (١٢٩٦-١٣٣٧م) حيث قدم قائدهم روجر دى فلور **Roger de Flor** المساعدة له فى حربه ضد الإنجويين، ووصلت شهرته إلى مسامع الإمبراطور أندرونيقوس الثانى، والذى كان فى حاجة ماسة للقوة العسكرية لتساعده فى التصدى لخطر الإمارات التركمانية فى آسيا الصغرى وعرض روجر مساعدته على الإمبراطور مقابل شروط عديدة.

لمزيد من التفاصيل: Vasiliev, Byzantine Empire, 2, pp. 604-5.

وانظر أيضًا : ناهد عمر صالح، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص ٩٧-١٣٢؛ أحمد عبد المقصود، الجماعات القطالونية فى الإمبراطورية البيزنطية (١٣٠٣-١٣٨٨م)، [رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة المنصورة – ١٩٩٦م].

(٣) Nicol, Byzantine Lady, pp. 54-5.

(٤) Nicolas, C., Chronologie de Nicolas Cabasilas 1345-1354, Trans.. Loenertz, R.J, OCP, XXI (1955), p. 217; See Also: Nicol, D.M., and Bendall, S., "Anna of Savoy in Thessalonica: The Numisatic Evidence", RN, xix (1977), p. 87-93; Garland, Byzantine Empresses, p. 226.

وفي الحقيقة مارست الإمبراطورة آنا سافوى الحكم المطلق لسالونيك دون أى تدخل خارجى، فأصدرت الأوامر السياسية والإدارية، ومنها مرسوم يحتوى الجزء الأول منه أمر صادر عن الإمبراطورة لأحد المشرفين على حصون المملكة بفتح باب بالجانب الشرقى للحصن، والثانى عبارة عن منحة قدمتها الإمبراطورة لأحد الأديرة فى سالونيك حوالى سنة ١٣٦٠م(١).

وقد لاقى حكم الإمبراطورة آنا سافوى الترحيب من مواطنى سالونيك ومدحها نيقولاس كاباسيلاس **Nicolas Cabasilas** – أحد المواطنين – لكونها أعادت إلى مملكته السلام والاستقلال السياسى بعد فترة من الصراع والاضطراب التى عانت منه أثناء الحرب الأهلية بين الإمبراطورة ويوحنا كنتاكزينوس(٢)، ويصفها نيقولاس فى قصيدته بأنها أفضل السيدات، وأنها السبب فى أن ينعم وطنه بالهدوء، ونتيجة لجهودها لم تنهار المدينة بعد الظروف السيئة التى مرت بها، ويؤكد بأنه لا يوجد شخص فى المدينة لا يمدح هذه الإمبراطورة العظيمة(٣).

ونظرًا لمكانة الإمبراطورة آنا سافوي فقد انفردت بسك عدد كبير من العملات، مما يدل على سلطتها كحاكمة مستقلة كانت لها السيطرة الكاملة في إدارة وحكم سالونيك، فرغم أن سك العملة لم يكن صفة مميزة لحكام الأقاليم، وكان نادرًا أن تصور الإمبراطورات على العملات خاصة بعد أن يصل أبناؤهن إلى سن الرشد فإن الإمبراطورة آنا قد أمرت بسك الكثير من العملات وصورت على أحد وجهي العملة، وهي ترتدي الملابس الإمبراطورية وتحمل في يدها اليمنى الصولجان، واليسري نموذجًا لمملكة سالونيك مع الأبراج وعلى الوجه الآخر ابنها الإمبراطور يوحنا الخامس مرتديًا الملابس الإمبراطورية وفي يديه الصولجان، الأمر الذي يؤكد مدى نفوذها وقوة تأثيرها(٤) (شكل رقم (١)).

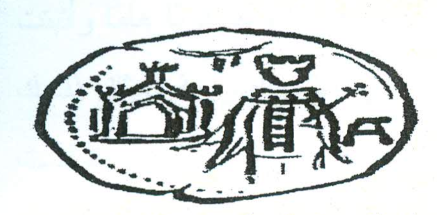
---

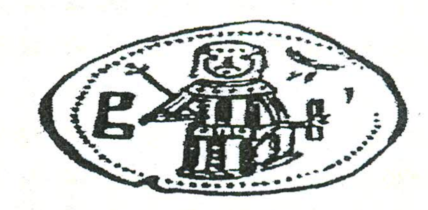
(١) Barišic, Povelje Vizantijskich, pp. 180-3; Nicol, Byzantine Lady, p. 93.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الفوضى والاضطراب فى سالونيك، انظر ما يلي ص٦٢-٦٣؛
Barker, J. W., "Late Byzantine Thessalonike: A Second City's Challenges and Responses", DOP 57 (2003) pp. 16-21.

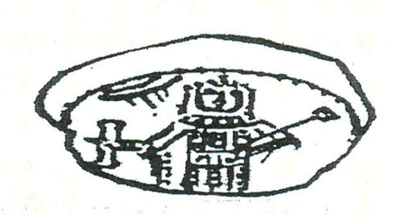
(٣) Chronologie de Nicolas Cabasilas, pp. 224-5.

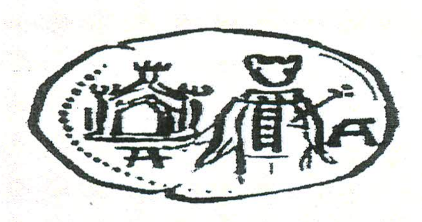
(٤) Gitting, Elite Women, pp. 105-6; Nicol, Byzantine Lady, pp. 92-3; Nicol and Bendall, Anna of Savoy in Thessalonica, pp. 95-99.
- لمزيد من التفاصيل عن العملات التى أصدرتها الإمبراطورة آنا :
Protonotarios, p., "John V and Anna of Savoy (1351-1365) The serres Hoard", NC 8 (1989) pp. 69-84; Bendall s., and Donald P.J., The Later Palaeologan Coinage, 1282-1453, London 1979, pp. 249-255.

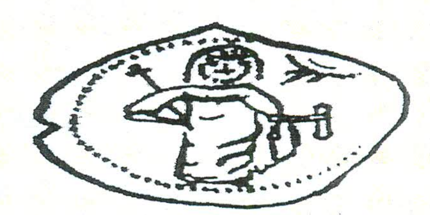




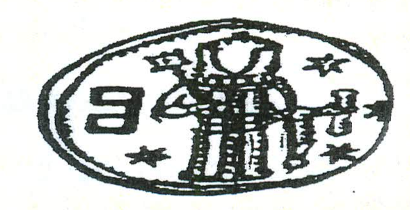




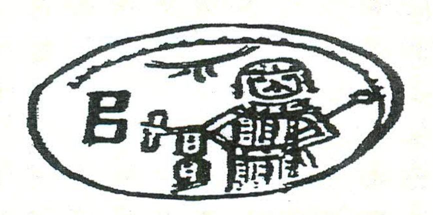


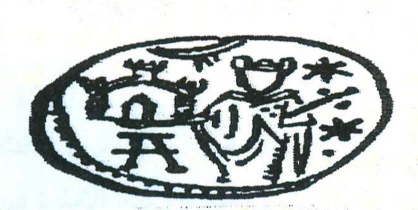














شكل رقم (١)

Bendall, and Donald,

The Later Palaeologan Coinage, 99. 248-251

وهناك أيضاً من إمبراطورات أسرة باليولوجوس من لعبت دورًا سياسيًا وعسكريًا هامًا وأثبتت جدارتها فى مساعدة زوجها والقيام بدوره أثناء غيابه والدفاع عن الإمبراطورية ومثال ذلك كانت الإمبراطورة إيرين باليولوجوس زوجة الإمبراطور يوحنا كنتاكزينوس والتى تولت الدفاع عن مدينة ديديموتخيوس أثناء الحرب الأهلية بين زوجها والإمبراطورة آنا سافوى، ففى شتاء سنة ١٣٤٢م تركها زوجها تتولى إدارة وحماية المدينة وذهب إلى سالونيك وصربيا لطلب المساعدة، ودافعت إيرين بشجاعة ضد الهجمات المتكررة من القسطنطينية والتى حاصرت المدينة لعدة شهور واستمرت تتولى الإدارة والدفاع عن المدينة لمدة عامين[١].

وأثناء هذه الفترة جاء للمدينة الأمير عمر التركي (١٣٣٤-١٣٤٨م) أمير أيدين[٢]، وصديق يوحنا كنتاكزينوس فى منتصف شتاء سنة ١٣٤٣م كضيف غير متوقع، وجاء بأسطول ضخم يبحث عن يوحنا كنتاكزينوس ليؤكد له على صداقته ويجدد التحالف معه وعسكر بقواته أمام ديديموتخيوس، ورحبت به إيرين ومدت قواته بكل مواد الإعاشة الضرورية والملابس لحماية جنوده من الشتاء القارص فى هذا الوقت العصيب، التى كانت فيه مدينتها تعانى من الهجمات المتلاحقة من القسطنطينية[٣].

وسجل نقفور جريجوراس إعجابه الشديد بشجاعة إيرين فى الدفاع عن المدينة وذكائها فى التعامل مع المواقف التى مرت بها أثناء غياب زوجها، ويذكر أنه عندما عاد زوجها عبر عن شكره الكبير لها على صمودها فى تحمل الصعاب العديدة التى واجهتها والكفاح العظيم التى أبدته عندما شجعت القوات العسكرية المدافعة عن المدينة بكل طريقة، وكانت باعثاً لهم

---

(١) Cantacuzenus, Historiarum, II, p. 336-7; See Also: Nicol, Byzantine Lady, pp. 5, 72-3; The Reluctant Emperor A Biography of John Cantacuzene, Byzantine Emperor and Monk, C. 1295-1383. Cambridge 1996, p. 62; Head. C., Imperial Twilight: The Palaiologos Dynasty and the Decline of Byzantium, Chicago 1977, p. 67.

(٢) أيدين: ظهرت هذه الإمارة في آسيا الصغرى بعد انهيار سلطنة سلاجقة الروم في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، وامتدت حدودها حتى الساحل الغربي لآسيا الصغرى، وقد زادت قوة هذه الإمارة في عهد الأمير عمر الذي عرف بالجرأة والشجاعة وفرض الجزية على أمراء المورة وجزر البحر الأيجي، واستولى العثمانيون على هذه الإمارة سنة ١٤٢٨م.
Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 68; See Also: ODB, I, pp. 219-220.

(٣) Cregoras, Rhomaische Geschichte, II, pp. 84-7. Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 68-9.

على المقاومة تارة بالهدايا وتارة أخرى بتوجيه اللوم إذا تقاعسوا في نصرة قائدهم[١]. واعترف المؤرخ نفسه بذكاء الإمبراطورة إيرين فى التعامل مع الرسل الذين يأتون من القسطنطينية فتستخدم بذكاء الوعود والحيل الماكرة معهم، وبذلك خففت التهديد على مدينتها حتى جاء زوجها، ويدون نقفور جريجوراس إعجاب الأمير التركى بهذه المرأة واندهاشه من استمرارية صمودها أمام هذه الضغوط ويذكر أنها " خففت على كنتاكزينوس العديد من الأعباء وأتاحت له الفرصة لتحقيق أهدافه "[٢].

لم تكن هذه المرة الوحيدة التى أثبتت فيها الإمبراطورة إيرين مهارتها وشجاعتها، وذلك لأنه بعد أن تولى يوحنا كنتاكزينوس العرش الإمبراطورى بعام واحد سنة ١٣٤٨م رحل على رأس حمله ضد البلغار وترك إيرين تتحمل مسئولية الإدارة والدفاع عن القسطنطينية التى ما لبثت أن تعرضت للهجوم الجنوى وذلك بسبب سياسة يوحنا كنتاكزينوس ضد الجنويين فى جالاتا[٣]. والتى كان يهدف من ورائها إلغاء الاحتكار والسيطرة الجنوية على المياة البيزنطية والذين حققوا من ورائها مكاسب طائلة، إذ يذكر نقفور جريجوراس أن الدخل السنوى لجالاتا من الرسوم الجمركية كان مائتى ألف هيبربيرة **Hyperperi**[٤]. بينما الدخل السنوى للقسطنطينية حوالى ثلاثين ألف هيبربيرة فقط[٥]. من هنا اتخذ يوحنا كنتاكزينوس عدة إجراءات وفرض قيودًا عديدة لتقليص مكاسب الجنويين التجارية، وأعاد بناء الأسطول

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 111.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II p. 113.

(٣) جالاتا: مدينة بيزنطية هامة تقع على الجانب الشمالى للقرن الذهبى فى مواجهة القسطنطينية، احتلها الصليبيون سنة ١٢٠٣م، واستردها ميخائيل الثامن باليولوجوس سنة ١٢٦١م ومنحها لجنوه سنة ١٢٦٧م، وكانت مركزًا تجاريًا لها، وعرفت باسم بيرا **Pera**.

ODB, 2, p. 815-6.

(٤) الهيبربيرة: عملة ذهبية قديمة فى البندقية، الواحدة منها تساوى ٢٤ قيراط، منها ١١ قيراطًا من الذهب الخالص و٦ قراريط من الفضة و٧ قراريط من النحاس، وقد انخفضت قيمتها فى عصر أسرة باليولوجوس خاصة فى عصر الإمبراطورين يوحنا الخامس باليولوجوس ويوحنا السادس كنتاكزينوس.

لمزيد من التفاصيل، انظر:

ODB, 2, pp. 964-5.

Bellinger, A. R., and Grieson, P., & Hendy M. F., Catalogue of the Byzantine Coins in Dumbarton Oaks Collection and in the Whittemore Collection, Washington 1999, pp. 47-9.

(٥) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 202-4, 206.

البيزنطى، وهكذا هدد الإمبراطور مصالحهم التجارية، وعندما رفضت الإمبراطورة إيرين الاستجابة لمطالبهم وإلغاء قرارات زوجها وعلموا بغيابه ومرضه استعدوا للهجوم على سواحل القسطنطينية[١].

ففى أغسطس من نفس العام أبحر الجنويون من جالاتا إلى الساحل البيزنطى وأشعلوا النيران فى كل ما وجدوه من سفن، سواء تلك التى كانت مجهزة أو على وشك الإبحار أو السفن التجارية المحملة بالبضائع، وكذلك السفن التى كان يتم تشييدها، وحتى السفن القديمة التى كان العمال يقومون بصيانتها وتجديدها، يذكر نقفور جريجوراس أنه "قد أكلتها النيران" وأشعلوا كذلك النيران فى كل الساحل وعبروا إلى الجهة الأخرى وأغاروا على أبواب القسطنطينية، واستولوا على السفن المحملة بالغلال وقاموا بسلبها، الأمر الذى أدى إلى نقص الحبوب فى القسطنطينية[٢].

نهضت الإمبراطورة إيرين للتصدى لهذا الهجوم والدفاع عن القسطنطينية مثلما فعلت من قبل في ديديموتخيوس أثناء الحرب الأهلية، وأظهرت إيرين قيادة عسكرية ماهرة، فأعطت لابنها مانويل عددًا من الجنود وأمرته بالتوجه إلى أسوار وأبواب المدينة للدفاع عنها ضد هجمات الجنويين المتكررة والهجوم على جالاتا بصورة مفاجئة، وبالفعل قام بالهجوم على أسوارها وأحرق مخازن بضائع الجنويين، وفى الوقت نفسه، دفعت الإمبراطورة جموع البيزنطيين للذهاب إلى ابنها لتشجيعه ومساعدته فى الدفاع عن المدينة، وهنا يصف نقفور جريجوراس: كيف شارك الجميع فى الدفاع، عن أسوار القسطنطينية والتصدى للجنويين قائلاً: "إن كل فرد ساعد فى الدفاع، محضراً الأسلحة والخيول، عمال البناء والخياطين، عمال المعادن، كلٌ أخذ سلاحه، العاملون فى الأرض جُندوا كمرتزقة لأول مرة، وأمسكوا بالمجاديف وأبحروا فى البحر، حتى العبيد قام أسيادهم بتسليحهم وتمرين أياديهم على استخدام الأسهم والأقواس لمواجهة الخطر الذى دفع الجميع للعمل"[٣].

---

(١) The History of John Cantacuzenus, Book IV, Text, Trans. and Commentary by. Timothy, M. (PhD. The Catholic University of America, 1975, pp. 202-4; "An Important Short Chronicle of the Fourteenth Century ", Trans, Charanis, p., B xiii (1938), pp. 346-7; See Also: Nicol, Reluctant Emperor, p. 97; The Last Centuries of Byzantium 1261-1453, Cambridge 1993, pp. 220-221; Byzantine Lady, p. 76.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 208; See Also: Kyrris, C.P. "John Cantacuzenus and The Genoese", MSL 3 (1963), pp. 43-4.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 208-9.

وفى الوقت نفسه قامت إيرين بزيادة عدد الجنود المسلحين الموجودين فوق الأبـراج، واهتمت بالمجانيق التى ترمى بالحجارة الأماكن القريبة والبعيدة فيمكنها تدمير منازل الجنويين وكذلك السفن الكبيرة التى استخدموها كحوائط أمامية للدفاع عنهم، وأصبح وضع الجنـويين حرجًا لدرجة أنهم أرسلوا إلى حلفائهم فى كل مكان طلباً للمساعدة[١]. وبالفعل وصـلت لهـم الإمدادات من حلفائهم، وكذلك جاءت سفنهم الكبيرة التى كانت فى رحلات تجارية، وأصـبح تحت سيطرتهم عدد كبير من المسلحين، وأيضاً وسائل الإعاشة مما يفـيض عـن الحاجـة، وأخذوا فى الاستعداد للقيام بهجمات تالية، وصارت مدينتهم على حد قول نقفور جريجوراس "خلية حربية تعج بالنشاط"[٢]. وزاد ذلك من عزيمتهم وإصرارهم علـى قتـال البيـزنطيين واختاروا سفينتين للبضائع مرتفعتين ووضعوا عليها المجانيق وقاموا بقذف السفن والمجـانيق البيزنطية، كما اختاروا سفينة ثالثة أكبر فى الحجم وقاموا ببناء برج فوقها من الكتل والألواح الخشبية حتى فاق أسوار القسطنطينية ارتفاعاً وكان محميًا بالتروس، وحـشدوا فيـه أفـضل جنودهم وكل ما استطاعوا من أسلحة وآلات القذف، ونقلوها إلى أسوار القسطنطينية للهجـوم على المدينة واقتحامها، ووجه المدافعون البيزنطيون وابلاً من الأحجار والسهام، سواءً مـن داخل الأسوار أو من فوق المنازل ضد التروس الحامية، حتى انهار المبنى وانسحب الجنويون بخسائر كبيرة وأرسلوا رسلهم للتفاوض مع الأمبراطورة إيرين[٣].

علاوة على ذلك فقد أثبتت الإمبراطورة إيرين مهارتها فى الدفاع عن القسطنطينية مرة أخرى، وكان ذلك فى مارس سنة ١٣٥٣م عندما كان الإمبراطور يوحنا كنتـاكزينوس فـى أدريانوبل **Adrianople**[٤]، حيث أبحر الإمبراطور المشارك يوحنا الخامس باليولوجوس من جزيرة تينيدوس **Tenedos**[٥] إلى القسطنطينية أملاً أن يقوم أنصاره فى العاصمة بالترحيب به

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 209.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 209.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 209-10; See Also: Nicol, Byzantine Lady, p. 77, Last Centuries, p. 222.

(٤) أدريانوبل: مدينة في تراقيا تقع على الطريق الحربـي العظـيم الممتـد عبـر بلجـراد ـ صـوفيا ـ القسطنطينية، وكانت حصناً هامًا لحماية القسطنطينية من الإغارات القادمة من الشمال.

ODB, I, p. 23

(٥) جزيرة تينيدوس: تقع شمال شرق بحر إيجة، وكان للإمبراطورية البيزنطية فـي عهـد الإمبراطـور جستنيان الأول، فيها مخزن كبير للحبوب التى تأتى من الإسكندرية، وبالرغم من موقعها الاستراتيجي القريب من القسطنطينية نادراً ما كانت تذكر حتى القرن الثالث عشر الميلادي عندما استولى عليها =

ومساعدته فى دخولها، ولكن الإمبراطورة إيرين كانت له بالمرصاد، إذ قامت بتحصين أبواب وأسوار المدينة ووضعت الحراس لمراقبة أنصاره، منعًا لقيامهم بالثورة لمساندة حليفهم، وتصدت له بكل قوة وسرعة واضطرته للانسحاب فى غضون ثلاثة أيام، وبذلك فشلت محاولة يوحنا الخامس في الاستيلاء على العاصمة بفضل جهود الإمبراطورة إيرين(١).

على هذا النحو أثبتت الإمبراطورة إيرين شجاعتها وقدرتها العسكرية الفائقة ووقوفها إلى جوار زوجها ومساندتها له، فكانت المساعدة له دائماً وبصفة خاصة فى أكثر الفترات حرجاً، وكانت كلماتها ومساعدتها العملية من أهم عوامل رفع معنويات أتباعه وحفاظهم على إخلاصهم له، وكان نقفور جريجوراس من أشد المعجبين بهذه الإمبراطورة التى قال عنها: "كانت الإمبراطورة إيرين حصيفة على نحو عظيم، عميقة الإدراك، حادة الذهن، تفوقت على النساء الأخريات فى شدة الفهم... تمتلك ذكاءً فطرياً جزءًا من طبيعتها"(٢).

نساء الأسرة الإمبراطورية والحروب الأهلية والفتن والمؤامرات الداخلية والخارجية :

كانت الحرب الأهلية التى خاضتها الإمبراطورة آنا سافوى بعد موت زوجها الإمبراطور أندرونيقوس الثالث سنة ١٣٤١م، بداية انهيار الإمبراطورية البيزنطية، وقال عنها كنتاكزينوس: "إنها أسوأ حرب أهلية خاضها الرومان، نزاع حطم تقريباً كل شئ وخفض إمبراطورية الرومان العظيمة إلى شبح وظل ضعيف"(٣).

اندلعت هذه الحرب سنة ١٣٤١م بين الإمبراطورة آنا سافوى ويوحنا كنتاكزينوس الصديق الأقرب والمستشار الأساسى لزوجها الإمبراطور أندرونيقوس الثالث الذى اعتبره كأخ له فى كل شيئ، وفوض له الكثير من السلطة الإمبراطورية أثناء حياته، فكان مثله مثل

= الإمبراطور اللاتينى فى القسطنطينية، وانسحب إليها يوحنا الخامس باليولوجوس سنة ١٣٥٢م وقدمها للبنادقة فى مقابل القرض الذى حصل عليه منهم، ولكن أخذها الجنويون سنة ١٣٧٦م وفى سنة ١٣٧٧م نشبت عليها الحرب بين جنوه والبندقية.

ODB, 3, p. 2025

(١) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, pp. 187-8; Nicol, Reluctant Emperor, pp. 121-2; Byzantine Family, p. 106; Parisot, V., Cantacuzéne Homme D'Etate et Historien, Paris 1845, pp. 277-8.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 180.

(٣) Cantacuzenus, Historiarum, II, p. 12.

الإمبراطور يخضع له جميع موظفى الدولة، ويوقع على الأوراق بالحبر الأحمر تماماً كما يفعل الإمبراطور، وتنفذ أوامره فى كل شئون الدولة، بل وكان من حقه استخدام الأشياء الخاصة بالإمبراطور، فمن المسموح له استخدام ملابس وحذاء الإمبراطور ذي اللون الأرجواني[١] كما لو كانت أشياءه الخاصة[٢].

وأثناء مرض أندرونيقوس الثالث سنة ١٣٣٣م عين يوحنا كنتاكزينوس وصياً على العرش الإمبراطورى وعهد إليه برعاية زوجته وأطفاله، إلا أنه عند مرضه الأخير الذى انتهى بوفاته سنة ١٣٤١م لم يعهد لأحد بالوصاية على ابنه الصغير يوحنا، ولكن بدا للكثير من الناس أن يوحنا كنتاكزينوس الصديق الأقرب والناصح للإمبراطور المتوفى أن يتولى الوصاية ويدير الإمبراطورية نيابة عن الطفل الصغير[٣].

وفى الحقيقة فإنه بعد موت الإمبراطور أندرونيقوس الثالث اعتبر يوحنا كنتاكزينوس أن مهمته توفير الراحة لزوجة الإمبراطور وأطفاله، وأدار شئون الإمبراطورية كوصى على ابنه الصغير يوحنا، وأرسل أكثر من خمسمائة خطاب إلى حكام الولايات وموظفى الإمبراطورية يأمرهم بعدم اتخاذ أى عمل يضر بمصالح الإمبراطورية، وحذر جامعى الضرائب بأنهم مسئولون عن حساباتهم كما لو كان الإمبراطور على قيد الحياة، هكذا استطاع يوحنا

---

(١) كان اللون الأحمر أو الأرجواني هو لون الملابس الملكية التي كانت علامة من علامات الإمبراطور، كالعباءة الأرجوانية، والخف الأرجواني حتى القلم ذي الريشة والحبر الأحمر الذي يقوم الإمبراطور بالتوقيع به، وقد وجد بالإمبراطوية البيزنطية وظيفة كونيسليوس **Conicleius**، ويقوم صاحبها بحمل الحبر الأحمر المستخدم في توقيع الإمبراطور. ومن الجدير بالذكر أن البعض حاول التشبه بالإمبراطور فلبس الخف الأحمر مما أغضب الإمبراطور، فهذه الأشياء خاصة بالإمبراطور ولا يستطيع أحد أن يستخدمها.

آمال حامد زيان، الدور السياسي للمؤرخ ميخائيل بسيللوس بالدولة البيزنطية (١٠٤١-١٠٧٨م) [رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة عين شمس]، ٢٠٠٨م، ص٣٨، حاشية رقم (١).

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 42-44; Cantacuzenus, Historiarum, II, p. 39; Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 64; See Also: Diehl, Byzantine Empresses, p. 292; Muratore, una Principessa Sabauda, p.109.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 259; Cantacuzenus, Historiarum, I, pp. 432-5; See Also: Nicol, Reluctant Emperor, p. 47; Last Centuries, pp. 185-6; Head, Imperial Twilight, p. 64; Ostrogorsky G., "The Palaeologi", CMH, vol iv, Part I, ed. Hussey, J.M. Cambridge 1966, pp. 356-7.

كنتاكزينوس الحفاظ على الطاعة والنظام فى جميع أنحاء الإمبراطورية، لذلك بدا كما لو أنه لم يحدث أى تغير، وأن الإمبراطور أندرونيقوس الثالث لازال يحكم الإمبراطورية، وشعرت الإمبراطورة آنا بذلك، وساد التفاهم بينها وبين يوحنا كنتاكزينوس، وكانت على استعداد أن تقبل حمايته لها ولأبنائها خاصة بعد أن أوصاها زوجها وهو على فراش الموت بعدم الفرقة مع يوحنا كنتاكزينوس[١].

لكن مثل هذه الشخصية البارزة المتحكمة فى شئون الدولة كان لابد وأن تثير شكوك الإمبراطورة آنا التى كانت تغار من قوة تأثير يوحنا كنتاكزينوس على زوجها الراحل، وخشيت أنه لو عين كوصى يمارس نفس التأثير على ابنها الصغير، وخافت على عرش ابنها، تلك المخاوف التى زادت بواسطة تدخل البطريرك يوحنا الرابع عشر كالكاس **John XIV Kalekas** (١٣٣٤-١٣٤٧م)[٢]. والدوق الكبير وقائد الأسطول ألكسيوس أبوكايكوس، ذلك أن البطريرك كان يتوق فى أن يتحكم فى أمور الإمبراطورية إلى جانب الكنيسة، وادعى أنه الأحق بالوصاية على الطفل الصغير وحماية الإمبراطورة، واعتمد فى ادعائه على أن الإمبراطور عينه كوصى على الإمبراطورية عندما رحل عن العاصمة سنة ١٣٣٤م، ومرة أخرى أثناء خروجه فى حملته فى شمال اليونان، أما ألكسيوس أبوكايكوس فكان رجلاً طموحًا يحلم بحكم الإمبراطورية، ويحقد على يوحنا كنتاكزينوس رغم ما قدمه له من معروف[٣].

---

(١) Cantacuzenus, Historiarum, I, pp. 577-560; See Also: Diehl, Byzantine Empresses, pp. 293-4; Nicol, Reluctant Emperor, 46, Last Centuries, p. 186; Head, Imperial Twilight, pp. 64-5.

(٢) يوحنا الرابع عشر كالكاس: بطريرك القسطنطينية، ولد فى منطقة تراقيا حوالى سنة ١٢٨٣م وبدأ عمله ككاهن ثم أصبح عضوًا من رجال البلاط الإمبراطورى وبمساندة يوحنا كنتاكزينوس تم ترشيحه كبطريرك للعاصمة. ولكن لم يكن رجل دين بسيطًا قانعًا بالقيام بأعماله الروحية واللاهوتية، بل شعر بارتباطه بالأمور السياسية، ورغب أن يتولى الوصاية ويضم إلى سلطته الدينية السلطة السياسية، وانقلب ضد يوحنا كنتاكزينوس وساند الإمبراطورة آنا فى حربها ضده.

Nicol, Reluctant Emperor, pp. 46-7; Muratore, una Principessa Sabauda, p. 109; Diehl, Byzantine Empresses, pp. 294-5; ODB, I, p. 1055-6.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 44; See Also: Muratore, una Principessa Sabauda, p. 125. Diehl, Byzantine Empresses, p. 294; Nicol, Reluctant Emperor, p. 47.

- إن المكانة التي وصل إليها أبوكايكوس يرجع الفضل فيها ليوحنا كنتاكزينوس، فقد ألح على الإمبراطور أندرونيقوس الثالث ليعينه قائدًا للأسطول البيزنطي، ورغم عدم اقتناع الإمبراطور به =

وأخذ الرجلان يتنافسان فى إظهار الحجج على تآمره ضد الإمبراطورة آنا ورغبته فى قتلها هى وأبنائها والاستئثار بالسلطة الإمبراطورية، وذكروا لها أن يوحنا كنتاكزينوس تعامل مع أصدقائها الإيطاليين[١] معاملة سيئة، وأنه يرغب فى إرسالهم إلى بلادهم ليحرم الإمبراطورة من مساندتهم، وحاولا إقناعها أنها بمفردها تستطيع إدارة الإمبراطورية بمساعدتهما، ونجح ألكسيوس أبوكايكوس فى التأثير على الإمبراطورة آنا وأصبحت على حد قول جريجوراس: " إنه تحكم فى الإمبراطورة كما لو كانت عبدة له"[٢].

على أى حال، ساعد غياب يوحنا كنتاكزينوس عن العاصمة على تدبير المكائد ضده، ونجح خصومه فى إقناع الإمبراطورة آنا بأنه هو المتآمر الحقيقى ضدها وضد أبنائها وأصبح البطريرك يوحنا كالكاس وصياً على العرش، أما ألكسيوس أبوكايكوس فأصبح والي وحاكم القسطنطينية **Eparchos**[٣]، وحثوا الإمبراطورة آنا على إصدار مرسوم إلى يوحنا كنتاكزينوس تجرده فيه من كل امتيازاته، وتأمره بتسريح قواته والعودة سريعاً إلى العاصمة، وتم اضطهاد أقاربه وأصدقائه ومصادرة أملاكه، ووضعت أمه ثيودورا كنتاكزينوس تحت

= وبقدراته الحربية وافق على طلب كنتاكزينوس وأمد أبوكايكوس بالأموال لتجهيز المزيد من السفن لقتال الأتراك، ولكن أبوكايكوس نشر بين الناس أنه أعد هذه السفن من أمواله الخاصة وبذلك أصبح بطلاً في أعين الناس ينفق أمواله لصالح الدولة، وعندما سمع الإمبراطور أندرونيقوس الثالث ذلك غضب عليه وعزله من منصبه وأمر بسجنه، ولكن تدخل كنتاكزينوس واستعطف الإمبراطور للعفو عنه، فوافق الإمبراطور وأعاد أبوكايكوس لمنصبه الذي حقق من ورائه الكثير من النفوذ والمال.

Cantacuzenus, Historiarum, I, pp. 535-541, 558-9.

(١) أصدقائها الإيطاليين، هي الحاشية التي صاحبت الإمبراطوة آنا عند قدومها إلى القسطنطينية للزواج من الإمبراطور أندرونيقوس الثالث وتتضمنت قسيسها وثلاثة رهبان وفرقة من الفرسان وعدد من السيدات لخدمتها والترويح عنها في البيئة البيزنطية التي كانت مختلفة بالنسبة لها، وبعد زواجها رحل بعضهم وبقي البعض الآخر لمصاحبة الإمبراطورة وخدمتها وكان على رأسهم سيدة تدعى إيزابيلا **Isabella**.

Nicol, Byzantine Lody, pp. 83-4.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 45, 60; See Also: (Muratore, una principessa Sabauda, p. 126; Nicol, Last Centuries, pp. 187-9, Diehl Byzantine Empresses, pp. 294-6).

(٣) والي القسطنطينية: ينتمي صاحب هذه الوظيفة إلى أعلى فئات موظفي الإمبراطورية، كما يُعد الرجل الثاني بعد الإمبراطور في العاصمة.

وسام عبدالعزيز فرج : الألقاب والمناصب الحكومية في بيزنطة، ص٣٦.

الحراسة وتم سجنها وحزنت على ابنها وما صدر ضده من اتهامات، ونتيجة لـذلك أصـيبت بالمرض وماتت وحيدة منسية في زنزانة السجن(١).

لم تجد استجداءات يوحنا كنتاكزينوس للإمبراطورة آنا، فقد رفضت الاستماع للرسـل الذين أرسلهم لها معلناً استعداده للقدوم للعاصمة لعرض وجهة نظره، وأخذ يذكرها أن تحالفها مع الأعداء سوف يؤدى إلى دمار الإمبراطورية، ولكن تم القبض على مبعوثيه ووضعهم فى السجن، الأمر الذى دفعه إلى أن يعلن نفسه إمبراطوراً فى مدينة ديديموتخيوس فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٣٤١م، فى الوقت الذى تمسك فيه بمبدأ الشرعية، وأعلن اسم الإمبراطورة آنا وابنهـا يوحنا قبل إعلان اسمه، وأكد أنه لم يقاتل ضد الأسرة الإمبراطورية الشرعية فى القسطنطينية، وإنما ضد اغتصاب ألكسيوس أبوكايكوس للسلطة الإمبراطورية، وأن هدفه الوحيد هو حماية العرش الإمبراطورى للطفل الصغير الذى عهد إليه أبوه الإمبراطور برعايته(٢).

وكان رد الفعل على ذلك أن توج البطريرك يوحنا كالكاس الطفـل الـصغير يوحنـا إمبراطوراً فى ١٩ نوفمبر سنة ١٣٤١م وأصدر قرار الحرمـان ضـد المغتـصب يوحنـا كنتاكزينوس، ورأس حفل التتويج ليوحنا الذى عرف بعد ذلك بالإمبراطور يوحنا الخامس، ولم يكن لديه عشر سنوات لتبدأ بذلك الحرب الأهلية بين الإمبراطـورة آنـا سـافوي ويوحنـا كنتاكزينوس التى استمرت حتى سنة ١٣٤٧م(٣).

مرة أخرى لم تقبل الإمبراطورة آنا الاستماع لرسل يوحنا كنتاكزينوس وكانوا رهبـان من جبل أثوس **Mount Athos**(٤). أرسلهم إليها للسلام وحثهم أن يبذلوا أقصى جهدهم عنـد

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 57-61, 66-67; Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 64-5; See Also: Muratore, una Principessa Sabauda, p. 127; Nicol, Last Centuries, p. 189; Reluctant Emperor, pp. 53-4; Ostrogorsky, The Palaeologi, pp. 356-7.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 62-63; See Also: Diehl, Byzantine Empresses, p. 300; Head, Imperial Twilight, pp. 65-6; Nicol, Last Centuries, p. 189; Ostrogorsky, The Palaeologi, p. 357.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 64-66; See Also, Diehl, Byzantine Empresses, p. 300; Nicol, Reluctant Emperor, p. 61; Last Centuries, p. 194.

(٤) جبل أثوس: أطلق عليه أيضاً الجبل المقدس، وكان جبلاً مهجوراً تماماً حتى بدأ الرهبان الأوائل فى الذهاب إليه والإقامة فيه، ويحتمل أن يكون ذلك فى فترة متأخرة من القرن الثامن الميلادى أو مستهل القرن التاسع، وعاش الرهبان فيه كنساك معزولين أو فى جماعات صغيرة ولكن مع منتصف القرن العاشر الميلادى بـدأ إنشاء الأديرة الذكورية وأصبح بعد ذلك جبل أثوس أكثر المراكز أهمية للديرية الأرثوذكسية.

لمزيد من التفاصيل، انظر:

Oikonomides, N., "Patronage in Palaiologan Mt. Athos" in: Mount Athos and Byzantine Monasticism, ed. Bryer, A., and Cunningham, M., Variorum 1960, pp. 99-111; ODB, I, p. 224.

الإمبراطورة ومجلس الوصاية فى القسطنطينية لمنع إراقة الدم المسيحى، ولكن رفضت وساطتهم وطُلب منهم الرجوع إلى أديرتهم(١).

هكذا كانت الإمبراطورة آنا ومجلس الوصاية مصرين على إشعال الحرب مع يوحنا كنتاكزينوس، تلك الحرب التى أدت إلى تدخل القوى الأجنبية فى الشئون البيزنطية بصورة كبيرة، وأمام ذلك لم يتردد يوحنا كنتاكزينوس فى طلب المساعدة من الملك الصربى ستيفن دوشان **Stephen Dušan** (١٣٣١-١٣٥٥م)(٢) الذى رحب به واستغل الفرصة للحصول على مكاسب فى الأراضى البيزنطية، وأمام ذلك حاولت الإمبراطورة آنا هى الأخرى استمالة الملك الصربى إليها وإقناعه بالتخلى عن مساعدة يوحنا كنتاكزينوس وأرسلت إليه سفارتين متتاليتين سفارة سنة ١٣٤٢م وسفارة أخرى سنة ١٣٤٣م تعرض عليه التنازل له عن إقليم مقدونياً حتى كريستوبوليس **Christopolis**(٣). وأن تقدم ابنتها للزواج من ابنه فى مقابل التخلى عن مساندته ليوحنا كنتاكزينوس وتسليمه لها حياً أو ميتاً(٤).

كذلك ساعدت الحرب بين الإمبراطورة آنا ويوحنا كنتاكزينوس على فتح الباب للأتراك العثمانيين للتوغل فى أوربا، حيث تنافس كل من الطرفين المتصارعين على كسب ودهم إلى

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 68-9; Cantacuzenus, Historiarum, II, pp. 205-9; See Also: Nicol, Reluctant Emperor, p. 61.

(٢) ستيفن دوشان: قاد حركة تمرد ضد أبيه وقام بعزله وتولى عرش الصرب فى ٨ سبتمبر سنة ١٣٣١م، باسم ستيفن أوروش الرابع **Stephen Uroš IV**، واتبع سياسة داخلية متوازنة، وخارجية تهدف لتحقيق السيطرة على أكبر مساحة ممكنة من الممتلكات البيزنطية فى مقدونيا، وتحالف مع يوحنا كنتاكزينوس وأقام علاقات مع البلغار وتوفى سنة ١٣٥٥م.
لمزيد من التفاصيل، انظر:
ODB, 3, p. 1950.
عماد أمين محمد النجار، الصرب وعلاقاتهم بالقوى السياسية فى البلقان فى العصور الوسطى ٦٢٦-١٤٥٩م، (رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة المنصورة ٢٠٠٣م)، ص١٢٩-١٣١، ١٣٧-١٤٣.

(٣) كريستوبوليس: ميناء هام يقع على الشاطئ الشرقى لمضيق البسفور وضاحية لخلقدونيه.
ODB, I, pp. 454-5.

(٤) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 67-70; See Also: Diehl, Byzantine Empresses, pp.301-2; Nicol, Byzantine Lady, p.88; Last Centuries, p.196; Miller, M.A., "The Balkan States",CMH, vol. IV, Cambridge 1936, p. 541;
عماد أمين، الصرب وعلاقاتهم بالقوى السياسية، ص ١٤٣.

جانبه. فقد حاولت الإمبراطورة آنا استمالة السلطان أورخان وطلبت منه مساعدتها في القتال ضد كنتاكزينوس وعرضت أن تقدم له كمية كبيرة من الذهب وتسمح للأتراك بالحرية في الأراضي البيزنطية، سواء للبيع أو الشراء أو الانتقال، ولكنه رفض عرضها وأرسل قواته إلى كنتاكزينوس التي ساعدته في الاستيلاء على العديد من مدن وأراضى تراقيا، إلا أن هذه المساعدات أدت إلى تخريب الأراضى البيزنطية، فمرور هذه القوات أدى إلى توقف الزراعة وتحول هذه الأراضى إلى صحراء، فضلاً عما كانت تقوم به فرق الأتراك العسكرية من أعمال التدمير والتخريب(١).

وحتى تستطيع الإمبراطورة آنا مواصلة الحرب ضد يوحنا كنتاكزينوس وتمويل عملياتها العسكرية والدفع للمرتزقة الأتراك فى الوقت الذى لم يكن بمقدورها فرض ضرائب جديدة وإثارة البيزنطيين ضدها، فقد اتخذت خطوة غاية فى الخطورة وهى رهن مجوهرات التاج الإمبراطورى فى مقابل الحصول على قرض مالى كبير من البنادقة، والذين عرفوا حقيقة وضع الإمبراطورة السيئ وحددوا شروط القرض لتحقيق أكبر قدر من الفائدة لهم، والذى تعهدت آنا برده خلال ثلاثة سنوات، ولكن لم يتم ذلك وظلت مجوهرات التاج البيزنطى لدى البنادقة حتى الفتح العثمانى للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م(٢).

فضلاً عن ذلك فقد توجهت الإمبراطورة آنا لطلب المساعدة البابوية وأرسلت للبابا كليمنت السادس **Clement VI** (١٣٤٢-١٣٥٢م)(٣). مبعوثين من القسطنطينية تطلب عون

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 155; Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 71-4; See Also: Nicol, Byzantine Lady, p. 88; Muratore, una Principessa Sabauda, pp. 180-81.

أحمد رشاد محمد، السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية من استعادة البيزنطيين القسطنطينية عام ١٢٦١م حتى دخول العثمانيين لها عام ١٤٥٣ (رسالة دكتوراه غير منشورة – جامعة حلوان ٢٠٠٢م)، ص ٩٤.

(٢) Nicol, D.M., Byzantium and Venice A Study in Diplomatic and Cultural Relations, Cambridge 1988, pp. 258-260; Byzantine Lady, p. 89; Last Centuries, p. 199; Muratore, una Principessa Sabauda, p. 151.

(٣) كليمنت السادس: ولد سنة ١٢٩١م ومات سنة ١٣٥٢م، وتزامن توليه لمنصبه نمو القوى الوطنية فى غرب أوربا، وظلت البابوية هى المدافعة الوحيدة لفكرة الحروب الصليبية واعتمدت على تدعيم دويلات البحر المتوسط مثل أرغونة، فينيسيا، صقلية وقبرص وكان إنجازه الأعظم الاستيلاء على سميرنا من الأتراك بمساعدة الأسطول اللاتينى.

ODB, I, p. 470.

البابا وترجوه أن يرسل لها حملة عسكرية لمساعدتها فى حربها ضد يوحنا كنتاكزينوس وإنقاذ الإمبراطورية، ولوحت الإمبراطورة للبابا بالاتحاد الكنسى وعودة الكنيسة البيزنطية للمعتقدات الكاثوليكية إذا أرسل البابا هذه الحملة، ليس هذا فحسب بل أخبرته أن الأوصياء على العرش الإمبراطورى ورهبان جبل أثوس سوف يخضعون للمعتقدات الكاثولكية، ولكن بسبب انشغال البابا بالتوسع التركى شرق البحر المتوسط لم يهتم بالصراع على العرش البيزنطى ولم يقدم للإمبراطورة آنا مساعدة فعلية[١].

وعندما أرسل يوحنا كنتاكزينوس أحد أقاربه للإمبراطورة آنا طالباً الصلح وقائلاً: بأنه على أتم استعداد لعقد اتفاقية سلام معها لتجنب شرور الحرب وإنقاذ الإمبراطورية من ويلاتها تم بتر أعضاء هذه المبعوث ووضعه فى السجن[٢].

وأمام إصرار الإمبراطورة آنا على رفض الصلح أخذ يوحنا كنتاكزينوس فى الاستيلاء على المواقع والمدن البيزنطية الحصينة، وأصبح ميزان الحرب فى صالحه، وهنا طلبت الإمبراطورة مساعدة البلغار فى مقابل التنازل عن تسعة مدن بيزنطية لهم إذا أرسلوا لها القوات التى تساعدها فى شن الهجوم على يوحنا كنتاكزينوس، ولكن عندما فشلت آنا فى الحصول على المساعدة البلغارية ضد كنتاكزينوس أرسلت مندوبين من القسطنطينية لقتله[٣].

على هذا النحو كانت الإمبراطورة آنا مستعدة لتفعل أى شئ للفوز فى حربها ضد يوحنا كنتاكزينوس، تلك الحرب التى اصطبغت بطابع العنف الشديد والدموى خاصة بعد مقتل ألكسيوس أبوكايكوس الذى حدث على يد أحد سجنائه السياسيين، عندما كان يشرف على تشييد سجن يتسع للعديد من المسجونين، عندئذ أخذ هذا السجين لوحاً خشبياً وضرب أبوكايكوس على رأسه وعندما سقط قتيلاً أخذ رأسه وعلقها على أحد الأعمدة وانضم له باقى المسجونين، وتوقع هؤلاء أن ينادى بهم كأبطال بعد أن حرروا القسطنطينية من أبوكايكوس الطاغية، ولكن

---

(١) Nicol, Byzantine Lady, pp. 88-9; Last Centuries, pp. 198-9; Gay J., Le Pape Clément VI et Les affaires d'orient (1342-1352), Paris 1904, pp. 33-4; Setton, K. M. The papacy and The Levant (1204-1571) I: The Thirteenth and Fourteenth Centuries, Philadelphia 1976, pp. 189-190.

(٢) Cantacuzenus, Historiarum, II, pp. 395-401; See Also: Muratore, una Principessa Sabauda, p.167.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 154-5; See Also Nicol, Last Centuries, p. 200; Reluctant Emperor, 79; Muratore, una Principessa Sabauda, pp. 169-70; Miller, Balkan States, p. 541.

ما حدث كان عكس ذلك، فقد صدمت الإمبراطورة آنا بحرمانها من وزيرها، وسمحت لزوجته وأتباعه بالانتقام لقتل سيدهم وساعدتهم فى ذلك[1]، وتم ذبح كل المسجونين، ولم ينج منهم حتى من اعتصم بالكنيسة وامتلأت الشوارع بجثث القتلى[2].

وفى ذروة غضب الإمبراطورة آنا على قتل ألكسيوس أبوكايكوس علمت بمفاوضات البطريرك يوحنا كالكاس مع يوحنا كنتاكزينوس والذى نصحها بالصلح معه، وهنا غضبت الإمبراطورة على البطريرك ووصفته بالخيانة، وعملت على التخلص منه وإدانته فى مجمع كنسى عقد فى فبراير سنة ١٣٤٧م حضرته الإمبراطورة والعديد من الأساقفة ورجال الدين وطرد البطريرك من منصبه [3].

فى الليلة التالية لانعقاد المجلس الكنسى اتخذ يوحنا كنتاكزينوس طريقه لداخل القسطنطينية، ورفضت الإمبراطورة التفاوض معه، ولكن عندما استطاع يوحنا كنتاكزينوس الإستيلاء على العاصمة وسيطرت قواته على جزء من القصر الإمبراطورى، وافقت آنا على الصلح معه وأرسلت مندوبين للتفاوض معه وتم عقد الاتفاق بينهما، والذى نص على أن يحكم يوحنا كنتاكزينوس ويوحنا باليولوجوس الإمبراطورية سويًا لمدة عشر سنوات، خلالها يكون كنتاكزينوس الإمبراطور الرئيسي صاحب الأمر والنهي في الإمبراطورية، وبعد مرور هذه الفترة يحكم كنتاكزينوس ويوحنا باليولوجوس بالاشتراك معًا[4].

---

(١) يذكر كل من نقفور جريجوراس وميخائيل دوكاس أن الإمبراطورة آنا انتقمت لقتل ألكسيوس انتقامًا شديداً، وأنها نشرت جواسيسها فى كل مكان لتتبع المشتبه فيهم وعقابهم، وأنها وحش حقيقى فى زى أنثى، فقد شعرت ببهجة شديدة وسعادة جارفة أمام منظر القتل وأرادت أن تلقى جثث القتلى فى البحر كوجبة للطيور والأسماك. حقيقة أن الإمبراطورة آنا حزنت بشدة لقتل وزيرها ورئيس حكومتها والذى كان يمثل القوة الوحيدة الفعالة فى الإمبراطورية الذى بإمكانها عرقلة يوحنا كنتاكزينوس من دخول العاصمة، وأنها سعت إلى أن ينال المذنبين عقابهم، وأنها واست أرملته، ولكن لم يكن ذلك يعني أنها سعت لذبح المدنيين والتمثيل بجثثهم.

Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 139. Doukas, Decline and Fall Byzantium, p. 65; See Also: Muratore, una Principessa Sabauda, pp. 190-1.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 135-141; Doukas, Decline and Fall Byzantium, pp. 65-7; See Also: Diehl, Byzantine Empresses, pp. 303-4; Nicol, Last Centuries, p. 200.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 153; Cantacuzenus, Historiarum, II, pp. 602-4; See Also: Nicol, Byzantine Lady, pp. 90-1, Reluctant Emperor, pp. 79-80.

(٤) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 161-5; Cantacuzenus, Historiarum, II, pp. 604-15.

على هذا النحو انتهت الحرب الأهلية بين الإمبراطورة آنا سافوى ويوحنا كنتاكزينوس والتى برهنت أنه لا يوجد فائز حقيقى فى هذا الصراع الذى كان كارثة لكل البيزنطيين من كل الطبقات، فمناطق القتال تحولت إلى أراضٍ جرداء ومات الكثير من نقص الغذاء، وذبح الآلاف بواسطة المرتزقة الأتراك والصرب الذين استخدموا بواسطة المتصارعين على السلطة، وعم الفقر فى كل مكان، وتركت هذه الحرب الإمبراطورية فى وضع مدمر وأصبحت الخزانة الإمبراطورية خاوية، وعانى القصر الإمبراطورى من الفقر الشديد، ووصفت المصادر احتفال تتويج يوحنا كنتاكزينوس وزوجته وكيف أن الكؤوس والأطباق المستخدمة فى الاحتفال لم يكن فيها طبق واحد من ذهب أو فضة، وإنما كانت مصنوعة من القصدير والفخار، كذلك كانت التيجان والملابس الإمبراطورية مرصعة بالزجاج الملون والجلد المذهب بدلاً من الذهب والأحجار الكريمة[1].

كذلك فإن الصراع الاجتماعى زاد من عنف الحرب الأهلية، والفقر الاقتصادى زاد من حدة الانقسامات بين الطبقات الاجتماعية المختلفة، إذ إن الثروة والممتلكات تركزت فى أيدى طبقة صغيرة نسبياً من النبلاء، فى حين عانت باقى الطبقات من الفقر والبؤس كما أثار الحقد والكراهية بين الناس، وكان ثراء أسرة يوحنا كنتاكزينوس وكمية الذخائر التى اكتشفت فى منزل ثيودورا أم يوحنا كنتاكزينوس عندما تم القبض عليها من قبل مجلس الوصاية في القسطنطينية كافياً لإشعال حقد الطبقات الأقل امتيازات، وإظهار كيف أن فئة قليلة تمتلك كل هذه الثروات[2]، وأثار النزاع بين مجلس الوصاية فى القسطنطينية وزعيم النبلاء يوحنا كنتاكزينوس دخان الكره الاجتماعى ليتحول إلى عنف، والذى وصل إلى قمته فى مدينتى أدريانوبل وسالونيك ضد الطبقات الأرستقراطية والغنية، ففى اليوم التالى لإعلان يوحنا كنتاكزينوس إمبراطوراً استقبل النبلاء فى أدريانوبل الخبر بالترحيب ولكن العامة أدانوا كنتاكزينوس وكل من يمثله، وحرضوا الناس على الثورة، وهاجموا منازل الأثرياء، وقاموا بنهبها وساند هؤلاء الإمبراطورة آنا وأسرة باليولوجوس فى القسطنطينية، ومارسوا كل أنواع

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 170-1; Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 67; See Also: Charanis, p., "Internal Strife in Byzantium During the Fourteenth Century", B xv (1940-1) p. 228; Head, Imperial Twilight, p. 70.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن ثروة أسرة كنتاكزينوس، انظر :
Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, pp. 164-5, 184-5.
- وأيضًا الفصل الثالث ص ١١١-١١٢.

العنف ضد يوحنا كنتاكزينوس وأنصاره[١].

وفى سالونيك التى تعد من أكبر مدن الإمبراطورية البيزنطية وأكثرها ثراء، فإن الحركة المعادية للأرستقراطية كانت شديدة وشكلت نوعًا من الحزب السياسى عرف باسم الزالوتس **The Zealots**[٢] وكان قوامه من العمال والبحارة وأصحاب الأصول الفقيرة، وتحكموا فى المدينة في الفترة (١٣٤٢-١٣٤٩م) وفرضوا سيطرتهم عن طريق القتل والعنف والتدمير الذي قاموا به ضد النبلاء[٣].

على أى حال كانت الحرب الأهلية بين الإمبراطورة آنا ويوحنا كنتاكزينوس قد ساعدت على مزيد من دمار الإمبراطورية البيزنطية، فقد كشفت للعثمانيين مدى الضعف الشديد الذي وصل إليه البيزنطيون، ومن هنا عملوا على استغلاله لمصلحتهم للحصول على موطئ قدم لهم فى القارة الأوربية، ذلك الموطئ الذى لم يقوموا بالتزحزح عنه قيد أنملة حتى نجحوا فى النهاية في الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م[٤]. وعلق ميخائيل دوكاس على نتائج حكم الإمبراطورة آنا للإمبراطورية البيزنطية بقوله: " إنها كانت تشبه الحائك العاجز الذى مزق وشوه الرداء الإمبراطورى "[٥].

ويرى البعض أنه من الصعب الحكم على الإمبراطورة آنا بشكل دقيق، وذلك لأنه بعد موت زوجها كانت إنسانة ضعيفة ووحيدة وقليلة الخبرة فى الحياة العامة، تائهة بين ناس ذوي اهتمامات وعادات وديانة ولغة مختلفة، ومحاطة بحشد قليل من المؤيدين، وغير متأكدة من إخلاص الكثير من أفراد الحاشية الذين كانوا يتظاهرون بكونهم أصدقاء، ومحاطة بالكثير من

---

(١) Charanis, Internal Strife in Byzantium, pp. 209-210; Nicol, Last Centuries, p. 193; Reluctant Emperor, p. 58; Ostrogorsky, The Palaeologi, p. 358.

(٢) الزالوتس أي " ثورة العامة " وهم الذين قاموا بالتمرد والثورة ضد أنصار كنتاكزينوس أثناء الحرب الأهلية بينه وبين الإمبراطورة آنا سافوي، وأقاموا لأنفسهم نظامًا سياسيًا قصيرًا في سالونيك، ولكن بعد دخول كنتاكزينوس العاصمة فإن الحزب المعتدل منهم أرسل إليه وسلمه المدينة ودخلها كنتاكزينوس سنة ١٣٥٠م.

Barker, Late Byzantine Thessalonik, pp. 17-18, ODB, 3, pp. 2221-2.

(٣) Barker, Late Byzantine Thessalonike, pp. 16-21; Charanis, Internal Strife in Byzantium, pp. 211-15; Nicol, Reluctant Emperor, pp. 58-63; Last Centuries, pp. 194-5.

(٤) نيقولو باربارو، الفتح الإسلامى للقسطنطينية، يوميات الحصار العثمانى ١٤٥٣م، ترجمة حاتم عبد الرحمن الطحاوى، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢١.

(٥) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 67.

الأعداء بسبب أصلها الأجنبى، والمحبة جداً لابنها الصغير يوحنا، والذى أرادت أن تحتفظ له بالإرث الإمبراطورى دون مساس، وكان من الطبيعى أن تتوجه آنا بفطرتها نحو من يبدو أكثر قدرة على إنقاذها وتبتعد عن من يبدو لها أكثر نفوذاً من أن يكون ذا مصلحة لها ولابنها، وبالتالى كان من الطبيعي أن تستعين بالبطريرك يوحنا كالكاس و ألكسيوس أبوكايكوس واللذان أظهرا محبتهما وولائهما لها ولابنها(١).

ومهما يكن من أمر فقد كان للإمبراطورة آنا مبرراتها فى هذا الصراع، فهى كانت غريبة عن المجتمع البيزنطى والذى لم تفهمه أو تكن ذكية بالحد الكافى لتندمج بداخله، فقد ذكر نقفور جريجوراس ذلك بقوله: " إنها نشأت وتربت فى بيئة مختلفة، وكانت غريبة، وفوق كل ذلك كانت امرأة، وامرأة سريعة الغضب، لا تتمتع بالذكاء، وعاجزة عن تميز الخير من الشر"(٢).

فضلاً عن ذلك فقد عاشت الإمبراطورة آنا سافوى فى البلاط البيزنطى ويبدو أنها عرفت أن أسرة باليولوجوس قد استولت على العرش البيزنطى بواسطة سمل عينى الوريث الشرعى الطفل الصغير يوحنا لاسكاريس بواسطة ميخائيل الثامن، وربما كانت خائفة أن يعيد التاريخ نفسه مع ابنها الصغير يوحنا ويقوم يوحنا كنتاكزينوس بالاستئثار بالسلطة الإمبراطورية وإبعاد ابنها(٣).

على النقيض من دور الإمبراطورة آنا سافوى الذي أضر بالإمبراطورية البيزنطية كان دور الإمبراطورة ثيودورا كنتاكزينوس التى شاركت مشاركة فعالة فى الحرب الأهلية بين الإمبراطور أندرونيقوس الثانى وحفيده أندرونيقوس الثالث، فعندما اشتد القتال بين قوات الأمير وجده وأصاب أندرونيقوس الثالث اليأس فى الفوز بسبب نقص الأموال اللازمة ليدفعها لجنوده، وخشى أن يخسر شعبيته لو فرض ضرائب جديدة، قدمت ثيودورا الأموال لصديق ابنها وقامت بتمويل قواته والإنفاق على العمليات العسكرية من ثروتها الخاصة، ويذكر يوحنا كنتاكزينوس أن أمه كانت موجودة أثناء نقاشه مع أندرونيقوس الثالث الذى تحدث فيه الأخير عن عجزه المالى لدفع الأموال اللازمة لقواته وقالت: " إن تقديم أموالها وأموال ابنها لا يعد عملاً يترتب عليه خسران هذه الأموال، وإنما عمل مشرف ويتحقق من ورائه الكثير من الفوائد، فهو ينقذ بهذه الأموال حياة صديق والتى تعتبر المكسب والكنز الحقيقى لابنها، ولكن

---

(١) Muratore, una Principessa Sabauda, pp. 110-111.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 154.

(٣) Gill, Matrons and Brides, p. 45.

لو اكتنز هذه الأموال فسوف يضع حياة صديقه فى خطر"[١].

كذلك كان للمرأة الإمبراطورية دور هام فى المؤامرات التى نشبت داخل الإمبراطورية، سواءً بتدبيرها والاشتراك فيها أو فى القضاء عليها وحفظ الأمن والسلام الإمبراطورى، فقد شاركت الأميرة آنا باليولوجوس فى تدبير مؤامرة ضد حاكم تساليا **Thessely**[٢]. يوحنا انجليوس **John Angelis**[٣] الذى سبب الكثير من المضايقات للإمبراطورية البيزنطية، فعندما كانت الأميرة آنا فى القسطنطينية وتحدث معها الإمبراطور أندرونيقوس الثانى عن الوضع فى تساليا وحاكمها الذى يصر على مواصلة الحرب ضد الإمبراطورية البيزنطية وعرض عليها أن تؤدى خدمة له باختطاف هذا الرجل وتسليمه إياه، وعدت آنا بتنفيذ خطة الإمبراطور عند عودتها إلى أبيروس، وفى أثناء ذلك أرسل الإمبراطور جيشاً إلى تساليا وأمره باحتلال المنطقة واصطحاب يوحنا انجيلوس، إذ كانت آنا قامت باختطافه، ولكن تفشى وباء الطاعون بين أفراد الجيش البيزنطى أدى إلى فشل الجزء العسكرى من الخطة فى حين نجحت آنا فى تنفيذ الجزء الموكل إليها، حيث أرسلت إلى يوحنا وأغرته أن يأتى إليها فى أبيروس بوعد أن تزوجه ابنتها، وقامت بالقبض عليه بمجرد وصوله، وأرسل تحت الحراسة إلى القسطنطينية،

---

(١) Cantacuzenus, Historiarum, I, pp. 136-9.

(٢) تساليا: إحدى الإمارات البيزنطية التى عادت إلى حوزة البيزنطيين بعد استرداد القسطنطينية سنة ١٢٦١م، وهى تقع فى منتصف بلاد اليونان جنوب مقدونيا وشمال هيلاس **Hellass**، تحفها الجبال من كل جانب، فضلاً عن سريان نهر بينيوس **Peneios** فيها مما جعل أرضها سهلاً خصباً، ويفصل بينها وبين أبيروس نهر بيندوس **Pindos** ، خضعت منذ القرن السادس الميلادى وحتى القرن الثامن لحكم السلاف، وسيطر عليها اللاتين سنة ١٢٠٤م، وتعتبر تساليا مقراً للتجار البنادقة واليهود وتعرضت لغزو الكتلان سنة ١٣٠٩م، وسقطت فى أيدى العثمانيين سنة ١٣٩٣م.
ODB, 3, pp. 2073-4.

(٣) يوحنا انجيلوس، شقيق نقفور الأول انجيلوس حاكم أبيروس وبعد وفاة أبيه ميخائيل الثاني انجيلوس انفصل عن أخيه واستقل بمنطقة تساليا وورث عداء أبيه الشديد للإمبراطورية البيزنطية وقد تحالف مع شارل أنجو ضد الإمبراطور ميخائيل الثامن بل واتخذ من مسألة الوحدة الكنسية مع الغرب الفرصة للتشهير بالإمبراطور ميخائيل الثامن ورحب بالهاربين من الاضطهاد الديني في القسطنطينية، وقد حاول الإمبراطور التصدي له بالوسائل العسكرية والدبلوماسية حتى وفاته سنة ١٢٨٢م، وعندما تولى اندرونيقوس الثاني العرش الإمبراطوري أظهر اهتمامًا كبيرًا بشئون تساليا وحاول التصدي له وأقنع الأميرة آنا بالتعاون معه.
محمد عثمان، أبيروس، ص١٥٦-١٧٠؛ ناهد عمر، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص١٧٠.

وسعد الإمبراطور بنجاح آنا فى مهمتها وقدم لها مكافأة كبيرة نظير تعاونها معه[١].

كما أن مارية باليولوجوس ابنة أخت الإمبراطور ميخائيل الثامن حاولت تدبير مؤامرة كبيرة بالنيابة عن الأميرات البيزنطيات للقيام بمشروع هجوم عسكرى ضد الأراضى البيزنطية، وذلك بسبب سياسة خالها الإمبراطور ميخائيل الثامن الدينية واتفاقه على الوحدة الكنسية مع الغرب اللاتيني[٢]، فقد أرسلت سفارتين سنة ١٢٧٦م إلى بطريرك بيت المقدس وبطريرك الإسكندرية تحثهم على تحريض السلطان الظاهر بيبرس (١٢٥٩-١٢٧٧م) سلطان مصر ضد ميخائيل الثامن، والسفارة الثانية إلى بلاط الظاهر بيبرس نفسه للقيام بهجوم مشترك على الأراضى البيزنطية، بحيث يتحرك جيش البلغار من جهة وجيش السلطان من جهة أخرى ويسببوا الاضطرابات للإمبراطور فى أراضيه عندئذ يصبح الإمبراطور في وضع حرج ويضطر للقتال على الجبهتين[٣].

وعلى النقيض قامت الإمبراطورة ثيودورا كنتاكزينوس بقمع مؤامرة اندلعت فى البلاط الإمبراطورى أثناء غياب الإمبراطور أندرونيقوس الثالث سنة (١٣٣٥-١٣٣٦م) عن القسطنطينية، قام بها بعض الأمراء بهدف الإستيلاء على السلطة الإمبراطورية وقتل الإمبراطورة آنا سافوى وابنها يوحنا، ولم تظهر الإمبراطورة أى تهاون أو لين مع المتآمرين بالرغم أنه كان من بينهم الديسبوت ديمتريوس ابن الإمبراطور أندرونيقوس الثانى، وكذلك إثنان من أخوة إيرين كنتاكزينوس زوجة ابنها يوحنا، ويذكر نقفور جريجوراس: "أنها

---

(١) Pachymeres, Andronico Palaeologo, II, pp. 67-72; Nicol, Despotate of Epiros, p. 31; Last Centuries, pp. 114-5; Byzantine Family, pp. 21-22.
وانظر أيضًا : ناهد عمر، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص ١٧٠-١٧١.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن ميخائيل الثامن والوحدة الكنسية مع الغرب اللاتيني، انظر الفصل الرابع.

(٣) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 544-6; See Also: Ostrogorsky, The Palaeologi, p. 338; Miller, Balkan States, pp. 527-8.
ليلى عبد الجواد، علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك البحرية ٦٥٩-٧٨٤هـ/ ١٢٦١-١٣٨٢م، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة – العدد ٤٦، ٤٧، ١٩٨٦، ص٨٠؛ الأمين عبدالحميد أبو سعدة، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوى الإسلامية فى المشرق فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوج (١٢٥٩-١٢٨٢م/ ٦٥٧-٦٨١هـ) [رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة طنطا، ١٩٩٢م]، ص ٢٦٥-٢٦٦؛ أحمد رشاد محمد: السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية، ص ١٨٣-١٨٤.

استطاعت قمع هذا التمرد بطريقة شديدة الذكاء وقبل أن ينشأ عنه أى ضرر"[1].

نساء العرش والدبلوماسية السياسية :

لقد برع الأباطرة البيزنطيون في استخدام الدبلوماسية السياسية، حتى أصبحت سمة من سمات التاريخ السياسي البيزنطي، وغدت الإمبراطورية البيزنطية أستاذة ومعلمة لهذا الفن السياسي، وكانت أحد أسباب بقاء الإمبراطورية عبر قرونها الطويلة، والتي امتدت ألف ومائة عام، بل وسارت الدبلوماسية البيزنطية جنبًا إلى جنب مع القوة العسكرية في خطين متوازيين، ومثلا جناحي السياسة البيزنطية، وكثيرًا بل ودائمًا ما عوضت الدبلوماسية السياسية النقص في القوة العسكرية[2].

وقد تنوعت أساليب الدبلوماسية البيزنطية بين المعاملة الحسنة واستخدام كلمات المديح والثناء وحسن الاستضافة وإغداق المنح والهدايا والألقاب والثياب والزواج السياسي وتقديم الأموال[3]. وبالنظر لفترة الدراسة فقد انتهجت إمبراطورات وأميرات عصر باليولوجوس سياسة الأباطرة البيزنطيين وانتقت ما يتناسب مع ظروفهن من وسائل دبلوماسية، بل وأحيانًا استُخدِم هؤلاء النساء كأدوات لتحقيق الدبلوماسية السياسية نفسها، وإحراز مكاسب للإمبراطورية لم يستطع الأباطرة الوصول إليها عن طريق القوة العسكرية، سواءً في إرسال هؤلاء النساء في سفارات لبعض الأشخاص الذين هددوا الاستقرار السياسي أو في استخدام الأميرات البيزنطيات في الزواج السياسي.

على أي حال قد أثبتت نساء الأسرة الإمبراطورية لعصر باليولوجوس نجاحًا في استخدام وسائل الدبلوماسية والدهاء السياسي، فعندما كانت المرأة حاكمة لجأت إلى استعمال هذه الوسائل من كلمات الشكر والمديح واستغلال روابط القرابة وتقديم الأموال والمنح للدفاع عن شعبها وتحقيق المصالح الإمبراطورية.

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, pp. 277-9; See Also: (Nicol, Byzantine Family, p. 32; Kyritses, D., The Byzantine Aristocracy in the Thirteenth and Early Fourteenth Centuries, [Ph.D. Harvard University, 1997], pp. 354-5; Kyrris, Role de La Femme, p. 468).

انظر ما سبق ص ٣٦-٣٧.

(٢) رأفت عبدالحميد : قواعد الدبلوماسية البيزنطية، ضمن كتاب بيزنطة بين الفكر والدين والسياسة، دار عين، القاهرة ١٩٩٧م، ص١٠٨-١٠٩.

(٣) رأفت عبدالحميد، قواعد الدبلوماسية البيزنطية، ص١٤١.

ومثال ذلك الأميرة آنا باليولوجوس التى تولت الوصاية على أبيروس بعد موت زوجها نقفور الأول، فعندما تعرضت دوقيتها للغزو بواسطة جماعة من الحكام المحليين يتزعمهم جاى الثانى **Guy II** دوق أثينا والوصى على وريث العرش فى تساليا، والمارشال نيقولاس الثالث **Nicholas III** الذى كان يعمل نيابة عن سيده فيليب حاكم سافوى **Philip of Savoy**، وكان السبب الظاهرى لهذا الغزو استيلاء آنا على قلعة فانارى **Phanari** والتي تقع على الحدود بين أبيروس وتساليا، وعندما اقترب الجيش من حدود آنا، تعاملت مع الموقف بحكمة وأرسلت مبعوثين يحملون خطابات التحية إلى الدوق التى خاطبته "ابن أخيها العزيز" والمارشال "ابن عمها العزيز"، واعتذرت عن الاستيلاء على القلعة وأن ذلك تم دون أمرها، وأبدت استعدادها لإرجاعها لو طلب الدوق، بالإضافة إلى ذلك عرضت آنا أن تدفع تعويض قدره عشرة آلاف هيبربيرة لتغطية نفقات الحملة[١].

على نفس المنوال سارت الإمبراطورة إيرين مونتفرات التى كانت تحكم سالونيك، ذلك أن الجيش الذى رحل عن أبيروس فكر فى الهجوم على الأراضى البيزنطية وبدأ بالإغارة على ضواحى سالونيك، وهنا أرسلت الإمبراطورة مبعوثيها إلى الدوق والمارشال يحملون لهم الأموال والهدايا ويبلغوهم تحيات وترحيب الإمبراطورة التى خاطبتهم بـ "أبناء عمها الأعزاء" واستحلفتهم بأخلاق الفروسية أن يتركوها تعيش فى سلام، وأخبرتهم بأنهم مرحب بهم كضيوف فى سالونيك، وذكرتهم بمعاهدتهم مع الإمبراطور البيزنطى والذى أقسم فيها الدوق يمين الولاء والطاعة للإمبراطور، وذكرت لهم بأنه لا يوجد سبب لنقض السلام بينهم، وتأثر الدوق والمارشال بكلمات هذه المرأة الحكيمة التى تفضل السلام، وأسعدهم موقفها وقرروا الانسحاب[٢]. وحالف المرأة الإمبراطورية التوفيق كذلك عندما ذهبت في سفارات دبلوماسية لحل المنازعات بين المتصارعين حتى يعم السلام أنحاء الإمبراطورية، فقد ذهبت الإمبراطورة إيرين كنتاكزينوس إلى ابنها متى فى أدريانوبل لإنهاء الصراع بينه وبين زوج أخته يوحنا الخامس، ذلك أن متى كان غير راض عن الاتفاق الذى عقده أبوه الإمبراطور يوحنا كنتاكزينوس مع يوحنا الخامس، والذى اعترف به كوريث للعرش ومشارك له فى السلطة الإمبراطورية (كما سبق ذكره)، إذ شجعه أنصاره على ذلك وأقنعوه بأنه هو الذى

---

(١) Nicol, Despotate of Epiros, pp. 53-4.

(٢) Nicol, Despotate of Epiros, pp. 54-5.

يجب أن يلقب كإمبراطور مشارك ووريث لعرش أبيه، ورفضوا أن يقسموا يمين الولاء للإمبراطور يوحنا كنتاكزينوس حتى يفعل ذلك، وحثوا متى على إعلان نفسه إمبراطوراً فى أدريانوبل(١).

على هذا النحو أصبح الموقف منذرًا بحرب أهلية جديدة، وهنا أرسل يوحنا كنتاكزينوس زوجته إيرين إلى ابنه متى لما لها من سلطة عليا، فضلاً عما تتمتع به هذه المرأة من فطنة وذكاء فى معالجة الأمور، وحاولت إيرين أن تقنع ابنها بكل ما أوتيت من قوة وخبرة ليخفف من عدائه وكراهيته لزوج أخته، وحدثته عن حياة السلطة وما تنطوى عليه من شقاء ومتاعب ومسئوليات، وأن من يدرك ذلك يفضل الحياة الفقيرة عن حياة البهرج والثراء، كما أخذت تظهر له مساوئ السلطة الإمبراطورية وكيف أن صاحبها لا يعيش سعيداً أو آمناً، بل سيكون له الكثير من الأعداء الذين لا يعرفهم إلى جانب أولئك المعروفين لديه، والذين يدبرون له المكائد والمؤامرات، حتى إنه لا يأمن شر حراسة الخصوصيين فيجد نفسه خائفاً، ثم تحدثت له بعد ذلك بقلب الأم الخائفة على ابنها قائلة له: " انتظر قليلاً حتى تصبح أنت نفسك أبًا لأطفال وسوف تعرف قدر الحب فى قلوب الآباء نحو أبنائهم"(٢). وطلبت منه أن يقدر دموع أمه ولا ينسى مجهودها فى تلك الرحلة التى قامت بها من أجله وخوفاً عليه(٣).

وذهبت إيرين مرة أخرى لابنها متى سنة ١٣٥٢م للإصلاح، وذلك عندما اندلع الصراع مرة أخرى بينه وبين يوحنا الخامس وأخذت معها اثنين من القساوسة لمساعدتها فى مهمتها وقابلت كلاً من يوحنا الخامس ومتى وحاولت الوصول إلى حل يرضى الطرفين(٤).

يضاف إلى ذلك أن الإمبراطورة آنا سافوى لعبت دورًا هامًا فى الدفاع الدبلوماسى عن الإمبراطورية البيزنطية عندما ذهبت إلى ابنها يوحنا الخامس والملك الصربى ستيفن دوشان فى سالونيك، فقد ترك كنتاكزينوس يوحنا الخامس يعيش فى سالونيك تحت حراسة قريبه أندرونيقوس آسن **Andronikos Asen** وكان يوحنا إمبراطوراً بالاسم فقط، وبذلك أصبح من

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 180-1; See Also: Nicol, Byzantine Lady, pp. 75-6; Reluctant Emperor, p. 88.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, pp. 180-4; See Also: Nicol, Last Centuries, pp. 237-8; Reluctant Emperor, p. 88.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, II, p. 184.

(٤) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, pp. 152-3; See Also: Nicol, Byzantine Lady, p. 77; Reluctant Emperor, p. 119; Byzantine Family, p. 106.

السهل على مناصريه أن يعززوا عدم رضائه ويحثوه على القتال من أجل حقوقه الكاملة كوريث للعرش الإمبراطورى، وأقنعوه أنه دفع للمنفى بواسطة يوحنا كنتاكزينوس وحرم من إرثه فى القسطنطينية، وأنه يجب أن ينهض للدفاع عن حقوقه حتى لو اضطر أن يقاتل من أجلها[١]، هكذا تم التعجيل بحلقة جديدة من الصراع على السلطة، وقام الملك الصربى بدعم يوحنا وحثه على أن يطلق زوجته هيلينا ابنه كنتاكزينوس ويتزوج بدلاً منها ابنته، وعندما علم كنتاكزينوس بتمرد يوحنا طلب من أمه آنا أن تذهب إليه وتحاول إثناءه عن موقفه والقضاء على عصيانه[٢].

أظهرت الإمبراطورة آنا من الكفاءة ما يتناسب مع خطورة الموقف وذهبت إلى سالونيك سنة ١٣٥١م وقابلت ابنها وقامت بتعنيفه هو وأنصاره الذين شجعوه على التمرد، ووعدته بتقديم جزء من الإمبراطورية له ليحكمه إذا تخلى عن تحالفه مع الملك الصربى ورجع إلى زوجته الشرعية، ثم ذهبت إلى معسكر الملك الصربى وزوجته وأوضحت له أن ما ارتكبه يعد خروجاً على الشرعية، ذلك أن اتفاقه مع ابنها يوحنا الخامس يعتبر انتهاكاً للمعاهدة السابقة بين الصرب والإمبراطور اندرونيقوس الثالث[٣]، وبذلك نجحت آنا فى القضاء على تمرد ابنها وسحب دوشان عرضه بالمساعدة، وظهرت آنا بصورة الإمبراطورة التى تحترم وتنفذ القوانين وتساعد فى الحفاظ على وحدة الإمبراطورية[٤].

---

(١) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, p. 147; See Also: Nicol, Byzantine Lady, p. 92.

(٢) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, pp. 147-9; See Also: Nicol, Byzantine Lady, p. 92; Nicol and Bendall, Anna of Savoy in Thessalonica, pp. 89-90.

(٣) المعاهدة الصربية البيزنطية، وقعت هذه المعاهدة في ٢٦ أغسطس سنة ١٣٣٤م حيث تقابل الإمبراطور اندرونيقوس الثالث والملك الصربي دوشان في سالونيك ووقعا معاهدة سلام وتحالف بينهما، تضمنت اعتراف بيزنطي بما استولى عليه الصرف من مدن بيزنطية في مقدونيا مثل أوخريدا وبريليب وبروسك وإعادة مدينة كاستوريا للإمبراطورية البيزنطية وأن يتحالف الطرفان ضد المجر.

عماد أمين، الصرب وعلاقاتهم بالقوى السياسية، ص١٣٤-١٣٥؛ إبراهيم مصباح، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية في عهد الإمبراطور اندرونيكوس الثالث، ص١١٣-١١٤.

(٤) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, p. 149; Cantacuzenus, Historiarum, III, pp. 200-9; See Also: Nicol, Byzantine Lady, p. 92; Last Centuries p. 238; Reluctant Emperor, pp. 115-17; Nicol and Bendall, Anna of Savoy in Thessalonica, p. 90.

كذلك تدخلت الإمبراطورة هيلينا فى النزاع الذى اندلع بين ابنها أندرونيقوس الرابع (١٣٧٦-١٣٧٩م) وبين أبيه الإمبراطور يوحنا الخامس سنة ١٣٧٦م[١] والذى أعلن تمرده ضد أبيه وحاول الاستيلاء على العرش الإمبراطورى وعملت الإمبراطورة على التوصل إلى حل وسط بين الطرفين[٢]. ويمدح كيدونيس دور هيلينا فى التوسط بين أفراد أسرتها ومحاولاتها لفض ما نشب بينهم من صراعات ويصور آلامها بسبب هذه الانقسامات التى اندلعت بين أعضاء عائلتها وأقرب الناس إليها[٣].

ولعبت الإمبراطورة هيلينا دراجاش نفس الدور مع أبنائها، فقد عملت على كبح المشاجرات العديدة التى اندلعت بينهم بسبب الصراع على السلطة، وحاولت الوصول إلى تسويات مرضية لجميع الأطراف المتنازعة[٤].

وفى بعض الأحيان كانت تُرسل الأميرات البيزنطيات فى سفارات دبلوماسية لمساعدة الإمبراطور فى التوصل إلى اتفاق مع بعض الخارجين عن سلطته أو بهدف خدمة المصالح الإمبراطورية، ومثال ذلك الأميرة ثيودورا روليان التى أرسلها الإمبراطور أندرونيقوس الثانى إلى ابن أختها القائد ألكسيوس تراخانيوتيس (فليرنيثروبينس) **Alexios Tarchaneiotes (Philanthropenos)** الثائر فى آسيا الصغرى[٥] وأخذت معها أخا زوجها إسحاق راؤول **Isac Raoul** الذى سملت عينية بسبب تمرده السابق ليكون عبرة وتحذيرًا للمتمرد الجديد،

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن ثورة أندرونيقوس ضد أبيه، انظر:

Important Short Chronicle, pp. 353-4.

(٢) Letters of Manuel II, p. xiv; See Also, Nicol, Byzantine Family, p. 137; Garland, Byzantine Empresses, pp. 226-7.

(٣) Cydonés, Correspondance, Letter No. 222, pp. 70-3.

(٤) Sphrantzes, Fall of Byzantine, p. 58; See Also Anastasejevic, Jedina Vizantijka Carica, p. 38; Garland, Byzantine Empresses, pp. 22-7; Nicol, Last Centuries, pp. 369-70.

(٥) كان ألكسيوس قائداً عسكرياً موهوبًا، جمع بين فن الإدارة وقيادة الجيش، ذهب إلى آسيا الصغرى فى حملة ضد التركمان، وعندما أرسل إلى الإمبراطور أندرونيقوس الثانى يطلب الإمدادات والأموال لجنوده ولم يستجب الإمبراطور لمطالبه أعلن تمرده عليه.

لمزيد من التفاصيل عن القائد وثورته، انظر:

ناهد عمر صالح، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص٦٢-٦٥.

وحملت معها وعود الإمبراطور بالعفو عنه ومنحه منصبًا هامًا بشرط أن يكف عـن تمـرده ويعود لولائه للسلطة الإمبراطورية(١).

وحاولت مارية باليولوجوس أو سيدة المغول – التى عادت إلى القسطنطينية بعد وفـاة زوجها القائد المغولى أبغا(٢) – إقناع خليفته على العرش المغولى أن يساعد البيزنطيين فـى مواجهة الأتراك فى آسيا الصغرى لما كان لها من صلات بالمغول، فعندما هاجم الأتراك آسيا الصغرى ذهبت مارية إلى نيقية لتؤكد للبيزنطيين أن العون من الحلفاء المغول علـى وشـك الوصول، وكان إظهار الدعم المغولى للبيزنطيين هو ما أجل الاستيلاء الفعلـى علـى هـذه الأراضى بواسطة الأتراك(٣).

أيضاً أرسل الإمبراطور أندرونيقوس الثانى سفاره دبلوماسية برئاسـة عمتـه إيـرين باليولوجوس **Eirene Palaiologos** حماة القائد الكتلانى روجر دى فلور إليه، عارضة عليـه الصلح مع الإمبراطور البيزنطى بشروط مجزية، من أهمها منحه لقب قيـصر وأن يقطعـه الإمبراطور هو وفرقته كل مقاطعات آسيا الصغرى التي انتزعوها من التركمان، وأن يـزود جنوده بالأموال والغلال سنويًا، وذلك بهدف إبعاد الكتلان عن الأراضى البيزنطية، ودفعهـم للرحيل لمحاربة التركمان فى آسيا الصغرى، وقد وافق روجر على وساطة الأميرة(٤).

الزواج السياسي :

كان الزواج السياسي أو زواج التحالف أحد الدعامات الرئيسية للدبلوماسية البيزنطيـة، وأصبح له أهمية كبيرة بصفة خاصة فى الأعوام المتأخرة من تاريخها، حيث أدرك الأباطرة مع عجزهم السياسي المميزات السياسية لمثل هذه الارتباطات، وفكروا فى اسـتغلال بنـاتهن

---

(١) Pachymeres, Andronico Palaeologo, II, pp.230-31; See Also: Fassoulakis, Byzantine Family, p. 260; Nicol, Byzantine Lady, pp. 46-7; Byzantine Family, p. 17.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن هذه الأميرة وظروف زواجها فى المغول انظر الجـزء الخـاص بـالزواج السياسي.

(٣) Connor, C. L., Women of Byzantium, Yale University, 2004, pp. 314-5; Talbot, A.M., "Building Activity in Constantinople Under Andronikos II: The Role of Women Patrons in The Construction and Restoration of Monasteries", in: Byzantine Constantinople Monuments, Topography and everday Life, ed. Necipoglu, N., Brill 2001, p. 335.

(٤) Burns, S.J., The Catalan Company and the European Powers 1305-1311", SP. xxix (1954) pp. 751-2;
ناهد عمر صالح، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص ١١١-١١٢.

وأقاربهن الإناث كوسيلة أو سلعة لخدمة الدبلوماسية البيزنطية، بهدف تعزيز الصداقة مع غير البيزنطيين، أو اتقاء لشر الأعداء وتهدئتهم، أو لعقد الصلح معهم والحصول على مساعدتهم[١].

وذكر أحد الأباطرة أن أهم قواعد الحياة السياسية للإمبراطورية البيزنطية، هـي : أن الأباطرة عندما يقنعون أنه ليس بإمكانهم تحقيق النصر ضد الشعوب الأجنبية في المعارك أو عن طريق إرسال الهدايا إلى زعمائهم، وحتى لا يعانوا مـن نـاحيتهم أي أضـرار فـإنهم يزوجونهم بناتهم، فهذا يساعد على كظم غيظهم ويملؤهم بروح المودة تجاه البيزنطيين، خاصة إذا عادوا إلى بلادهم بعد اتخاذهم زوجات لهم من بنات العائلات الإمبراطورية[٢].

على هذا النحو يتضح أهمية هذا الزواج والهدف من ورائـه وهـو خدمـة المـصالح الإمبراطورية، وتجنب المواجهة مع الأعداء، وشراء مساعدتهم بتقديم أميرة بيزنطية كقربان لإنقاذ الإمبراطورية وسكانها. وإذا رجعنا إلى الـوراء نجـد أنـه فـي العـصور المبكـرة للإمبراطورية البيزنطية أدان الإمبراطور قنسطنطين السابع بورفيروجنيتوس **Constantine VII Porphyrogenitus** (٩١٣-٩٥٩م) زواج التحالف مع شعب أو أُمّه لها عادات وتقاليـد تختلف عن العادات والتقاليد البيزنطية وخاصة مع الملحدين أو غير المعمدين واعتبر من يفعل ذلك خارجاً عن المجتمع المسيحى ومخالفًا لقوانين أسلافه وللأوامر الإمبراطورية[٣].

كذلك اعتبرت الكنيسة هذا الزواج غير شرعى، بل وطالبت أن يكون الزوجان ليس فقط على العقيدة المسيحية ولكن على نفس المذهب أيضاً، وأكد القانون البيزنطى علـى أن زواج الفتاة البيزنطية من غير مسيحى هو زواج غير شرعى، ومنع القرار الرابع عـشر لمجمـع خلقدونية **Chalcedon**، المسيحى الأرثوذكسى أن يتزوج من إمرأة غير مسيحية، وكذلك أكـد

---

(١) Nicol, D.,M., "Mixed Marriages in Byzantium in the Thirteenth Century", in: Byzantium: its Ecclesiastical History and Relations With the Western World, London 1972, p. 168; Gill, Matrons and Brides, p. 40.

(٢) نقلاً عن :
Nicol, Mixed Marriages, pp. 161-1; Dolger, F." Einiges uber Theodora die griechin, Zarin der Bulgaren 1308-1330 " in : Melanges Henri Gregoire, München 1949, pp. 212-3.

(٣) قسطنطين السابع بورفيروجنيتوس، إدارة الإمبراطورية البيزنطية، عرض وتعليـق: محمـود سـعيد عمران، بيروت ١٩٨٠، ص ٦٩.

القرار الثانى والسبعون لمجمع ترالو Trullo[١]. هذا المنع، وأضاف على أن هذا الــزواج إذا تم يجب أن يتم الانفصال في الحال، وفى القرن الرابع عشر أكد رجــل القــانون البيزنطــى ثيودور بالسمون **Theodore Balsamon** بأن النساء الأرثوذكسيات اللاتى تزوجن من هراطقة يجب أن يقطعن من الكنيسة المسيحية[٢].

هذه كانت نظرة الدين والقانون البيزنطى للزواج من غير المسيحيين، ولكن من الناحية الفعلية تم تجاهل تلك المبادئ والقوانين الكنسية منذ القرن العاشر المــيلادى للإمبراطوريــة، وأدرك الأباطرة المميزات السياسية لمثل تلك الارتباطات، وزاد الأمر بعد ذلك وبصفة خاصة فى عصر أسرة باليولوجوس حيث تم التغاضى عن هذه الأمور بهدف المصلحة السياسية التى كانت الهدف وصاحبة الاعتبار الأول والأخير فى هذا الزواج، فكان الأباطرة يتصرفون فــى بناتهم ويقاضونهم مع غيرهم، فكانوا كدمية أو عملات للمصلحة السياسية، وكانت الفتاة مجرد نص أو بند فى اتفاقية سياسية بين الدولتين. وبذلك تم الزواج مع الصرب والبلغــار وحتــى الأتراك المسلمين، ولكن من ناحية أخرى يمكن القول أن هؤلاء الأميرات قد قمــن بــدورهن كرُسُل سلام، وأدين خدمات بارزة للإمبراطورية البيزنطية، فقد ظل الاتصال بالإمبراطورية البيزنطية عن طريق الزواج لقرون عديدة مطمعًا للكثير من الحكام، ونظر إلى وجود العديــد من الأميرات البيزنطيات في قصور الحكام المعاصرين على أنه نوع خاص مــن الأوســمة والنياشين لهذه الأسر الحاكمة، ولكنه في نفس الوقت خدم المصلحة البيزنطية، فمــن خلالــه استطاعت الإمبراطورية صد أعدائها لبعض الوقت ليس هذا فحسب بــل والحــصول علــى مساعدتهم أيضًا[٣].

بدأ الإمبراطور ميخائيل الثامن الزواج السياسى بعلاقته مع مغــول فــارس أصــحاب السيطرة على دولة السلاجقة، محاولة منه لاستخدام هذا التحالف لتــأمين حــدوده الــشرقية،

---

(١) عن هذين المجمعين انظر:

ODB, I, p. 404, 3, pp. 2126-7.

(٢) Nicol, Mixed Marriages, p. 161; Runciman, The Marriages of the sons, p. 273; Hopwood, K, "Byzantine Princesses and Lustful Turks", in: Rape in Antiquity: Sexual Violence in the Greek and Roman Worlds, London 2002, p. 232

وانظر أيضًا : أسمت غنيم، زواج التحالف فى العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٨٦م، ص ٩.

(٣) Nicol, Mixed Marriages, p. 161; Runciman, the Marriages of the sons, pp. 273-47 Gill, Matrons and Brides, p. 54; Dolger, Einiges uber Theodora, p. 213.

وانظر أيضًا : رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٩٠؛ أسمت غنيم، زواج التحالف فــى العــصور الوسطى، ص ٩-١٠.

وأيضًا دفعًا لخطر هؤلاء الذين لا طاقة له بهم، حيث أرسل إلى قائدهم هولاكوخان عارضاً عليه أن يزوجه ابنته غير الشرعية ماريا **Maria**، ورحب القائد المغولى بعرض الإمبراطور، وفى نهاية سنة ١٢٦٤م تم الاتفاق على الزواج وأُرسلت ماريا فى موكب ضخم إلى هولاكوخان ومعها الكثير من الهدايا، ولكن توفى الزعيم المغولى قبل وصولها، فتم زواجها من خليفته أبغا، وقد ضمنت هذه الزيجة استمرارية علاقات الصداقة مع مغول فارس وأيضاً سلامة الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية المجاورة لسلاجقة الروم الخاضعين لمغول فارس، وكذلك حفظت العلاقات الطيبة معهم خوفاً من اغاراتهم على الأراضى البيزنطية(١).

ثم انتقل الإمبراطور ميخائيل الثامن بعد ذلك إلى مغول القفجاق(٢) وقائدهم نوجاى **Nogai** والذى تزايدت سلطته بشكل واضح، وعقد الإمبراطور معه معاهدة صداقة وزوجه ابنته غير الشرعية أفروسين **Euphrosyne** وأرسل له عددًا كبيرًا من الهدايا الفاخرة، ويرجع سبب هذه المعاهدة والمصاهرة إلى رغبة الإمبراطور في أن يأمن شر البلغار إذا حاولوا الهجوم على الإمبراطورية، فقد كان نوجاي قادرًا على صدهم، فضلاً عن أن الإمبراطورية أصبحت آمنة تماماً من خطر مغول القفجاق، كما أصبح نوجاى حاجزاً قوياً وسداً منيعاً لمقاومة تتار الشمال الآخرين(٣). وقد أثبت هذا التحالف نجاحه حيث قدم نوجاى المساعدة العسكرية للقوات البيزنطية فى حربها ضد البلغار، وتمكن الجيش المغولي من هزيمة الجيش

---

(١) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 234-5; See Also: Izeddin, M., "Notes Sur Les Mariages Princiers en Orient au Moyen Age", JA cclvii (1969), p. 142.
وانظر أيضًا : الأمين أبو سعدة، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوى الإسلامية، ص ١٤٧؛ هشام حسن كامل، السياسة الخارجية لدولة خاقانات المغول (٦٢٤-٦٦٣هـ/ ١٢٢٧-١٢٦٥م)، [رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة القاهرة ١٩٩٥م]، ص ٢٥٦.

(٢) مغول القفجاق: كان المغول دولاً متعددة منها مغول فارس والعراق، ومغول الصين غرب منغوليا، ومغول تركستان، ومغول القفجاق أو مغول القبيلة الذهبية، وعاش هؤلاء جنوب روسيا، واعتنقوا الإسلام، وأشهر زعمائهم بركة خان.
السيد الباز العريني : المغول، بيروت ١٩٨٦م، ص٢٧٣-٤٧٤؛ أحمد رشاد : السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، ص١٤٤، هامش رقم (١).

(٣) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 446-8; Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 140; See Also: Izeddin, Notes sur les Mariages Princiers, p. 142; Miller, Balkan States, p. 527; Ostrogorsky, The Palaeologi, p. 33.
وانظر أيضًا : ليلى عبد الجواد: علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك، ص ٨٠-٨١؛ الأمين أبو سعدة: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوى الإسلامية، ص ٢٦٧.

البلغارى وذكر باخيميريوس ذلك بقوله: " إن هذا الانتصار كان بفضل جيش المغول"[١]. كذلك قدم نوجاى المساعدة مرة أخرى للإمبراطور البيزنطى فى قتاله ضد يوحنا الثانى كومنين **John II Commene** حاكم طرابيزون **Trebizond**[٢]. حيث أرسل له أربعة آلاف جندى مغولى اشتركوا مع الجيش البيزنطى فى المعركة التى انتهت بهزيمة يوحنا الثانى هزيمة قاسية[٣].

استمر يوحنا الثانى على عدائه للإمبراطورية البيزنطية، فاستغل فرصة انشغال الإمبراطور ميخائيل الثامن فى حروبه ولقب نفسه إمبراطوراً وحمل الشارات الإمبراطورية، ورفض الاستجابة لسفارة الإمبراطور التى تنهاه عن هذه الأعمال، وعندئذ حاول ميخائيل الثامن أن يكسبه إلى جواره عن طريق المصاهرة ليأمن شره نهائياً، فعرض عليه رغبته فى تزويجه من ابنته أيدوكيا **Eudokia** ومنحه لقب ديسبوت **Despot**[٤]، ووافق يوحنا وتمت المصاهرة وتنازل عن ادعائه للسلطة والشارات الإمبراطورية[٥].

استطاع كذلك الإمبراطور ميخائيل الثامن أن يوقف العداء بينه وبين البلغار بعرضه على الملك البلغارى قنسطنطين تش (١٢٥٧-١٢٧٧م) بعد أن ماتت زوجته أن يزوجه أميرة بيزنطية وهى ابنه أخته إيرين وتدعى ماريا **Maria** ووافق الملك البلغارى، وصاحب

---

(١) Pachymeres, Relations Historiques, I, p. 446.

(٢) طرابيزون: تقع طرابيزون شمال شرق آسيا الصغرى فى شبه جزيرة الأناضول وتعود نشأتها إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى عندما أنشأها ألكسيوس كومنين بمساعدة عمته تامارا **Thamara** ملكة جورجيا، وكان تأسيسها استكمالاً لحكم أسرة كومنين التى كانت تحكم الإمبراطورية البيزنطية فى الفترة الممتدة ما بين سنتي ١٠٨١-١١٨٥م.

- لمزيد من التفاصيل، انظر:

Miller W., Trebizond the Last Greek Empire, London, 1926.

انظر أيضًا : هناء محمد إبراهيم، التاريخ السياسى لإمبراطورية طرابيزون البيزنطية منذ منتصف القرن الرابع عشر حتى سقوطها سنة ١٤٦١م، [رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة طنطا ١٩٩٨م].

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 140;

انظر أيضًا : الأمين أبو سعده، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوى الإسلامية، ص ٢٩٠؛ أحمد رشاد، السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، ص ١٨٤-١٨٥.

(٤) الديسبوت كان أعلى لقب يحمله أمير في عهد أسرة باليولوجوس، وهو لقب له دلالة وأهمية إقليمية. رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص٩١.

(٥) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 140; See Also: Miller, Trebizond, pp. 28-30

انظر أيضًا : أحمد رشاد : السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، ص ٧٩-٨٠.

الإمبراطور والبطريرك هذه الأميرة إلى الحدود البيزنطية فى احتفال كبير[١].

كذلك عقد ميخائيل الثامن زواج سياسى مع أبيروس، فقد زوج ابنة أخته إيرين آنا من نقفور ابن ميخائيل الثانى أنجيلوس دوق أبيروس كوسيلة لإيقاف اعتداءات أبيه ميخائيل الثانى المتكررة على الأراضى البيزنطية[٢]، وعُقد سلام طويل بين الجانبين، وقام الإمبراطور بإرسال آنا إلى أبيروس ترافقها حاشية كبيرة، وكان ميخائيل الثامن يأمل من وراء هذا الزواج أن تؤثر آنا على زوجها وينسى هو وشعبه ادعاءهم العنيد بالاستقلال عن الإمبراطورية البيزنطية ويرجعوا للحظيرة الإمبراطورية كأتباع لحكومة القسطنطينية[٣]، واستطاعت آنا بالفعل حث زوجها خلال السنوات الأولى من زواجهما أن يلطف من عداء والده الشديد للإمبراطورية البيزنطية، وعندما تولى زوجها نقفور حكم أبيروس وظفت آنا لخدمة مصالح أسرتها فى القسطنطينية وبحثت عن كل وسيلة تمكنها من التوفيق بين مصالحه ومصالح وأسرتها البيزنطية وتوثيق العلاقة بين الطرفين[٤].

وبدون شك ظلت العلاقات ودية بين أبيروس والإمبراطورية البيزنطية لعدة سنوات، ويذكر باخيميريوس، أن نقفور ظل يعيش فى سلام مع جيرانه، وتخلى عن أى طموح ورضى بحدود دوقيته[٥].

أيضاً تقرب الإمبراطور ميخائيل الثامن من الملك الصربى ستيفن أوروش الأول (١٢٤٣-١٢٧٦م) وعرض عليه مشروع التحالف سنة ١٢٦٨م على أن تتزوج ابنته آنا من ميلوتين، الابن الثانى لستيفن أوروش، بهدف الحفاظ على العلاقات الجيدة مع صربيا وحتى لا تدخل في أي تحالفات عدائية ضد الإمبراطورية البيزنطية، وكذلك حماية حدوده مع أوربا بالتحالف مع الدول المجاورة، وأُرسلت سفارة إلى صربيا لتقصي ظروف الحياة في البلاط

---

(١) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 440-2; Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 130; See Also: Nicol, Byzantine Family, p. 19.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن سياسة ميخائيل أنجيلوس ضد الإمبراطورية انظر:
محمد عتمان، أبيروس وسياستها الخارجية، ص ١٥٠-١٥٣.

(٣) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 314-16; See Also: Nicol, Despotate of Epiros, p. 11.
انظر أيضًا : محمد عتمان، أبيروس وسياستها الخارجية، ص ١٤٩-١٥٢.

(٤) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, pp. 109,130; See Also: Nicol, Despotate of Epiros, p. 11; Byzantine Lady, p. 24; Byzantine Family, p. 20.
انظر أيضًا : محمد عتمان، أبيروس وسياستها الخارجية، ص ١٥٣-١٥٤.

(٥) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 398-9.

الصربي والاتفاق على مشروع الزواج، إلا أن أعضاءها اندهشوا من مستوى معيشة الصرب المختلف تمامًا عن الرفاهية البيزنطية، وتوقف مشروع الزواج فجأة(١).

واصل الإمبراطور أندرونيقوس الثاني سياسة سلفه للزواج السياسي، حيث وافق على شروط روجر زعيم الكتلان والتي كان من بينها الزواج من إحدى أميرات الأسرة الإمبراطورية وذلك حتى يحصل على المساعدة العسكرية من الكتلان للتصدي لخطر الإمارات التركمانية(٢) فى آسيا الصغرى(٣). ورشح الإمبراطور الأميرة ماريا ابنة أخته إيرين وكانت تتصف بالجمال والذكاء للزعيم الكتلانى(٤). وبالفعل تحرك روجر وجنوده إلى آسيا الصغرى وحققوا انتصارات كبيرة على القبائل التركمانية كانت لها صدى كبيرًا على الإمبراطور وعلى البيزنطيين في القسطنطينية وارتفعت روحهم المعنوية بهذه الانتصارات(٥).

ومن أجل أن يضع الإمبراطور أندرونيقوس الثانى حداً للإغارات الصربية التى أصبحت تشكل خطراً كبيراً على الممتلكات البيزنطية فى شبه جزيرة البلقان وفشل الجيش البيزنطى فى التصدى لها، فضلاً عن انشغال الإمبراطور بحروبه ضد التركمان فى آسيا الصغرى، فقد آثر مهادنة الملك الصربى ستيفن ميلوتين، وأرسل إليه سفارة تعرض عليه عقد

---

(١) Pachymeres, Relation, Relations Historques, I, p. 452; See Also: Failler, A. " Le Projet de Mariage d'Anne Palaiologina avec Milutin de Serbie " RSBS I (1981), pp. 247-9; pp. 247-9; Miller, Balkan States, p. 52-7;

انظر أيضًا : عماد أمين، الصرب وعلاقاتهم بالقوى السياسية، ص ١٠٣.

(٢) الإمارات التركمانية، هم الأتراك الرحل وقد اندفعوا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي نحو آسيا الصغرى للتوسع على حساب دولة سلاجقة الروم ثم ما لبثوا أن أغاروا على ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في أسيا الصغرى وسببوا للإمبراطورية الكثير من الخسائر ومن هذه الإمارات إمارة قرمان ومنتش وصاروخان وقراسي وإيدين.

لمزيد من التفاصيل :

زبيدة محمد عطا، بلاد الترك في العصور الوسطى بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون، القاهرة د.ت، ص١٤٨-١٥١؛ ناهد عمر، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص٦١-٧٨؛ أحمد رشاد، السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، ص١٢٥-١٤٠.

(٣) لمزيد من التفاصيل عن حروب أندرونيقوس الثانى ضد التركمان انظر:

ناهد عمر، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص ٦١-٧٨.

(٤) Ostrogorsky, The Palaeologi, p. 347;

ناهد عمر، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص ٩٨-١٠٠.

(٥) لمزيد من التفاصيل عن معارك الكتلان ضد التركمان، انظر :

ناهد عمر : السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص١٠١-١٠٨.

معاهدة تحالف وسلام بين الطرفين، ولتأكيد هذا السلام عرض عليه الإمبراطور أن يزوجه أخته أيدوكيا – أرملة يوحنا الثانى كومنين حاكم طرابيزون – التى عادت إلى القسطنطينية بعد وفاة زوجها، إلا أن أيدوكيا رفضت طلب أخيها قائلة: "إنها قررت أن تعيش أرملة بقية حياتها كما وعدت زوجها ولن تتراجع عن قرارها أمام أي ضغط أو أي مزايا"[١]. الأمر الذى وضع أندرونيقوس الثانى فى موقف حرج، لذا قرر أن يزوج الملك الصربى الذى يبلغ من العمر أكثر من أربعين عاماً – وكان عمره أكبر من عمر الإمبراطور أندرونيقوس الثاني نفسه على حد قول نقفور جريجوراس[٢] – ابنته سيمون ذات الخمس سنوات، ووقعت معاهدة سلام بين الطرفين في فبراير سنة ١٢٩٩م، وتم الزواج الذى عبر عن الزواج السياسى بكل ما للكلمة من معنى[٣]. وبرر أندرونيقوس الثانى هذا الزواج بأنه كان لمصلحة الإمبراطورية البيزنطية، حيث قدم ابنته لهذا البربرى مكرهاً كقربان من أجل المصلحة العامة وتأمين أراضى الإمبراطورية، وكان هذا الزواج هو الطريق الوحيد لمنع الهجوم الصربى على الأراضى البيزنطية وإنقاذ أرواح الآلاف من البيزنطيين فى مقابل التضحية بفتاة واحدة[٤].

وقد أتى هذا الزواج السياسي أكله، فسرعان ما تحسنت العلاقات البيزنطية الصربية نتيجة له، وأرسل الإمبراطور أندرونيقوس الثانى سفارة بيزنطية سنة ١٣١٢م إلى الملك الصربى يطلب فيها مساعدته فى قتاله ضد التركمان، وأجاب الملك الصربي ميلوتين طلبه وأرسل إليه ألفى فارس صربى لمساعدته، وكذلك قدم له المساعدة العسكرية أثناء اندلاع الصراع بينه وبين حفيده أندرونيقوس الثالث سنة ١٣٢١م[٥].

عن طريق الزواج السياسى أيضاً حاول الإمبراطور أندرونيقوس الثانى أن يحصل على مساعدة مغول فارس ضد الأتراك العثمانيين، وذلك لعدم قدرته على الدخول في حرب ضدهم،

---

(١) Pachymeres, Andronico Palaeologo, II, pp. 274-5.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 169.

(٣) Pachymeres, Andronico Palaeologo, II, pp. 275-6; See Also: Laskaris, Vizantiske Prinzese, p. 58-67; Nicol, Mixed Marriages, pp. 163-4; Dinic, M., "The Balkans 1018-1499", CMH, ed., J.M. Hussey, vol iv, part I, pp. 532-4.
انظر أيضًا : عماد أمين: الصرب وعلاقاتهم بالقوى السياسية، ص ١١٢-١١٥.

(٤) Laskaris, Vizantiske Prinzese, pp. 69-71; Gill, Matrons and Brides, p. 41; Nicol, Last Centuries, p. 120.

(٥) Gregoras, Rhomäiscle Geschichte, I, p. 200-204; See Also: Dinic, The Balkans p. 534; Mavromatis, " La Serbie de Milutin entre Byzance et L'occident " B xliii (1973), pp. 135-6.
انظر أيضًا : ناهد عمر: السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص١٨٩.

فأرسل سنة ١٣٠٤م سفارة إلى الحاكم المغولى غازان **Ghazan** (١٢٩٠-١٣٠٤م) يعـرض عليه قيام تحالف بينهما ضد العثمانيين، وتأكيداً لهذا التحالف قام الإمبراطور بإرسال أميـرة بيزنطية لتكون زوجة لغازان، ووافق الحاكم المغولى على هذا العرض، وأوصـى الـزعيم المغولي الأتراك بعدم الاعتداء على أراضي حليفه الإمبراطور البيزنطي، ولكن لم يلبـث أن مات غازان فى نفس العام، فجدد الإمبراطور عرضه على خليفته ويدعى أولجـاتيو **Olgatiu** (١٣٠٤-١٣١٣م)، فوافق على التحالف مع البيزنطيين، ووعد بإرسال قوة عـسكرية كبيـرة بقيادة ابن أخيه لمساعدة الإمبراطور والهجوم على الأراضى العثمانية فى آسـيا الـصغرى، وبالفعل وصلت إلى نيقية في آسيا الصغرى ولكنها تعرضت للهزيمـة مـن قبـل القـوات العثمانية[١].

هذا وقد كان تقديم أميرة بيزنطية للزواج فى بعض الأحيان يمثل إنقاذاً للإمبراطوريـة من ظروف سيئة تمر بها، مثلما حـدث فـى شـتاء سـنة ١٣٠٦-١٣٠٧م، حيـث كانـت القسطنطينية تعانى من المجاعة بعد أن سيطر الكتلان على أجزاء كبيرة من تراقيا، وأصـبح وضع القسطنطينية حرجاً نتيجة لقلة ما يصلها من مؤن وغـلال[٢]. عندئـذ اسـتغل الملـك البلغارى سفيتوسلاف **Svetoslav** تلك الظروف وعرض على الإمبراطور أندرونيقوس الثاني معاهدة سلام، كان من شروطها إمداد القسطنطينية بالقمح مقابل الزواج من أميرة بيزنطيـة، ولكن قابل الإمبراطور طلبة بالرفض مما دفع البلغار للاستيلاء على عدد من المدن البيزنطية على ساحل البحر الأسود، وكانت هذه المدن تمثل مصدراً هاماً لإمداد القسطنطينية بالحبوب، ونتج عن ذلك منع إرسال القمح للعاصمة البيزنطية ومعاناة سكانها من المجاعة، وأمام هـذا التهديد وافق أندرونيقوس على إرسال أميرة بيزنطية رغماً عنه، وتم توقيـع الاتفاقيـة بـين الطرفين، والتى تزوج بمقتضاها سفيتوسلاف من الأميرة ثيودورا ابنة ميخائيل التاسع، والتى كانت تبلغ من العمر أحد عشر عامًا، ومد الملك البلغارى القسطنطينية بالقمح وقـضى علـى المجاعة، وقُدمت الأميرة كعربون للسلام بين الإمبراطورية وبلغاريا[٣].

---

(١) Pachymeres, Andronico Palaeologo, II, p. 588; See Also: Izeddin, Notes sur les Mariages Princiers, pp. 142-3; Connor, Women of Byzantium, p. 315.
انظرًا أيضًا، ناهد عمر: السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص ٨٤-٨٥؛ أحمـد رشـاد: الـسياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الوضع الاقتصادى للعاصمة فى هذه الفترة، انظر:
Laiou, A., "The Provisioning of Constantinople During the Winter of 1306-1307", B xxxvii (1967), pp. 92-7.

(٣) Laiou, The Provisioning of Constantinople, pp. 101-103; Dolger, Éinigesuber

وقد تجدد الصراع بين القسطنطينية والبلغار مرة أخرى، نتيجة لاستغلال البلغار انشغال أندرونيقوس الثانى بالحرب مع حفيده أندرونيقوس الثالث وقاموا بالهجوم على الأراضى البيزنطية[١] وحقق الجيش البلغارى انتصاراً ساحقاً على القوات البيزنطية سنة ١٣٣١م، واضطر الإمبراطور إلى الصلح مع الملك البلغارى إيفان ألكساندر **Ivan Alexandr** وتزويج ابنته من ابن الملك ويدعى ميخائيل **Michael**، وقد تردد الإمبراطور فى بداية الأمر وحزن بشدة على زواج ابنته الطفلة الصغيرة من حاكم بربري، وهى التى تربت ونشأت وفقاً للعادات والتقاليد اليونانية، ولكن فى النهاية فضل مصلحة الإمبراطورية، ومنذ ذلك الحين سادت علاقات السلام والمودة بين البيزنطيين والبلغار[٢].

وقد دخلت أميرات بيزنطيات فى حريم السلاطين العثمانيين الأوائل نتيجة للضرورة السياسية أيضاً، حيث قدم يوحنا كنتاكزينوس ابنته ثيودورا كزوجة للسلطان العثمانى أورخان للحصول على المساعدة العسكرية التى تمكنه من الفوز فى صراعه ضد الإمبراطورة آنا سافوى في الحرب الأهلية وارتقاء عرش الإمبراطورية البيزنطية[٣].

ويذكر المؤرخ ميخائيل دوكاس أن يوحنا كنتاكزينوس هو الذى أرسل إلى السلطان العثمانى يعرض عليه أن يزوجه ابنته ثيودورا وبعث له سفارة طالباً منه أن يرسل إليه خمسة آلاف جندى لمساعدته، وشرح له كيف أساء إليه البيزنطيون ومنعوه من الوصاية على الطفل يوحنا الخامس ابن صديقه الإمبراطور أندرونيقوس الثالث، واضطهدوا أقاربه وأصدقاءه وأجبروهم على الفرار من القسطنطينية، ووعد كنتاكزينوس أن يزوج ابنته ثيودورا لأورخان

Theodora, p. 211.

ناهد عمر: السياسة الخارجية للدولة البيزنطية، ص ١٢٥-١٢٦، ١٩٥.

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر:

* إبراهيم مصباح، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الإمبراطور أندرونيكوس الثالث، ص١٠٥-١١٠.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, pp. 286-7; Cantacuzenus, Historiarum, I, pp. 466-7; See Also, Gill, Matrons and Brides, p. 54.

(٣) Izeddin, Notes sur les Mariages Princiers, pp. 143-4; Bryer, A., "Greek Historians on the Turks: The Case of the First Byzantineottoman Marriage", in: The Writing of History in the Middle ages, Essays presented to R.W. southern. ed. Davis R.H. and Wallace Hadrill, J.M., Oxford 1981, pp. 476-8, Origone, Marriage Connection between Byzantium and the west, p. 232; Head, Imperial Twilight, p. 68.

محمد فريد بك المحامى: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق/ إحسان حقى، دار النفائس، ١٩٨٣، ص١٢٥-١٢٦.

ويقدم له عددًا ضخمًا من الثروات كمهر لها وأن ينفذ كل رغباته ويعتبره ابنًا له(١).

على هذا النحو فرضت المصلحة السياسية نفسها، وأدت إلى تغيير العادات والتقاليد الرومانية القديمة، ففى الماضى لم يكن أعظم حكام العالم المسيحى قادراً على الزواج من أميرة بيزنطية؛ لأنهم غير جديرين بذلك، ولكن تغير الزمن وزينت الأميرات البيزنطيات قصور السلاطين العثمانيين(٢).

وفى الحقيقة، قدم السلطان العثمانى أورخان المساعدة لكنتاكزينوس دون تردد، وأرسل له قوة عسكرية تتألف من خمسة آلاف تركى، ساعدته فى الاستيلاء على كل المدن البيزنطية الواقعة على سواحل البحر الأسود فيما عدا مدينة سوزوبوليس **Sozopolis**(٣). وكذلك فى فرض الحصار على مدينة أدريانوبل(٤)، وأرسل السلطان العثمانى المساعدة العثمانية مرة أخرى لكنتاكزينوس، وكانت تتألف من حوالى عشرة آلاف تركى، والتى ساعدته فى حصار القسطنطينية، وكان لتلك القوة العثمانية الفضل فى حسم الحرب الأهلية لصالح كنتاكزينوس، الذى دخل العاصمة فى فبراير سنة ١٣٤٧م وعقد معاهدة صلح مع الإمبراطورة آنا سافوى(٥).

---

(١) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 72; See Also: [Nicol, Reluctant Emperor, p. 77; Hopwood, Byzantine Princesses, pp. 232-6.]
انظر أيضًا : صلاح محمد ضبيع، العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية، ص١٠٠-١٠١.

(٢) Ostrogorsky, The Palaeologi, p. 361; Nicol, Last Centuries, p. 204; Gill, Matrons and Brides, p. 48.

(٣) سوزوبوليس: مدينة تقع على ساحل البحر الأسود كانت قديماً تعرف باسم أبولونيا Appolonia وحديثاً باسم سوزوبول Sozopol ، وكانت مركزاً تجارياً كبيراً بين الإمبراطورية البيزنطية والمملكة البلغارية غزاها البيزنطيون سنة ١٢٦٣م، وكانت تابعة لمدينة بيسيديا القديمة.
ODB, 3, p. 1912.

(٤) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 73; See Also: Gill, Matrons and Brides, pp. 60-61;
انظر أيضًا : مانتران (روبير)، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمه بشير السباعي، ج١، القاهرة ١٩٩٣، ص ٢٨؛ صلاح ضبيع، العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠١-١٠٣.

(٥) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, pp. 74-5;
انظر أيضًا : مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٢٨؛ صلاح ضبيع، العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٦-١٠٧.

هذا، وقد جاءت القوات العثمانية مرة أخرى لمساعدة كنتاكزينوس فى طرد الصرب من الأراضى البيزنطية، حيث استغل الملك الصربى دوشان انشغال كنتاكزينوس بالاستيلاء على القسطنطينية وقام بالسيطرة على المدن البيزنطية فى مقدونيا[١]. واتجه نحو سالونيك سنة ١٣٤٥م فقام السلطان العثمانى أورخان بإرسال جيش كبير بقيادة ابنه سليمان، حيث توجهت القوات البيزنطية والعثمانية إلى سالونيك وأجبرت الصرب على الانسحاب وإعادة المدينة[٢].

ولم تقتصر مساعدة أورخان على الإمبراطور يوحنا كنتاكزينوس نفسه، بل أنه قدم المساعدة لابنه متى أيضاً فى صراعه ضد يوحنا الخامس باليولوجوس سنة ١٣٥٢م، فقد حاصرت قوات يوحنا الخامس متى فى أدريانوبل، عندئذ طلب كنتاكزينوس المساعدة من أورخان الذى استجاب لنجدته وأرسل له القوات التركية التى تمكنت من طرد يوحنا الخامس من أدريانوبل وإنقاذ متى كنتاكزينوس[٣]. ليس هذا فحسب وإنما نجت المنطقة البيزنطية بفضل زواج السلطان العثماني أورخان وثيودورا من الهجمات العثمانية لمدة سبع سنوات[٤].

وقد واصل الأباطرة البيزنطيون سياستهم فى استخدام بناتهم لكسب ود الحكام المجاورين والحصول على مساعدتهم، فحتى يهدأ الإمبراطور يوحنا الخامس غضب السلطان العثمانى أورخان، والذى تم اختطاف ابنه خليل واحتجازه فى جزيرة فوكيا، مع عجز الإمبراطور إقناع حاكمها – تابعه – من إطلاق سراحه، لذلك وعد يوحنا السلطان أورخان بأن يزوج ابنه خليل من ابنته إيرين، والتى كانت تبلغ من العمر عشر سنوات بعد أن يدفع الإمبراطور الفدية لحاكم الجزيرة ويُطلق سراح خليل[٥]. وقدم أيضاً يوحنا الخامس أخته للقائد الإيطالي فرانسيسكو **Francesco** وجزيرة لسبوس مهرًا لها مقابل مساعدة الأخير له وتقديم

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن علاقة دوشان بكنتاكزينوس انظر:
عماد أمين محمد، الصرب وعلاقتهم بالقوى السياسية، ص ١٠٦-١٦٧.

(٢) History of John Cantacuzenus, p. 169; Gill, Matrons and Brides, p. 70.
انظر أيضًا : صلاح ضبيع، العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٦-١٠٧؛ مانتران، تاريخ الدولة العثمانية، ج١، ص ٢٨.

(٣) Gill, Matrons and Brides, p. 70.
صلاح ضبيع، العلاقات السياسية بين العثمانيين والإمبراطورية البيزنطية، ص ١٠٦-١٠٧.

(٤) Nicol, Reluctant Emperor, p. 78.

(٥) Luttrel, A., "John V's Daughters: A Palaiologan Puzzle", Dop 40 (1986) p. 103; Izeddin, Notes Sur Les Mariages princiers, p. 146.

القوات العسكرية التى مكنته من دخول القسطنطينية والاستيلاء على العرش الإمبراطوري من كنتاكزينوس[١].

وأيضاً وعد أندرونيقوس الرابع السلطان العثمانى مراد (١٣٥٩-١٣٣٨م) أن يزوجه أخته فى مقابل مساعدة السلطان له فى تمرده ضد أبيه يوحنا الخامس والذى انتهى بفوزه ودخوله العاصمة وأسره لأبيه وأخوته[٢].

على أي حال، إذا كان للأميرة البيزنطية أهمية خاصة في الزواج السياسي – إذ كانت الأداة أو الوسيلة التي استخدمها والدها أو قريبها الإمبراطور لتحقيق مكاسب سياسية لمصلحة الإمبراطورية – فإن الإمبراطورات قد لعبن دورًا مختلفًا في الزواج السياسي، فكانت الإمبراطورة صاحبة قرار تتدخل في زواج أبنائها، وتنظر في المقام الأول لتحقيق مصالحهم، وتسعى لتوفير أكبر قدر من الراحة والرفاهية لهؤلاء الأبناء، إلى جانب تحقيق المصالح السياسية من وراء هذا الزواج، ويتضح ذلك من خلال تناول الأمثلة التالية :

فقد لعبت الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس دورًا فعالاً في مفاوضات زواج ابنتها آنا من ميلوتين الابن الثاني للملك الصربي ستيفن أورش ووريث عرشه، وكان الإمبراطور ميخائيل الثامن يهدف من وراء هذا الزواج إلى التحالف لحماية حدوده مع أوربا بالتحالف مع الدول المجاورة من إمبراطوريته، وكذلك حتى يمنع الملك الصربي من دخول أي تحالفات ضد الإمبراطورية البيزنطية، وبالفعل تم الاتفاق بين الجانبين سنة ١٢٦٨م على أن تتزوج ابنة الإمبراطور الثانية الأميرة آنا من الابن الثاني ووريث العرش الصربي ميلوتين، وتوجهت السفارة البيزنطية بصحبة الأميرة إلى صربيا وأوصت الإمبراطورة ثيودورا رجالها، وعلى رأسهم البطريرك يوحنا الحادي عشر بيكوس **John XI Bekkos** (١٢٧٥-١٢٨٢م)[٣]، بالسهر على راحة الأميرة وتقصي ظروف الحياة في صربيا، وهل تلائم ابنتها التي اعتادت

---

(١) Doukas, Decline and Fall of Byzantium, p. 81.

(٢) Important Short Chronicle, pp. 353-4; See Also Izeddin, Notes sur les Mariages princiers, p. 147; Luttrel, John V's Daughters, p. 104.

(٣) يوحنا الحادي عشر بيكوس: بطريرك القسطنطينية، ولد فى نيقيه فى الفترة الممتدة ١٢٣٠-١٢٤٠م ومات فى مارس ١٢٩٧م، وعمل كمبعوث للإمبراطور ميخائيل الثامن فى سفارات عديدة. وسجن بسبب آرائه المعارضة للوحدة الكنسية، ولكن عندما وافق على الوحدة الكنسية حرره الإمبراطور وعينه بطريركًا وأصبح زعيم الحزب المؤيد للوحدة الكنسية، وأيد الإمبراطور ميخائيل الثامن فى إضطهاد المعارضين لسياسته الدينية.

ODB, 2, p. 1055.

حياة الرفاهية البيزنطية ؟ وعند وصول السفارة إلى البلاط الصربي اندهش رجالها من الفقر المخيم على القصر الصربي وسوء الأوضاع في هذه البلاد، فضلاً عن تغير الظروف السياسية في هذا الوقت، ذلك أن ميلوتين لن يخلف أباه – لحادثة أصابته – كما كان مذكورًا في الاتفاقات الموقعة مع الإمبراطور البيزنطي، ولما كان الإمبراطور ميخائيل الثامن حريصًا على أن يزوج ابنته من الوريث على عرش صربيا، فإن هذا الزواج أصبح لا يمثل للإمبراطور فائدة بعد استبعاد هذا الابن، وتم العدول عن مشروع الزواج بين الأسرتين الحاكمتين(١).

وتعتبر الإمبراطورة إيرين مونتفرات مثالاً واضحاً لتدخل الإمبراطورة فى رسم مستقبل أبنائها، والتى دخلت فى صراع مرير مع زوجها الإمبراطور أندرونيقوس الثانى من أجلهم، ذلك أن إيرين كانت امرأة طموحة بالنسبة لأولادها، ومهمته لأقصى حد بمصيرهم، وغيوره من أبناء أندرونيقوس الثانى من زواجه الأول، ولما كان الأبناء من الزواج الثانى، ليس لهم الحق في تولي السلطة ووراثة أبيهم الإمبراطور، لذا طالبت إيرين زوجها بتقسيم الميراث الإمبراطورى إلى أجزاء متساوية بين أبنائها، وينقل بعد ذلك إلى أسلافهم، وقال عنها نقفور جريجوراس : " إنها امرأة طموحة بطبيعتها ومتشبعة بالفكر الغربى، كانت ترغب فى أن ترى أبناءها وذريتهم يحكمون الإمبراطورية البيزنطية، وهكذا تكون خلدت ذكراها، وكانت ترغب بصفة خاصة فى تقسيم الإمبراطورية إلى أجزاء متساوية بحيث يحكمها أبناءها كل واحد كإمبراطور مستقل، ولا يخضع أحدهم للآخر، وهذه الإقطاعات تكون مستقلة ". ويختم كلامه بقوله: "ولما كانت لاتينية المولد كانت تحاول أن تفرض تقليداً جديداً على الرومان مأخوذاً عن اللاتين"(٢).

رفض الإمبراطور أندرونيقوس الثانى أفكار زوجته إيرين بشدة، وأجابها بأنه من المستحيل تقطيع أوصال الإمبراطورية أو إلغاء المبادئ البيزنطية المؤكدة منذ سنوات طويلة، بالإضافة إلى أن تجزئة الإمبراطورية فى هذا الوقت التى تجتاز فيه الأزمات سيترتب عليه

---

(١) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 452-6; See Also: Failler, Projet de Mariage d'Anne Palaiologina, pp. 240-3; Talbot, Empress Theodora, p. 296.

(٢) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 184-5; See Also: (Diehl, Byzantine Empresses, p. 277; Constantinidi- Bibikou, Yolande de Montferrat, pp. 427-8; Barker, J.W., "The Problem of Appanages in Byzantium During the Palaiologan Period", B 3 (1971) pp. 105-6).

وقوع كارثة لها، وأعلن أنه يعادى مشروع إيرين ويدافع بكل كيانه عن مبدأ الوحدة الإمبراطورية، وقاومت إيرين رفضه بشدة، وظلت تلح عليه صباحاً ومساءً دون ملل، وحاولت بكل الوسائل أن تؤثر عليه، مرة بالانفجار فى بكاء هيستيرى، وأخرى بالتهديد بالانتحار، وثالثة بمحاولة الدلال عليه أو رفضها العلاقة الزوجية معه، ومع تكرار هذا السلوك سئم الإمبراطور الحياة معها وبدأت تنطفئ جذوة الحب بينهما" على حد قول نقفور جريجوراس[١].

وفى النهاية أضمرت إيرين فى نفسها الانتقام من زوجها الذى حرمها من طموحاتها وعملت على تحقيقها بعيداً عنه، ورحلت حزينة إلى سالونيك سنة ١٣٠٣م[٢] وأخذت تعمل هناك لمصلحة أبنائها[٣].

خططت الإمبراطورة إيرين أن يتزوج ابنها الأكبر يوحنا من إيزابيلا دى فيلهاردوين **Isabelle de Villehardouin** أرملة أمير أخايا، على أن يكون لها الحق فى وراثة إمارة المورة اللاتينية، وحدث جدال كبير بينها وبين زوجها الإمبراطور أندرونيقوس الثاني حول زواج يوحنا، وأعلن الإمبراطور أنه الأب وأن سلطته يجب أن تحترم، وانتهى الأمر بأن زوج الإمبراطور ابنه يوحنا إلى إيرين خومانوس ابنة وزيره ومستشاره الشهير نقفور خومانوس **Nikephor Choumnos**[٤] رغم معارضة إيرين الشديدة[٥].

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 185; See Also: (Constantinidi- Bibikou, Yolande de Montferrat, p. 428; Lemerle, Philippes et la Macedoine, pp. 187-8).

(٢) يذكر جريجوراس أن الإمبراطورة إيرين أضمرت الانتقام من زوجها الإمبراطور أندرونيقوس الثاني بعد أن رفض تقسيم الأراضي الإمبراطورية بين أبنائها وانتقلت إلى سالونيك، وهناك أخذت توجه ضد زوجها الكثير من الاتهامات والانتقادات، ويذكر المؤرخ نفسه بأنها لم تتورع عن إذاعة أسرار تفاصيل غرفة النوم مع زوجها إلى الجميع، ويصفها بأنها لا تعرف الخوف من الله ولا الخجل من الناس، ومن هنا عمل الإمبراطور أندرونيقوس على استرضائها بكل وسيلة، وقدم لها الكثير من الأموال والأراضي والممتلكات.

Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, pp. 184-6.

(٣) Nicol, Byzantine Lady, p. 51; Runciman, Thessalonica and the Montferrat, p. 32; Diehl, Byzantine Empresses, p. 278.

(٤) نقفور خومانوس: بدأ ظهور اسم أسرة خومانوس فى الإمبراطورية البيزنطية منذ القرن الحادى عشر الميلادى، وقدمت هذه الأسرة للإمبراطورية رجالاً بارزين، كان من أشهرهم نقفور خومانوس والد الأميرة إيرين، وقد بدأ مشوار حياته كوزير للمالية فى عهد الإمبراطور ميخائيل الثامن، واستمر محتفظاً بمنصبه فى عهد الإمبراطور أندرونيقوس الثانى، ثم أصبح حاكماً لسالونيك وحقق ثروة ضخمة، كذلك لعب دوراً هاماً فى الحياة الثقافية، وترك أعمالاً أدبية وبلاغية هامة، وألف مختارات عن مسائل علمية وفلسفية عديدة.

Verpeaux, J. "Notes Prosopographiques Sur la Famille Choumnos", BS 20 (1959) pp. 256-7; Kyritses, Byzantine Aristocracy, p. 140.

(٥) Pachymeres, Andronico Palaeologo, II, pp. 287-9; Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 188; See Also: Diehl, Byzantine Empresses, p. 279.

أما بالنسبة لطموحات إيرين لابنها ثيودور، فقد أرادت أن تزوجه قريبة لدوق أثينا جاى الثانى دى لاروش Guy II de la Roche ، مقدمة له الوسائل ليقيم إمارة لنفسه هناك، فأرسلت إلى دوق أثينا تطلب قريبته للزواج بشرط أن يساعدها فى غزو أراضى الديسبوت يوحنا الثانى أنجيلوس John II Angelus حاكم تساليا الذى غزا والداه ممتلكات الدولة البيزنطية فى مقدونيا سنة ١٢٨٢م، وترسل هى بعض الفرق العسكرية لمعاونته، واشترطت ألا يتوقف القتال إلا بعد مقتل الديسبوت واستيلاء ثيودور على ولايته، ولكن توقف هذا المشروع بسبب موت الماركيز يوحنا الأول مونتفرات شقيق إيرين دون أن يترك وريثًا فآل ميراثه إلى أخته التى نقلته بدورها إلى ابنها ثيودور الذي ورث ماركيزية مونتفرات وتزوج سيدة جنوية وأقام فى لمبارديا، وأسس هناك سلالة حاكمة[١].

ولم يبقَ لإيرين إلا ابنها ديمتريوس وابنتها سيمون زوجة الملك الصربى، وهنا حاولت إيرين أن تتقرب من زوج ابنتها التى كانت تعاديه بالأمس، ولم تحضر حفل زواجه من ابنتها على حد قول المؤرخ الصربى[٢]، وعملت على تقوية علاقتها به، وأغدقت عليه الأموال والهدايا وقامت بدعوته أكثر من مرة إلى قصرها فى سالونيك، فأعطت له تاجاً مرصعاً بالجواهر والأحجار الكريمة مثل تاج الإمبراطور، وأخذت فى كل عام تزيد فى منحها له، فيذكر نقفور جريجوراس أن ما أرسلته إيرين للملك الصربى من أموال "لا يمكن أن يحصى حتى أنه ملأ قرابة مائة سفينة ثلاثية المجاديف"[٣].

لم تتوقف إيرين عن تقربها من صهرها وبرهنتها على صداقتها له، والحرص على ثرائه حتى يساعدها فى أن تمكن لأبنائها كأمراء مستقلين من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن هذه الأموال سوف تؤول إلى أبناء ابنتها سيمون مستقبلاً، ولكنها عندما تأكدت من عجز سيمون عن الإنجاب فإن خيال إيرين النشط لمستقبل أبنائها بدأ يرسم خططًا أخرى، فحثت

---

(١) Pachymeres, Andronico Palaeologo, II, pp. 598-9; Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, pp. 186-7; See Also: Diehl, Byzantine Empresses, pp. 279-80; Laskaris, Vizantiske Prinzese, p. 71; Runciman, Thessalonica and the Montferrat, p. 32; Laiou, A.E., "The Byzantine Prince Latinized: Theodore Palaeologus, Marquis of Montferrat", B xxxviii (1968) pp. 386-410.

(٢) Laskaris, Vizantiske Prinzese, p. 71.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 188; (See Also: Mavromatis, La Serbie de Milutin, pp. 127-8).
يلاحظ مبالغة جريجوراس فقد كان بيزنطيًا ويكره كل اللاتين وإيرين كانت لاتينية.

الملك الصربى أن يتبنى أحد أبنائها ليكون وريثًا لعرشه، وأرسلت له ابنها ديمتريوس ومعـه الكثير من الأموال والهدايا لتسهيل مهمته، واستقبله الملك الصربى بالترحاب ولكن لم تطل مدة إقامة الأمير فى صربيا، وشعر بالغربة وعاد إلى وطنه، عندئذ أرسلت إيرين ابنهـا الثـانى ثيودور والذى جاء إليها من لمبارديا واستقبله الملك الصربى بحفاوة، إلا أنه لم يستطع التأقلم مع ظروف الحياة فى صربيا، وعاد بسرعة إلى زوجته فى لمبارديا[١].

بهذه الطريقة سعت الإمبراطورة إيرين لتأمين مستقبل أبنائها والتي اتبعتها طيلة حياتها، وحاولت أن تؤمنه لهم من خلال الزواج السياسى، فقد حولت عاطفة الأمومة هذه المرأة إلـى سياسية بيزنطية ذات طبيعة مميزة على حد قول ديل **Diehl**[٢].

كذلك تدخلت الإمبراطورة ثيودورا كنتاكزينوس فى زواج ابنها يوحنا كنتاكزينوس من إيرين الأسينية **Eirene Asenina** حفيدة الحاكم البلغارى يوحنا الثالث آسـن **John III Asen** والتى رأت فيها امرأة تماثلها فى ذكائها وطبيعتها الطموحة[٣].

أما آنا باليولوجوس زوجة ديسبوت إيبروس وابنة عمة الإمبراطور أندرونيقوس الثانى فقد عملت على ربط دوقيتها بالإمبراطورية البيزنطية عن طريق الـزواج، فعرضـت زواج ابنتها تامار **Thamar** من ميخائيل التاسع ابن الإمبراطور أندرونيقوس الثاني، الـذى تـوج كإمبراطور مشارك مع والده فى مايو سنة ١٢٩٤م، فأرسلت للإمبراطور وأخذت تشرح لـه الفوائد التى ستعود على الإمبراطورية من هذا الزواج، ولكن رُفض عرضها بـسبب صلـة القرابة بين العروسين[٤]، ومن هنا أخذت تتوسل للإمبراطور أندرونيقوس الثانى والبطريـرك

---

(١) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 190; See Also: Constantinidi- Bibikou, Yolande de Montferrat, pp. 433-4; Laskaris, Vizantiske Prinzese, pp. 73-4; Miller, Balkan States, p. 533.

(٢) Diehl, Byzantine Empresses, p. 13.

(٣) Nicol, Byzantine Lady, p. 71; Reluctant Emperor, p. 18; Runciman, Thessalonica and the Montferrat, pp. 30-31.

(٤) أصدرت الكنيسة العديد من القرارات لتنظيم موانع الزواج بسبب القرابة، وكان التحريم يـصل إلـى الدرجة السادسة من القرابة أي أن الأبناء لأخوين شقيقين لا يمكنهم الزواج من بعضهما، وكانت تامارا وميخائيل التاسع ينتميان إلى الدرجة السادسة.

لمزيد من التفاصيل عن موانع الزواج بين الأقارب، انظر :

Laiou, A.E., Mariage, Amour et Parenté A Byzance Aux xl^{e}-xlll^{e} Siećles, Paris 1992, pp. 90-2.

الفصل الثاني

مساهمة الإمبراطورات والأميرات في الحياة الثقافية

دور نساء الأسرة الإمبراطورية في الحياة الثقافية :

مما لا شك فيه أن نساء العائلة الإمبراطورية قد لعبن دورًا هامًا في الحياة الثقافية، فقد كان التعلم صفة مميزة لنساء الطبقات العليا، وكان وجود عدد من النساء المتعلمات في القسطنطينية في القرن الثاني عشر الميلادي ظاهرة مثيرة للاهتمام، وأمرًا مقبولاً لدى الرأي العام(١)، وكان نصيب العاصمة القسطنطينية أكثر من غيرها؛ إذ وجد بها عدد من النساء المتعلمات في القرن الثاني عشر الميلادي، وزاد عددهن في القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين، إلا أن غالبية هؤلاء النساء كن من الطبقة الأرستقراطية العليا، واللائي وجدن فرصًا أكثر من غيرهن للتعلم، لدرجة أنه يمكن القول أن التعليم كان مقصورًا على أبناء هذه الطبقة والذي يبدو أنهن تلقين تعليمًا خاصًا بواسطة آبائهن أو معلمين خصوصيين في المنزل، تعليمًا مساويًا لما يتلقاه إخوانهن الذكور(٢).

وقد دون دونالد نيكول " إن أولئك السيدات في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين قد بدأن يشعرن بمزيد من الثقة والحرية ليقولن ويفعلن أشياء أكثر من أسلافهن "(٣).

ومهما يكن من أمر، فقد تنوعت أنشطة هؤلاء النسوة وتباينت اهتماماتهن، فمنهن من اهتمت بنسخ المخطوطات أو تأليف سير القديسين، وعدد آخر شجعن رجال الدين والأدب بالمراسلة والدعم المادي وإقراض الكتب لهم، أو بواسطة إقامة الصالونات الأدبية والفكرية ودعوتهم إليها.

---

(١) رغم ذلك وجدت ازدواجية في هذا الاتجاه، ففي خطبة جورج تورنيكوس George Tornikos الكاتب الشهير في القرن الثاني عشر ومطران مدينة إفيسوس للأميرة أنًا كومنين راح يمتدح تعليمها الرائع وثقافتها الواسعة وتأثيرها على الرجال المتعلمين المعاصرين لها، ومع ذلك لم يضع هذه السمات كمعيار أساسي للمرأة المثالية والتي تنافس بها الرجال، بل إنه أصر أن الأميرة اكتسبت ثقافتها سرًا وضد رغبة والديها، وذكر أنها استبدلت أداة غزل النسيج، الوظيفة الأساسية للمرأة بالتعليم.

نقلاً عن :

Laiou, A. E., " The Role of Women in Byzantine Society ", in : Gender, Society and Economic Life in Byzantium, London 2001, pp. 253–4; Talbot, Women, p. 120; ODB, 3, p. 2097.

(٢) Laiou, Role of Women, p. 255; Gitting, Elite women, p. 70 ;

رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص٢٧٩.

(٣) Nicol, Byzantine Lady, p. 3.

ومن بين أكثر أولئك النساء ثقافة وشهرة الأميرة ثيودورا روليان، والتي كانت على درجة عالية من التعليم والثقافة، إذ لم تكن فقط باحثة وجامعة كتب ونصيرة للآداب والفنون، بل كانت هي نفسها كاتبة وناسخة لسير القديسين والمخطوطات القديمة. وبسبب ثقافتها هذه ووضعها الاجتماعي لعبت دورًا بارزًا في الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت[1]، فضلاً عن أنها كانت على معرفة كبيرة باللغة والآداب اليونانية القديمة، والتي اهتمت بها منذ صغرها، وتفوقت فيها في شبابها، ذلك أن كل الباحثين والمفكرين الذين التفوا حولها وعقدت ثيودورا صداقات معهم كانوا من الشخصيات البارزة في نهضة الدراسات اليونانية القديمة في القسطنطينية في القرن الثالث عشر الميلادي، والذين أعادوا اكتشاف وكتابة المخطوطات القديمة المفقودة أو المهملة، تلك النهضة التي اعترض عليها كثيرون واعتبروها أمورًا وثنية، ولا تناسب الرهبان، لكن ثيودورا لم تتخذ وجهة النظر هذه، بل ولم تكتف بدراسة هذه الكتابات الكلاسيكية القديمة، وإنما أخذت تنسخ وتعدل فيها، فقد نسخت مخطوطاً يحتوي على خطب أليس أريستيدس Aleius Aristides ، الخطيب اليوناني الشهير في القرن الثاني الميلادي، ويتألف هذا المخطوط من أربعمائة وخمسٍ وعشرين ورقة، ويبدأ بعبارة شعرية من ثمانية أسطر تشرح أن هذه المخطوطة منسوخة بدرجة عالية من الدقة بواسطة ثيودورا ابنة أخت الإمبراطور البيزنطي وزوجة يوحنا راؤول، ويبدو أن الإهداء كان بيد شخص آخر، ولكن النص مكتوب بيد ثيودورا نفسها[2]. وهناك مخطوط آخر للأميرة، وهو نسخ لتعليق على نظرية أرسطو Aristotle[3]، ويبدأ هذا المخطوط بثمانية سطور إهداء في جملة تعني أن ناسخ هذا المخطوط هي ابنة أخت

---

(١) Kugeás, S.,"Zur Geschichte der Münchener Thuky Dideshandchrift Augustanus F. " BZ 16(1907), pp. 605–6.

(٢) Nicol, Byzantine Lady, p. 41; Kugeás, Geschichte der Münchener, p. 594; Constantinides, Higher Education, p. 44.

(٣) أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م)، الفيلسوف اليوناني الشهير الذي يُعد من أعظم الفلاسفة على مر العصور، وأعظم نوابغ النظر العقلي في تاريخ الفكر اليوناني. بعد وفاة معلمه أفلاطون غادر آثينا ودعاه فيليب المقدوني سنة ٣٤٢ ق.م لتعليم ابنه الإسكندر، وكتب أرسطو عدة مؤلفات في المنطق وعلم النفس والأخلاق والوجود والفلك والطبيعة والاقتصاد السياسي، وقيل عنه : " أرسطو هو أمير الفلاسفة ذلك الذي رقى – بعد الأنبياء – إلى أعلى درجات الحكمة البشرية ".

جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة (الفلاسفة – المناطقة – المتكلمون – اللاهوتيون – المتصوفون)، بيروت د.ت، ص٥٢-٥٧.

الإمبراطور ميخائيل الثامن " هبة الله " ثيودورا(١).

لم تكتف ثيودورا بنسخ وتزيين المخطوطات بل امتد نشاطها إلى الكتابة والتأليف، فقامت بتأليف سيرة القديسين الأخوين ثيودور Theodore وثيوفانيس Theophanes(٢)، واختارت هذين الأخوين بسبب مصيرهما المثير للمشاعر والذكريات، فقد تم اضطهادهما بسبب رفضهما مرسوم اللأيقونية(٣)، وتعذيبهما ووسما بالنار على جبهتهما وأعلنا كهراطقة وتم نفيهما، وكان هناك دافع آخر وراء تأليف ثيودورا هذه السيرة، وهو التشابه، فقد وجدت ثيودورا تشابهًا بين الأخوين الأيقونيين، واللذان تم تعذيبهما بسبب معتقداتهما الدينية وبين إخوة زوجها مانويل وإسحاق راؤول Manuel and Isaac Raoul اللذين سملت أعينهما وسجنا بسبب معارضتهما للوحدة الكنسية للإمبراطور ميخائيل الثامن(٤).

---

(١) Nicol, Byzantine Lady, p. 52; Fryde, Palaeologan Renaissance, pp. 180–81.

(٢) ولد ثيودور في فلسطين سنة ٧٧٥م ومات في بيثينا بين سنتي ٨٤١م و٨٤٤م، وقد عرف هو وأخوه ثيوفانيس بالدفاع عن عبادة الصور والأيقونات، وتم نفيهما بواسطة الإمبراطور ليو الخامس Leo V (٨١٣-٨٢٠م)، ومرة أخرى بواسطة الإمبراطور ثيوفيلوس وتم اضطهادهما.

لمزيد من التفاصيل عن القديسين انظر :

Treadgold, W., The Byzantine Revival 780–842, California 1988, pp. 280, 311–12; ODB, 3, p. 2042.

(٣) الحركة اللأيقونية : هي حركة تحطيم الصور والتماثيل المقدسة وهي المشكلة الدينية الكبرى التي شغلت الدولة والمجتمع البيزنطي لمدة تزيد عن قرنين من الزمان وظهرت في عصر الإمبراطور ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤١م).

لمزيد من التفاصيل، انظر :

Martin, E.G., A History of The Iconoclastic Controversy, London 1978 ;

إبراهيم على طرخان، الحركة اللأيقونية في الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٥٦م؛ حسنين محمد ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٩٣م، ص١٠٢-١٥٥؛ ياسر حسن علي كلس، النزاع حول عبادة الصور والأيقونات (٧٢٦م-٨٤٣م) [رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة حلوان - ١٩٩٩م].

(٤) Nicol, Byzantine Lady, p. 44; Talbot, A-M., " old Wine in New Bottles : The Rewriting of Saints Lives in the Palaeologan Period ", in : Women and Religious Life in Byzantium, Ashgate 2001, p. 20; Rapp, C., " Figures of Female Sanctity : Byzantine Edifying Manuscripts and Their Audience ", DOP 50 (1996), pp. 327–8.

ومن المحتمل أيضًا أن ثيودورا كعضو من الأسرة الإمبراطورية عارضت السياسة الدينية الرسمية للحكومة وتعرضت للتعذيب والنفي، مما أوجد تشابهًا بين موقفهما وموقف سميتها الإمبراطورة ثيودورا زوجة الإمبراطور ثيوفيلوس التي حثت على توقير الصور والأيقونات[١] بعد وفاة زوجها، فإن إيلوجيا أم ثيودورا قامت بتشجيع الإمبراطور أندرونيقوس الثاني على إلغاء الوحدة الكنسية بعد وفاة أبيه وبمجرد اعتلائه العرش الإمبراطوري[٢].

وفي مقدمة ثيودورا لسيرة الأخوين ذكرت أنها كتبت هذا العمل عندما كانت في المنفى، وبناء على تشجيع أمها إيلوجيا، وهي تشير إلى الارتباك الذي أصاب الكنيسة بعد الاتفاق بين الإمبراطور وكنيسة روما، وتهاجم مدعمي الوحدة الذين أسرعوا نحو تدمير أرواحهم وعقائدهم[٣].

ورغم أن هدف الأميرة ثيودورا من كتابة هذه السيرة هو تكريم ذكرى أخوة زوجها، إلا أنها كانت ذات فائدة كبيرة لمعرفة مدى ثقافة هذه الأميرة وحجم قراءاتها التي تضمنت مختلف أعمال الكتّاب والشعراء والأدباء اليونانيين، وظهر ذلك واضحًا في اقتباسها لكثير من نصوصهم في هذه السيرة[٤].

كذلك كانت ثيودورا على اتصال دائم بمثقفي عصرها، وتراسلت مع عدد كبير من الشخصيات البارزة في الإمبراطورية، ورغم عدم بقاء الخطابات التي أرسلتها الأميرة إلى هؤلاء، إلا أنه يوجد عدد من الرسائل الموجهة إليها من أصدقائها، والتي يظهر من خلالها مدى الثراء الثقافي لثيودورا واهتمامها باقتناء الكتب والمخطوطات التي كانت تستعيرها من

---

(١) كانت الإمبراطورة ثيودورا من أشد المعارضين لسياسة زوجها اللاأيقونية، فبعد وفاة زوجها وفي سنة ٨٤٣م أشرفت ثيودورا على إعادة عبادة الصور والأيقونات كمذهب رسمي للكنيسة الأرثوذكسية.

لمزيد من التفاصيل عن دور الإمبراطورة ثيودورا بوجه خاص والإمبراطورات البيزنطيات في هذا الصراع بوجه عام، انظر :

Garland, Byzantine Empresses, pp. 73–108 ;

علية الجنزوري، المرأة في الحضارة البيزنطية، ص١٥٣-١٧٠؛ عبدالعزيز رمضان، المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، ص١٠١-١٠٢.

(٢) Talbot, old Wine, p. 20.

(٣) Talbot, old wine, p. 20.

(٤) Fryde, Palaeologan Renaissance, p. 181; Nicol, Byzantine Lady, p. 45.

أصدقائها ثم تعيدها إليهم بعد نسخها، هذا إلى جانب مكتبتها الخاصة التي احتوت على كثير من المؤلفات.

على أي حال، لقد استمرت ثيودورا روليان في مواصلة اهتماماتها الثقافية بعد دخول دير القديس أندرو St. Andrew[١] إذ شعرت بالحرية لكي تشبع حبها ورغبتها في التعلم والثقافة، وقسمت وقتها بين واجباتها الديرية وممارسة نشاطها للدراسة والبحث، وكان ديرها مركزًا لالتقاء المتعلمين والمثقفين في عصرها[٢].

وكان من أكثر أصدقاء ثيودورا نفوذًا وسلطة البطريرك جريجوري الثاني، فكتب لها يواسيها عند وفاة أمها، إذ أرسل لها خطابًا يعبر فيه عن حزنه الشديد على فراق هذه السيدة قائلاً : " إنني قد ذرفت دموع العين الغزيرة ومازلت أتنهد ولم أتوقف حتى الآن "[٣] ويشجع ثيودورا على الصمود والصبر على قضاء الله، ويتأسف لأنه لم يرَ الأميرة وهي في طريقها للقسطنطينية لتشييع جنازة أمها، وذلك لأنهما سلكا طريقين مختلفين بسبب الطقس السيئ وهبوب الرياح الشديدة[٤].

فقد كان جريجوري الثاني كاهن الاعتراف للأميرة ثيودورا، ذلك بالإضافة إلى رعايته واحتضانه لحماستها للدراسات اليونانية القديمة، ولم يخاطبها كسيدته ولكن كطفلته الوحيدة، وكان يتوسل للرب أن يزيد من حكمتها وثقافتها، ووصفها بأنها أسمى النساء وأكثرهن دأبًا للبحث والتعلم، وكثيرًا ما تحاورت معه الأميرة حول مؤلفات القدامى مثل دموسثينيس

---

(١) دير القديس أندرو : قامت الأميرة ثيودورا روليان بتجديد هذا الدير بعد سنة ١٢٨٤م وأنشأت فيه كنيسة على المباني القديمة التي تعود للقرن الثامن الميلادي، وقد دفن فيه القديس أندرو الكريتي الذي استشهد في عهد الإمبراطور قنسطنطين الخامس Constantine V (٧٤١-٧٧٥م).

لمزيد من التفاصيل، انظر :

Janin, Geographie Ecclesiastique, pp. 31–6; Koubena, E., " A Survey of Aristocratic women Founders of Monasteries in Constantinople between The Eleventh and Fifteenth Centuries : in : Les Femmes et le Monachisme Byzantine: Actes du Symposium d'Athenes 28–29 Mars 1988 women and Byzantine Monasticism, ed. Perreault, J. Y., Athenes 1991, p. 30.

(٢) Kugeás, Geschichte der Münchener, p. 593; Kyrris, Role de la Femme, p. 45.

(٣) Gregory of Cyprus, Letters, p. 117.

(٤) Gregory of Cyprus, Letters, pp. 117–8.

وأرسطو، وحول الأعمال الأخلاقية للقديس باسيل العظيم St. Basil the Demosthenes[١] Great[٢] وطلبت منه أن يفوض كاتبه أن ينسخ لها نسخة من مخطوط دموسثينيس[٣].

وبعد موت جريجوري الثاني سنة ١٢٩٠م، اتخذت ثيودورا الراهب الحكيم مكسيموس بلانوديس صديقًا لها وتراسلت معه، وفي إحدى خطاباته لها تظهر اهتمامات ثيودورا البحثية، فهو يمدحها على جمال أسلوبها في الخطاب الذي أرسلته له، ويشير إلى مخطوط قامت الأميرة بإرساله له لينقحه ويصحح أخطاءه ويقارنه بنسخة أخرى لنفس المخطوط كانت في حوزته، ولكن الراهب يعتذر لها لأن نسخته قد فقدت حيث أعارها لأحد الأشخاص والذي غادر القسطنطينية ومعه المخطوط، وطلب من ثيودورا أن تتدخل لدى هذا الشخص لتعيد إليه مخطوطه، وبالفعل نجحت الأميرة في إعادته، إذ يذكر بلانوديس أن استرداد المخطوط تم بفضل الأميرة ثيودورا[٤].

وقد ألف مكسيموس ثلاثة قصائد لمدح ثيودورا، وفي هذه القصائد يتضح أن الرجل يعرف على نحو دقيق مكانة وظروف حياة الأميرة ثيودورا وصفاتها الطيبة وتدينها، وأنه هو ذاته قد شمله كرمها، وأنه على دراية تامة بأصلها النبيل، وتحدث مكسيموس كذلك بتعاطف شديد عن معاناتها في سبيل الأرثوذكسية[٥]، وامتدح بإسهاب مآثر ثيودورا[٦].

---

(١) دموسثينيس : أخطب خطباء اليونان المشهورين، ولد سنة ٣٨٢ ق.م، ومات ٣٣٢م، وكانت لكتاباته أهمية كبيرة لدى رجال الفكر البيزنطي الذين اقتبسوا الكثير من خطبه وعباراته حتى القرن الخامس عشر الميلادي.

ODB, I, pp. 510–611 ;

عبداللطيف أحمد علي، المكتبة التاريخية مصادر التاريخ اليوناني، بيروت ١٩٧٣م، ص٤٧.

(٢) القديس باسيل العظيم : أسقف قيسارية في الفترة الممتدة (٣٧٠-٣٧١م) ولد لأسرة مسيحية عربية، وقام بالتدريس في مدارس قيسارية والقسطنطينية وأثينا، وقام بعدة زيارات لأديرة مصر والشام، وشارك في النزاع حول الثالوث المقدس، وشجع الدور الثقافي والاجتماعي والاقتصادي للراهبات.

ODB, I, pp. 258–9 ;

إلياس كويتر المخلصي، القديس باسيليوس الكبير حياته ـ أبحاث عنه ـ مواعظه، لبنان ١٩٨٩م.

(٣) Gregory of Cyprus, Letters, pp. 450–51.

(٤) Kugeás, Geschichte der Münchener, pp. 601–2; Nicol, Byzantine Lady, p. 42.

(٥) لمزيد من التفاصيل انظر الفصل الرابع من الرسالة.

(٦) Planoudes, Epigrams, pp. 1176–8.

وكان من بين أصدقاء ثيودورا الذين تراسلت معهم واستفادت من نصائحهم وآرائهم عن المخطوطات وطرق نسخها، قنسطنطين أكروبوليتس Constantine Akropolites[1] الذي امتلك مكتبة ضخمة، وأرسلت له ثيودورا مخطوطًا لأرسطو، وأرسل لها رأيه فيه وخاطبها بـ " سيدتي المبجلة "، ووصفها بأنها أكثر النساء نبلاً وحكمة وثقافة[2]. كذلك كانت ثيودورا على علاقات طيبة مع نقفور خومانوس الذي كان من أشد المعجبين بكتابات أرسطو، ففي أحد الخطابات طلبت منه أن يعيرها نسخته لشرح نظرية أرسطو بتفسيرات وشروح إلكسندر أفرود يتسياس Alexander Aphroditsias، وقد أعارها نقفور المخطوط ومدحها بأنها أكثر النساء تعاطفًا وحكمة ونفاذ بصيرة[3].

هكذا كانت الأميرة ثيودورا محل إعجاب الكثير بسبب نهمها وتعطشها للعلم والتعلم وثقافتها الواسعة، فقد مدحها بلانوديس بأنها " الأكثر حكمة وعقلاً بين كل الناس "[4]، وأطلق عليها المؤرخ جريجوراس أيضًا اسم " المحبة للتعلم "[5].

وثمة أميرة أخرى كانت على درجة عالية من الثقافة، هي الأميرة إيرين خومانوس، التي تمتعت بقدر كبير من الثقافة الأدبية، وشغفت بدراسة الثقافة اليونانية، وكان والدها نقفور خومانوس نفسه من رواد حركة إحياء الدراسات اليونانية القديمة، والذي عكف على تكوينها الأدبي، وبعد أن أصبحت راهبة كرست إيرين أوقات فراغها في الدير لدراسة التوراة واللاهوت والآداب الهللينية[6]. ووصفها أستاذها الثاني بأنها : أكثر نساء عصرها سعة في

---

(١) قنسطنطين أكروبوليتس : كاتب سير القديسين ورجل الدولة الشهير، ولد في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، عارض قرارات مجمع ليون للوحدة الكنسية، وتولى عدة وظائف هامة في الإمبراطورية، وكان نصيرًا للآداب والفنون، وكتب التاريخ من تأسيس روما وحتى سنة ١٢٦١م، وكتب سير ثلاثين قديس، واهتم بصفة خاصة بقديسي العصور الوسطى المبكرة.

ODB, I, p. 49.

(٢) Akropolites C., Letters, ed. Constantinides, C.N., Higher Education, Letter No. 60 p. 164.

(٣) Choumnos, N., Letters, ed. Leone, P. M.L., EEBS, xxxix-xl, (1972–3), pp. 90–91.

(٤) Planoudes, Epigrams, p. 1176.

(٥) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 178.

(٦) Laurent, V., " Une Princesse Byzantine au Cloître " EO xxix (1930), p. 55; Nicol, Byaztine Lady, p. 66.

المعرفة والثقافة وحبًا للتعلم، وأنها تتفوق عليهن جميعًا بما وهبت من حكمة الرجال[1]، وزاد على ذلك بأن ما تشعر به أحيانًا من عدم قدرة في التعبير عن أفكارها، ليس هذا قاصرًا عليها وإنما حتى الرجال الذين حققوا مكانة عالية في الدراسة والأدب الهلليني يحدث لهم [2]. وذكر أنه يشعر بضحالة أعماله أمامها : " يبدو لي أن أعمالي تظهر عديمة الفائدة عندما تعرض على مثل هذه المخلوقة "[3].

ومن خلال مراسلات إيرين مع أستاذها نلاحظ أيضًا اهتمامات الأميرة الثقافية، فقد أرسلت إليه تطلب منه أحد أعمال البطريرك أثناسيوس، ومن رده عليها نعرف أن العمل الذي طلبته الأميرة يوجد في صورتين: الأولى في شكله النهائي وهي في سالونيك، والثانية في شكل مسودة وهي في مقدونيا، وأمام إلحاح إيرين في طلبه أرسل لإحضاره وبعثه إليها في صورته الأولى دون تبويب[4]، الأمر الذي يدل على مدى لهفة وشغف الأميرة لقراءة ما لدى أستاذها من كتابات وحبها للمعرفة، فرغم أنه أخبرها بأن هذه المؤلفات لا تزال مسودات وليست منقحة أو مكتوبة بخط جيد، إلا أن ذلك لم يمنعها من طلبها، بل إنها زادت شغفًا وتمسكًا بأن يرسلها لها[5].

كذلك تناقشت إيرين مع أستاذها حول أحد أعماله، وهي قصيدة مدح للبطريرك أثناسيوس ضد المقللين من شأنه، وأعجبت الأميرة بهذه القصيدة خاصة أسلوب أستاذها في الكتابة وسمو أفكاره وآرائه، التي لا تفيد فقط الذين كتبت لهم، ولكن ترشد وتجذب كل من يقرأها، وتذكر أنها تركت واجباتها في الدير وتفرغت لقراءة مديحه عن البطريرك الذي لفت انتباهها، ولم تتركه إلا بعد أن انتهت من قراءته[6]، كما أرسل لها أستاذها عدة مقالات كتبها للدفاع عن التعليم والثقافة الهللينية ضد هؤلاء الذين يعارضون هذه المعرفة بوصفها معرفة وثنية لا فائدة منها، فضلاً عن بعض الأشعار التي كانت إيرين قادرة على فهمها وتناقشت معه

(١) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 2, 10, pp. 29, 59.
- انظر الملحق الثاني.

(٢) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 2, p. 29.
- انظر الملحق الثاني.

(٣) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 2, p. 29.
- انظر الملحق الثاني.

(٤) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 2,4, pp. 29, 33.
- انظر الملحق الثاني.

(٥) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 4, p. 33.
- انظر الملحق الثاني.

(٦) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 5, pp. 35–6.
- انظر الملحق الثاني.

فيها وأرسلت له مقالات كتبها ثولبتوس وتناقشت معه حولها[١].

إلى جانب ذلك كانت الأميرة إيرين على اتصال بمثقفي عصرها مثل الشاعر مانويل فيليس، ومتى رئيس أساقفة إفيسوس Matthew of Ephesus[٢] ونقفور جريجوراس، وتبادلت معهم الكتب والمخطوطات، وأهدوا لها مؤلفات عديدة[٣]، ومدحها جريجوراس قائلاً : " إنها أحرزت المجد والسمعة الحسنة بين كل الناس في القسطنطينية، وكانت مثالاً يحتذى به الجميع في العفة وسائر الفضائل "[٤].

أما جريجوري أكيندينوس Gregory Akindynos[٥] فقد أشاد بذكاء الأميرة إيرين وفهمها التعاليم المقدسة للكنيسة وحكمتها وحبها للرب، وإدراكها الصائب لكل الأمور، ووصفها بأنها في ذلك " تنافس أكثر الرجال نبلاً في كل شيء؛ لأنها المفضلة والأكثر حبًا عند الرب"[٦].

---

(١) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 12, p. 63.

- انظر الملحق الثاني.

(٢) متى رئيس أساقفة إفيسوس : يعرف أيضًا بـ مانويل جبلاس Manuel Gabalas، ولد في فيلادلفيا سنة ١٢٧١م ومات قبل سنة ١٣٦٠م، وبدأ عمله كشماس هناك، ثم تدرج في السلم الكنسي، واتخذ القسم الديري سنة ١٣٢٢م، وقضى فترة طويلة في القسطنطينية حتى بعد أن أصبح رئيس أساقفة إفيسوس؛ وذلك لأن الكرسي الأسقفي كان تحت الاحتلال التركي، وكان كاتبًا بارزًا، كتب ثلاثة وستين خطابًا تتناول موضوعات أدبية وفلسفية إلى جانب الأعمال الأخرى، وعمل كذلك كناسخ للعديد من المخطوطات إلى جانب بعض الخطب والمرثيات.

ODB, 2 , pp. 811–12.

(٣) Laurent, Princesse Byzantine, p. 54.

(٤) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, pp. 238–9.

(٥) جريجوري أكيندينوس : لاهوتي معادي لبالماس وحركته الدينية، ولد من المحتمل سنة ١٣٠٠م، وتلقى تعليمه في سالونيك، وبعد ذلك عمل مدرسًا في برويا Berroia وتقابل مع بالماس، ولكنه عاد مرة أخرى إلى سالونيك وتقابل مع برلارم الذي لعب دورًا مصيريًا في حياته وأصبح صديقًا له، وجاء إلى القسطنطينية سنة ١٣٣٧م واشترك في النزاع البالمسي ودعم برلارم ضد بالماس، وأدين واتهم بالهرطقة في المجمع الكنسي الذي عقد في القسطنطينية في يوليو ١٣٤١م، ودخل تحت حماية الأميرة إيرين خومانوس.

Akindynos, G., Letters of Gregory Akindynos Ca. 1300 - Ca. 1349, (Letter to Lapithes), Trans. Hero, A.C., Washington 1983, pp. ix-xxiii; ODB, I, p. 45.

(٦) Letters of Gregory Akindynos, Letter to Lapithes, p. 247.

إلى جانب ثقافة إيرين خومانوس الأدبية ومراسلاتها مع مثقفي عصرها، كانت تعقد ندوات ولقاءات يومي السبت والأحد من كل أسبوع في ديرها كريست فيلانثروبينوس Christ Philanthropinos (المسيح محب البشرية) في القسطنطينية، يحضرها العديد من رجال الدين والمثقفين، وتتناقش معهم في الكثير من الأمور الثقافية والعامة للإمبراطورية البيزنطية[١].

كانت الإمبراطورة هيلينا كنتاكزينوس على درجة عالية من المعرفة والثقافة، وأظهرت اهتمامًا كبيرًا بالدراسات اليونانية القديمة، وراح ديمتريوس كيدونيس يمدحها قائلاً : "... أيتها المولعة بالعلم أنت تزرعين الفضيلة وتبذلين من أجل هذه الغاية كل طاقتك، أنت التي بقدر ما استطعت أحييت الدراسات التي كانت قد اندثرت ... وتفوقت على رجال أفنوا عمرهم في ذلك"[٢]. ورغم ما يشوب هذا الوصف من مبالغة إلا أنه يدل على مدى ثقافة الإمبراطورة هيلينا واهتمامها الشديد بالدراسات الهللينية.

فضلاً عن ذلك فقد تمتعت الإمبراطورة هيلينا بثقافة أدبية كبيرة وأسلوب أدبي راقٍ، بل وألفت أشعارًا ومديحًا لتمجيد انتصارات أبيها الإمبراطور يوحنا السادس كنتاكزينوس، ويشيد كيدونيس بهذه الأشعار التي تتميز بجمال الأسلوب وعذوبة الألفاظ، بل إنه من شدة إعجابه بموهبة الإمبراطورة الأدبية وكتاباتها دفعه ذلك إلى القول أن سوفوكليس Sophocles[٣] لم يجانبه الصواب عندما قال : إن الصمت هو الزينة الوحيدة للنساء، فممارسة هيلينا للأدب وإبداعها فيه دفع الرجال إلى الإقلاع عن النقد لصوت النساء، بل فضلوا الصوت الرنان لكلامهن عن الصمت التقليدي، ودفع كيدونيس إلى تشبيه هيلينا في الجمال بسميتها هيلينا الطروادية Helena of Troy، بل وتميزت عنها في رأي معلمها وصديقها بأنها امتلكت الجمال الأسمى والأبقى، وهو جمال الأسلوب الأدبي الذي يسمو بصاحبه، وليس الجمال المهلك لهيلينا الطروادية[٤].

---

(١) Trone, R. H., " A Constantinopolitan Double Monastery of The Fourteenth Century: The Philanthropic Saviour ", BS/EB 10 (1983), p. 86

(٢) Cydonés, Correspondance, Letter No. 222, p. 77.

- انظر الملحق الثالث.

(٣) سوفوكليس : شاعر يوناني مسرحي تراجيدي كبير، ولد في أثينا ويقال أنه كتب مائة وثلاثة وعشرين مسرحية، كان أشهرها مسرحية (أوديب ملكًا) وهي تعد نموذجًا للتراجيديا الإغريقية.

عبداللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ اليوناني، ص١٩٣-١٩٤.

(٤) Letters of Demetrios Kydones, Letter No. 389, p. 156.

كذلك اهتمت الإمبراطورة هيلينا بمواصلة دراسة الأدب والأعمال الكلاسيكية، فالخطاب الثاني الذي أرسله لها كيدونيس بعد أكثر من عشرين عامًا من خطابه الأول، كانت هيلينا لازالت تهتم بالدراسة والبحث، بل ربما كانت تؤلف أعمالاً في الأدب الكلاسيكي، ففي هذا الخطاب يمدحها كيدونيس على مواصلتها البحث والتعلم قائلاً : " لك أن تتخيلي كيف أكون سعيدًا عندما أراك مسرورة وناجحة في دراسة الأدب، وتفضلي من غير شك حياة التعلم عن أي شيء آخر "(١).

وربما دفع كيدونيس إلى كتابة هذا الخطاب رغبته في أن يكسب تعاطفها وتأييدها لاهتماماته اللاهوتية والكلاسيكية، فهو لم يرسل لها عملاً من أعماله الخاصة، وإنما أرسل لها ترجمة لأعمال القديس أوغسطين Augustine(٢). ومما يوضح اهتمام هيلينا المستمر بالعمل الأدبي خطاب آخر أرسله لها كيدونيس مرفق به خطبة طويلة للقديس لورانس Laurence والذي كانت الإمبراطورة هيلينا مهتمة بأعماله(٣).

إضافة إلى ذلك، فإن حوار الإمبراطورة هيلينا مع ابنها الإمبراطور مانويل الثاني يؤكد مدى ثقافة هذه الإمبراطورة، ويظهر تفوقها في التفكير والمعرفة، وبالتالي علو شأنها في المحاورة وقدرتها الفائقة على استخدام العبارات البلاغية والصيغ الاستعارية والتشبيهات، والأهم ثقافتها الواسعة وإلمامها بالأدب والفلسفة والتاريخ، فهي تقتبس من الكتاب المقدس وأشعار هوميروس(٤) ويوربيديس Euripides(٥) وتتحدث عن الإسكندر الأكبر وقيصر.

---

(١) Letters of Demetrios Kydones, Letter No. 25, p. 157.

(٢) القديس أوغسطين : رجل بحث وقديس، ولد سنة ٣٥٤م ومات سنة ٤٣٠م، وهو ابن لأم مسيحية وأب وثني، ومن أهم أعماله " الاعترافات " و" مدينة الله " واستحسنت تعاليمه المذهبية بواسطة المجالس الكنسية. وفي القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين أخذ مكسيموس بلانوديس وكيدونيس وغيرهم يقومون بدراسة أعماله وترجماتها.

ODB, I, pp. 232–233.

(٣) Letters of Demetrios Kydones, Letter No. 256, p. 159.

(٤) هوميروس : أعظم شعراء اليونان، يبدو أنه عاش في القرن الثامن قبل الميلاد، نشأ في جزيرة خيوس، ويرجع إليه الفضل في الارتقاء بالشعر الملحمي وتجديده من الجمود وإزالة مسحته البدائية والارتفاع بمستواه، فكأنه خلقه خلقًا جديدًا، وألف الملحمتين الشهيرتين الإلياذة والأوديسا.

عبداللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ اليوناني، ص٥٥-٧٥.

(٥) يوربيديس: آخر شعراء التراجيديا العظام باليونان، ولد سنة ٤٨٠ ق.م، وتميز بنزعة واضحة إلى =

ويعترف ابنها بتفوقها في التفكير عليه فيقول : " إذا كنت متحدثًا إلى أي شخص آخر لكان من السهل أن استمر، ولكن معك ــ وأنا على يقين من ذلك ــ فالأمر سيصبح بلا فائــدة وعــديم الجدوى إذا ذهبنا إلى أبعاد أعمق "(١)، بل ويعترف بغبائه أمام حكمة أمه وعجزه عن بلــوغ مستواها الفكري قائلاً : " مهما قلت أو فعلت أي شيء سيكون شيئًا مهلهلاً وغبيًا "(٢)، وفــي خطاب أرسله كيدونيس للإمبراطور مانويل الثاني يذكر له أنه مدان بتعليمه وثقافته بل وحسن تصرفه وحكمته لأمه الإمبراطورة هيلينا(٣).

نساء العرش وتشجيع رجال العلم والثقافة :

لم تكتف إمبراطورات وأميرات أسرة باليولوجوس بالبحث والتعلم، بل شجعن رجــال العلم والثقافة وقدمن لهم الدعم المادي والمعنوي لمواصلة بحثهم ونسخ أعمــالهم، وشــجعهن على ترجمة الأعمال اليونانية القديمة، ولم يبخلن عليهم بأي عون أو مساعدة وقت الحاجــة، وفي المقابل قدر هؤلاء الرجال هذه المساعدات وعبروا عنها بالكثير من المدح لهن، فالأميرة ثيودورا روليان أقامت ديرًا صغيرًا بجوار ديرها ودعت البطريرك جريجوري الثاني للإقامة فيه بعد أن تخلى عن منصبه ليتثنى له أن يحيا حياة هادئة، ويهب حياتــه للعلــم والدراســة، ودعمته ماديًا ومعنويًا، ووضعت مكتبتها تحت تصرفه، وكانت العزاء والسلوى له حتى أيامه الأخيرة(٤). ومدحها جريجوري الثاني معبرًا عن إغاثتها لكل ملهوف قائلاً : " إنها تعطي دومًا

= التجديد والابتكار والثوره على القديم، وكان شاعرًا واقعيًا يميل إلى تحليل الأخلاق الفردية ولا يميل إلى تصوير الشخصيات الأسطورية والخرافية، وقيل أنــه كتب مائة مسرحية من أشهرها هرقــل مجنونًا والطرواديات.

لمزيد من التفاصيل انظر :

عبداللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ اليوناني، ص١٩٥-١٩٦؛ حسين أحمد حسين، يوربيديس دراسة فــي الفكر الاجتماعي (أثينه في القرن الخامس ق.م) [رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة الإسكندرية ١٩٧٩م].

(١) Manuel II Palaeologus, Dialogue with The Empress Mother, p. 67.

(٢) Manuel II Palaeologus, Dialogue with the Empress, p. 77.

- انظر الملحق الأول.

(٣) Cydones, Correspondance, Letter No. 398, pp. 352–3.

(٤) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 155. See Also: Talbot, Building Activity, in Constantinople, p. 334. Kugeas, Geschichte der Münchener, pp. 593–4; Fassoulakis, Byzantine Family, p. 27.

كل من يأتي طلبًا لعونها، لأنها إنسانة رحيمة تشعر بكل محتاج ولا ترد أي شخص، وهي الملجأ لكل من يصيبه كرب من الكروب "[١].

والأميرة إيرين خومانوس تبعث إلى أستاذها الثاني تعرض عليه مساعدتها وتتعجب من أنه ترك أعماله وترجماته كمسودات ولم يقم بنشرها، وكذلك لم يقم أي من أصدقائه بذلك، وتتعهد له بأنها سوف تقوم بذلك قائلة : "لن أتوقف عن النشر حتى أضيء مشعل كتاباتك"[٢]، وترسل له بصفة دائمة الأوراق اللازمة لنسخ أعماله، وفي مرات عديدة ترسل له مستفسرة عما ينقصه من احتياجات مادية لتبعثها إليه قائلة : " من فضلك دعني أعرف ما تحتاج إليه وسوف أزودك به كأفضل ما يكون "[٣]، ونتيجة لذلك راح أستاذها يعترف بشدة كرمها معه، ذلك الكرم الذي لم يترك له شيئًا ليحتاج إليه، فهي تقدم له كل احتياجاته " كما لو كان إلزامًا أو فرضًا "[٤]، وعبر أستاذها عن ذلك بقوله : " كرمك واضح بدرجة كبيرة ... ويتدفق باستمرار وقوة متزايدة، مثل المياه الجارية نحو سفح التل ولا يوجد ما يوقفها "[٥].

كذلك كانت إيلوجيا – أخت الإمبراطور ميخائيل الثامن وأم الأميرة ثيودورا روليان – على علاقة طيبة بالبطريرك جريجوري الثاني ومدعمة قوية له، وحزن بشدة على موتها قائلاً: " مع رحيلها رحلت أعظم فاعلة خير له "[٦].

أما الإمبراطورة هيلينا وعلاقتها مع ديمتريوس كيدونيس وما قدمته له من عون ومساعدة وأموال، بل والتدخل لدى الإمبراطور من أجل العفو عنه، كانت كثيرة، وعبر عنها مرات عديدة في خطاباته لها. ففي أحد الخطابات يصف الإمبراطورة كنصيرته الشخصية التي يدين لها بكل ما يملك، وبأنها حليفته ومدعمته في البلاط الإمبراطوري، ويذكر أن كثيرًا من أمواله وأيضًا مكانته في البلاط بسبب كرمها وإحسانها نحوه[٧].

---

(١) Gregory of Cyprus, Letters, p. 116.

(٢) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 3, p. 31.
- انظر الملحق الثاني.

(٣) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 7, p. 43.
- انظر الملحق الثاني.

(٤) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 8, p. 47.
- انظر الملحق الثاني.

(٥) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 10, p. 57.
- انظر الملحق الثاني.

(٦) Laurent, V., " Notes de Chronologie et D'Histoire Byzantine de La Fin Du XIII^{e} Siécle ", REB, xxvii (1969), pp. 211–212.

(٧) Letters of Demetrios kydones, Letter No. 134; p. 160.

وعندما ذهب كيدونيس إلى جزيرة لسبوس بعد شكوك الإمبراطور فيه أرسل للإمبراطورة هيلينا يوضح موقفه لها ويطلب إرشاداتها، ويتعهد بأنه سوف يعتبر نصيحتها " كما لو كانت وحيًا " ورجاها أن تتدخل له عند الإمبراطور ليكون أكثر مرونة معه ويعفو عنه، ووصف الإمبراطورة بأنها دائمًا " كانت الملجأ الآمن له وقت الشدة "[١]. وقد أجزلت الإمبراطورة له الكثير من العطاء والمنح، فراح يمدحها على كرمها الذي لم يخفف فقط من فقره، ولكن بدله إلى ثراء، بحيث لم يعد ثمة ما ينقصه ليطلبه منها، ويصف حبها له الذي أضاف له العزة والكرامة، ويسرد الكثير من أعمال العطف والمودة من ناحيتها من خلال صداقتهما الطويلة، وعبر عن ذلك بقوله : " هكذا وهبك الله لي، وجعل منك ترياقًا لكل آلامي: نقص المال، الأمراض والمتاعب، الإحباط، جميع الظروف التي كنت فيها محتاجًا للإنقاذ وللمساعدة، ترياق عظيم الفائدة والفاعلية ... "[٢].

الإمبراطورات والأميرات ونسخ المخطوطات وجمع الكتب :

من الجدير بالملاحظة أن دور نساء الأسرة الإمبراطورية لم يكن قاصرًا على الاهتمام بالتعليم والثقافة ومساندة رجال العلم، بل شاركن كذلك في حركة نسخ المخطوطات اليونانية القديمة وجمع الكتب، في شيء أشبه بالمكتبات داخل أديرتهن، فالإمبراطورة ثيودورا اهتمت بتشجيع الثقافة وكلفت بإنتاج وتزيين المخطوطات، ففي سنة ١٢٦٥-١٢٦٦م فوضت الراهب أرسينيوس أن يترجم إلى اليونانية عملاً في علم الهندسة للفيلسوف الفارسي الزناتي Al-Zanati[٣]. وفي مرثية ثيودور ميتوخيتس للإمبراطورة راح يمدحها لإقامتها الأديرة والكنائس وقيامها " بالتزيين الرائع للكتاب المقدس والكتب والأواني والكؤوس الخالصة في نقائها "[٤].

كذلك ربما كلفت الإمبراطورة ثيودورا آخرين بنسخ العديد من المخطوطات الخاصة بالكتاب المقدس والمتعلقة بالطقوس الدينية، فقد درس عدد من الباحثين مجموعة تتألف من خمسين كتابًا مزخرفة ومزينة بالرسوم، ونسبوها إلى أسرة باليولوجوس، على أساس التوقيع الذي وجوده على المخطوطات " باليولوجينا " وتشتمل هذه المجموعة على الكثير من الكتب الدينية وكتب المزامير وأعمال الرسل وسير القديسين التي استخدمت في الكنائس والأديرة،

---

(١) Letters of Demetrios kydones, Letter No. 134, pp. 160–161.

(٢) Cydonés, Correspondance, Letter No. 222, p. 70.

– انظر الملحق الثالث.

(٣) Talbot, Empress Theodora, p. 301.

(٤) نقلاً عن :

Talbot, Empress Theodora, p. 301.

وإن كان بعض الباحثين اقترحوا أن المرأة المرشحة لهذا التوقيع هي الأميرة ثيودورا روليان التي ماتت سنة ١٣٠٠م وعرفت بأنها محبة للكتب ولجمعها، وهذا يناسب الإطار الزمني للوقت المتأخر من القرن الثالث عشر، والذي حدده الباحثون لهذه المجموعة(١)، إلا أن فريقًا آخر يرى أن الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس هي التي أمرت بنسخ هذه المخطوطات وأنها صاحبة التوقيع، خاصة لكونها إمبراطورة وزوجة الإمبراطور الأول لأسرة باليولوجوس وخول لها كذلك استخدام التوقيع باسم " باليولوجينا "، كما كانت تمتلك ثروة كبيرة تحت تصرفها ساعدتها في عمل ذلك، وفي رثاء ميتوخيتس لها أشاد بأفضالها ورعايتها لنسخ مخطوطات تستخدم في الأديرة، وكانت معاصرة للأميرة ثيودورا روليان، ولأن تاريخ وفاتها سنة ١٣٠٣م يشهد على ذلك، كما أن تأسيسها لدير ليبس يتفق مع هذه التواريخ (١٢٨٥-١٣٠٣م) التي وضعها الباحثون لهذه المجموعة من المخطوطات، علاوة على ذلك فإن هناك تشابهًا في الحروف الداخلية والخطوط المزينة لمخطوطات هذه المجموعة في الشكل مع تيكون دير ليبس للإمبراطورة ثيودورا، لذا فإن الإمبراطورة ثيودورا هي أفضل مرشحة لعمل هذه المخطوطات(٢).

على أي حال، سواء نسبت هذه المخطوطات للإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس أو للأميرة ثيودورا روليان فإن هذا يدل على اهتمام النساء الإمبراطوريات في عصر باليولوجوس بحركة نسخ وتزيين المخطوطات.

كذلك شجعت أنّا نوتاراس Anna Notaras(٣) حركة النشر للثقافة والآداب اليونانية في إيطاليا، والتي رحل إليها العديد من البيزنطيين بعد سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين سنة

---

(١) Talbot, Empress Theodora, p. 301.

(٢) Nelson, R. S. and Lowden, J., " The Palaeologina Group : Additional Manuscripts and New Questions ", DOP 45 (1991), pp. 105–6.

(٣) أنّا نوتاراس : هي الناطقة بلسان الجماعة البيزنطية في إيطاليا، وهي ابنة رجل الدولة البارز لوكاس نوتاراس Loukas Notaras، ولدت وترعرعت في أسرة ثرية في القسطنطينية عندما كانت الإمبراطورية في غروبها الأخير، أرسلها والدها إلى إيطاليا مع ثروته قبل سقوط القسطنطينية، وقضت معظم حياتها هناك، وكان هدفها جمع شتات البيزنطيين في مستوطنة خاصة بهم، وإقامة كنيسة لهم لممارسة شعائرهم الدينية دون تدخل، والحفاظ على عقيدتهم ولغتهم وثقافتهم من الذوبان في الثقافات الأخرى، وبذلت مجهودات كبيرة مع الحكومة الإيطالية لتحقيق هذا الحلم.

لمزيد من التفاصيل :

Cecchini, G., "Anna Notara Paleologa una principessa Greca in Italia E La Politica Senese Di Ripopolamento Della Maremma " BSSP IX (1938), pp. 1–41; Nicol, Byzantine Lady, p. 69; Byzantium and Venice, pp. 414–17; Geanakoplos, D. J., Byzantine East and Latin West : Tow Worlds of Christendom in Middle Ages and Renaissance, New york 1984, pp. 117–120, Greek Scholars in Venice, Studies in The Dissemination of Greek Learning From Byzantium to Western Europe, Cambridge, Mass 1692, p. 62.

١٤٥٣م وأحضروا معهم مخطوطات للأعمال اليونانية القديمة، حيث أدركوا أن هناك سوقًا رائجة لمثل هذه الكنوز أسهمت أنًا إسهامًا كبيرًا في تمويل وشراء ونسخ الكثير من المخطوطات[١].

من هذا كله يتضح لنا اهتمام إمبراطورات وأميرات عصر باليولوجوس بحركة نسخ وتزيين المخطوطات القديمة، بل وأوقفن جماعة من الناسخين والفنانين في أديرتهن لذلك، وهذا دفعهن إلى اقتناء الكثير من الكتب وعمل مكتبات خاصة في أديرتهن، فقد حملت ثيودورا روليان المحبة للكتب معها مكتبتها الخاصة لدير القديس أندرو بالقسطنطينية الذي أسسته وتلقت فيه النذر الديرية، ويشير جريجوري الثاني في أحد خطاباته لها إلى أن مكتبتها كانت أضخم من مكتبته[٢]. وقد احتوت مكتبة ثيودورا على المخطوطين اللذين نسختهما الأميرة بيديها، والتي سبق ذكرهما[٣]، وضمت كذلك سيرة القديسين التي قامت ثيودورا بتأليفها واحتوت على عدد كبير من الإشارات والاقتباسات الكلاسيكية للعديد من الكتّاب والشعراء القدامى، فقد استشهدت ثيودورا بالإلياذة أكثر من مرة، وبالشاعر هوميروس وكذلك هيسيوديس Hesiodus[٤] وأيسخلوس Aeschylus[٥] ويوربيديس، وأفلاطون Plato[٦] وغيرهم مما يدل على أن مكتبتها قد احتوت على أعمال هؤلاء الأشخاص[٧].

---

(١) Nicol, Byzantine Lady, pp. 105–6.

(٢) Gregory of Cyprus, Letters, p. 451.

(٣) انظر ما سبق ص ٨٩-٩٠.

(٤) هيسيوديس : أكبر شاعر يوناني ظهر بعد هوميروس وحظي بشهرة عظيمة، وكان أبوه أحد مواطني آسيا الصغرى ثم رحل إلى بلاد اليونان، وكان هيسيوديس رائد الشعر التعليمي التهذيبي، ومن أهم أعماله قصيدة الأعمال والأيام وهي عمل تهذيبي أخلاقي، وكذلك قصيدة أنساب الآلهة والمثيلات.
عبداللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ اليوناني، ص١٠٦-١١٦.

(٥) أيسخلوس : شاعر أثيني عاش في الفترة الممتدة من (٥٢٥-٤٥٦ ق.م)، وهو أول من وصل بالمسرحية التراجيدية اليونانية إلى مرحلة النضج، فهو يعتبر بحق صاحب الفضل الأول في تطويرها وجعلها فنًا أدبيًا، وقيل أنه كتب تسعين مسرحية، من أهمها الفرس، أجاممنون، حاملات القرابين.
عبداللطيف أحمد علي، مصادر التاريخ اليوناني، ص١٨١-١٨٢، ١٩٢-١٩٣.

(٦) أفلاطون (٤٢٨-٤٣٧ ق.م) : أعظم فيلسوف في العصور القديمة، ولد في أثينا لأسرة أرستقراطية عريقة، وكرس حياته للدرس والتعلم وكان من تلاميذ سقراط، وأهم مؤلفاته كتاب الجمهورية، وأسس مدرسة أطلق عليها " الأكاديمية " تخرج فيها الكثير من الفلاسفة، مثل أرسطو.
جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، ص٧١-٧٦.

(٧) Talbot, A-M., " Bluestocking Nuns; Intellectual Life in the Convents of Late Byzantium ", in : women and Religious Life in Byzantiun, Ashgate 2001, p. 611; Fryde, Palaeologan Renaissance, p. 181.

وأيضًا احتوت مكتبة ثيودورا على مخطوط يرجع للقرن الثاني عشر الميلادي يتضمن شرح وتعليق ثيوفلاكت الأوخريدي Theophylact of Ochrida ــ رئيس أساقفة بلغاريا المثقف ــ على الأناجيل الأربعة، وقد أهدت ثيودورا هذا المخطوط لدير القديس أثناسيوس على جبل أثوس[١].

كذلك تمدنا مراسلات إيرين خومانوس مع أستاذها الثاني بمعلومات عن مكتبة راهبة مثقفة، ففي خطاب منه يطلب من الأميرة قائمة بالكتب التي تمتلكها حتى يعرف ما ينقصه ويستعيره منها: " أنا أعتقد أن لديك مخزنًا به عدد كبير من الكتب الدينية والدنيوية المكدسة بسبب المعرفة الواسعة لوالدك وحبك للتعلم، أنا ينقصني كلاً منها وشغوفًا بها جميعها، لذا أطمع في كرمك أن تمديني بها، أعدى قائمة لهذه الكتب وأرسليها إلي لأختار ما أعتبره أكثر ضرورة وأطلبه منك "[٢]. كما طلب منها أيضًا أن ترسل له كتاب الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم والتي احتوت عليه مكتبة ديرها[٣].

وفي خطاب آخر طلب منها كتابات أستاذها ومعلمها الروحي الأول ثولبتوس رئيس أساقفة فيلادلفيا، خاصة إحدى خطبه، وأيضًا كتابات أبيها ــ نقفور خومانوس ــ والذي أكد لها على إعجابه بها لما تتضمنه من أفكار ولغة جميلة وأسلوب جذاب، وفي المقابل طلبت إيرين من أستاذها الثاني بعض كتاباته، ومنها عمله عن البطريرك أثناسيوس، وخطبته في الدفاع عن التعليم الهلليني وأشعار له، وقد أرسلها إليها وأمرت بنسخها ووضعت في مكتبتها[٤].

كذلك امتلك دير نيلوس دماليس النسائي مكتبة ضخمة احتوت على أكثر من واحد وأربعين كتابًا تتضمن الأناجيل وكتب النبوءات والأعمال النسكية واللاهوتية والعقائدية للعديد من اللاهوتين والمفكرين إلى جانب القواميس وسير القديسين والقديسات وكتب صلوات

---

(١) Nicol, Byzantine Lady, p. 46; Talbot, Bluestocking Nuns, p. 611; Fassoulakis, Byzantine Family, p. 26.

(٢) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 10, p. 59.
- انظر الملحق الثاني.

(٣) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 10, p. 59.
- انظر الملحق الثاني.

(٤) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 2, 4, 7, 12, pp. 29, 33, 41, 43.

للأعياد، وأخرى خاصة بخدمات العشاء الرباني[١].

وقد اهتم نيلوس دماليس بمكتبة ديره اهتمامًا كبيرًا، وأمر الراهبات بعدم إعارة الكتب إلى خارج الدير خوفًا عليها من التلف أو الضياع، وحث الراهبات على عدم توريث كتبهن الشخصية لأصدقائهن ولأقربائهن بعد موتهن وإيداعها في مكتبة الدير[٢].

كذلك احتوت مكتبات الأديرة النسائية لعصر باليولوجوس على اللوائح الخاصة بهذه الأديرة، فالإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس أمرت أن تقرأ لائحة دير ليبس أثناء تناول الراهبات العشاء ثلاثة مرات في العام[٣]. أما الأميرة ثيودورا سينادينى فقد فرضت على راهبات ديرها قراءة لائحة الدير بداية كل شهر[٤].

خلاصة القول أن إمبراطورات وأميرات أسرة باليولوجوس قد أظهرن اهتمامًا كبيرًا بالقراءة والاطلاع ومن هنا احتوت أديرتهن على مكتبات اشتملت على أعمال غير دينية مثل مؤلفات الكلاسيكيين، والتي كانت مملوكة بواسطة هؤلاء السيدات الإمبراطوريات اللاتي أسسن وعشن في هذه الأديرة، وأخرى دينية مثل كتب الطقوس وأعمال البطاركة وسير القديسين وغيرها.

على أي حال، إذا كانت إمبراطورات وأميرات عصر باليولوجوس حققن درجة عالية من التعليم والثقافة، فإن هناك أيضًا العديد من النساء داخل الأديرة تمتعن بقدر معتدل من الثقافة، خاصة الثقافة الدينية، فقد حث رئيس أساقفة فيلادلفيا إيرين خومانوس على الإشراف على تنشئة وتعليم الراهبات الصغيرات ومتابعتهن باستمرار، وكان يعهد للراهبات الأقدم في الدير بتعليم الراهبات الجدد، وفرض على رئيسة الدير الإشراف على تعليم هؤلاء الفتيات قائلاً لها : " افحصي وراقبي بحرص ــ هذه الفتاة ــ ما إذا كانت تتقدم على نحو جيد، خشية أن يولد الانفصال الكامل عنك رغبات غير سليمة وعادات خاطئة "[٥].

وفي الحقيقة كانت القراءة والكتابة شرطًا أساسيًا لاختيار الراهبات المنشدات واللائي

---

(١) Neilos Damilas, pp. 1478–9.

(٢) Neilos Damilas, p. 1477.

(٣) Lips, p. 1270.

(٤) Bebaia Elpis, pp. 1541–2.

(٥) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 2, p. 61.

كان عملهن الأساسي إنشاد الترانيم وإقامة الطقوس(١)، وأولئك اللاتي كن يستطعن القراءة كان من المتوقع أن يشاركن في تأدية الطقس " لينشدن بالقلب والفم " ولكن إذا كن يجهلن القــراءة تمامًا يؤدين الصلوات(٢). كذلك حثت الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس الراهبات على القراءة بصوت مرتفع للكتاب المقدس والأعمال التهذيبية كوسائل للتوجيه والتهذيب والتثقيــف أثنــاء تناول الواجبــات، والقــراءة بانتبــاه لــسير القديــسات، وتــضيف الإمبراطــورة قائلــة : " إنه مثلما يزود جسدنا بالطعام فإن سماع الكتب المقدسة يغذي أرواحنا"(٣).

كذلك شددت الأميرة ثيودورا سينادينى على الراهبات المتعلمــات أن يقــضين أوقــات فراغهن في القراءة داخل حجراتهن، واللاتي لا يستطعن القراءة يقضين أوقات فراغهن فــي الصلاة(٤)، وأكد نيلوس دماليس في لائحة ديره على أهمية قراءة الكتب المقدسة وأعمال آبــاء الكنيسة، وعلى القراءة بصوت عال كل ليلة، وأعطى الأسبقية لقراءة المزامير، وأمر كــذلك الراهبات المتعلمات بتعليم أخواتهن كيفية القراءة(٥).

وهناك أيضًا أمثلة لنساء مثقفات في المجتمع البيزنطي في عصر باليولوجوس، ذلك مثل الراهبة ثومايس Thomais(٦) رئيسة أحد الأديرة النسائية في القسطنطينية في فترة متــأخرة من القرن الرابع عشر، والتي كانت على درجة عالية من التعليم والثقافة لدرجة أن معرفتهــا بالكتاب المقدس وسير القديسين وصلت للإمبراطور مانويل الثاني والبطريرك وكــل ســكان العاصمة، وخصص لها الإمبراطور ديرًا أكبر ومنح لها البطريرك النفوذ والسلطة لتــشرف على الإرشاد الروحي للنساء اللائي يأتين إليها(٧).

---

(١) Bebaia Elips, pp. 1539–40.

(٢) Bebaia Elpis, pp. 1540–41.

(٣) Lips, 1542.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1542.

(٥) Neilos Damilas, p. 1475.

(٦) الراهبة ثومايس : فتاة يتيمة جاءت إلى سالونيك وتولت رعايتها السيدة النبيلة أم نيقــولاس كابــسلاس ــ الباحث والشاعر المتميز ــ وتلقت تعليمها المبكر على يد هذه المرأة التي كانت سيدة علــى درجــة عالية من الثقافة، وقبل موتها تركت ثروتها لثومايس التي رحلت إلى القسطنطينية بعــد ذلــك وأخــذت شهرتها تذيع بين الناس.

Sphrantzes, Fall of the Byzantine Empire, pp. 37–9.

(٧) Sphrantzes, Fall of the Byzantine Empire, pp. 37–8.

الفصل الثالث

الدور الاقتصادي والاجتماعي للإمبراطورات والأميرات

النشاط الاقتصادي :

لم تقدم المصادر معلومات وفيرة عن دور الإمبراطورات والأميرات في النشاط الاقتصادي للإمبراطورية البيزنطية في عصر أسرة باليولوجوس، ولكن قدمت معلومات عن الذمة المالية لهؤلاء النساء، وما امتلكنه من ممتلكات وكيفية إداراتها.

ذلك أن هؤلاء النساء بحكم اتصالهن بالأباطرة، سواء كن زوجاتهن أو أخواتهن أو بناتهن أو حفيداتهن، قد حصلن على الكثير من الأراضي والممتلكات، سواء عن طريق الإرث أو المنح الإمبراطورية، ومثال ذلك ما امتلكته الأميرة آنا باليولوجوس، ابنة الإمبراطور ميخائيل التاسع من ثروات طائلة عن طريق الإرث، فقد حكم أبوها كإمبراطور مشارك مع أبيه الإمبراطور أندرونيقوس الثاني، وخصصت له منح وأموال كبيرة من أجل معيشته مثل أبيه، والتي نقلت إلى ابنته بعد وفاته وأصبحت تحت تصرفها[1].

على أي حال، فقد امتلك هؤلاء النسوة الكثير من الممتلكات والأموال، ومما يدل على ذلك ما قمن به من إنشاء الأديرة والكنائس الضخمة دون غيرهن، إذ كانت هذه الأملاك تدر عليهن الكثير من الأموال التي قمن باستغلالها في إنشاء مثل هذه المؤسسات والإنفاق عليها، بل وأوقفن عليها الممتلكات من أجل صيانة هذه المنشآت الاجتماعية والحفاظ عليها، ولضمان أدائها وظيفتها في حياتهن وبعد موتهن، وأفضل مثال على ذلك الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس والأميرة ثيودورا سيناديني وكذلك الأميرة إيرين خومانوس والأميرة ثيودورا روليان وغيرهن.

ولوائح الأديرة النسائية تقدم مادة وفيرة عن أملاك إمبراطورات وأميرات هذه الفترة، فالإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس تسرد هذه الممتلكات في لائحة دير ليبس، والتي توضح أن هناك ثروة ضخمة كانت تحت تصرف هذه الإمبراطورة، التي كانت الطفلة الوحيدة لزوجين أرستقراطيين[2]، وإمبراطورة عظيمة وزوجة إمبراطور عظيم، وهو الإمبراطور ميخائيل الثامن مؤسس أسرة باليولوجوس، ودونت الإمبراطورة ثيودورا أملاكها في لائحة دير ليبس، والتي كان بعضها أملاك موروثة من أسلافها، والبعض الآخر منحها لها ابنها الإمبراطور أندرونيقوس الثاني، أو قامت الإمبراطورة بشرائها، فقد امتلكت الإمبراطورة

---

(١) Kyritses, Byzantine Aristocracy, p. 180.

(٢) عن أصل الإمبراطورة ثيودورا انظر ما سبق ص٢-٣.

أراضي في منطقة برجامون Pergamon[١] تقدر بـ ٣٥٠ قطعة ذهبية، وأخرى تقدر بـ ٣٠٠ قطعة ذهبية، إلى جانب طاحونة ومزرعة قامت الإمبراطورة بشرائها وإضافتها إلى ممتلكاتها السابقة، وفي المنطقة المجاورة لهذه الممتلكات امتلكت الإمبراطورة حظيرة للماشية وأراضي خاصة بها ومزرعة للعنب مساحتها ٣٢ موديوي Modioi[٢]، وحديقة مساحتها ٢٠ موديوي وحديقة أخرى أصغر مساحتها ١٠ موديوي، وكذلك أراضي زراعية مساحتها ٣٩٠ موديوي وطاحونة ومزارع مساحتها ١٤٠ موديوي، إلى جانب حدائق ملحقة بهذا الجزء تقدر مساحتها بـ ١٥٠ موديوي، وأراضي زراعية أخرى مساحتها ٣٥٠ موديوي و١٤ منزلاً للإيجار إلى جانب قرية في منطقة مقدونيا، بالإضافة إلى ممتلكات أخرى للإمبراطورة في منطقة لوباديون Lopadion[٣]، منها مزرعة للعنب تقدر مساحتها بـ ٣٠٠ موديوي وأراضي زراعية مساحتها ٨٦٠ موديوي وطاحونتان[٤]. أما أملاك الإمبراطورة ثيودورا في القسطنطينية وضواحيها فكانت عديدة ومتنوعة، إذ امتلكت أراضي زراعية تقدر بـ ٢٠٠٠ موديوي قرب العاصمة، وقرية مجاورة لها يقدر ريع أراضيها بـ ٢٦٠ نوميزماتا Nomismata[٥]، وطاحونتين يقدر ريعهما بـ ٣٢ نوميزماتا[٦].

---

(١) برجامون : مدينة تقع في الشمال الغربي من آسيا الصغرى غرب مدينة أدرامتيون Adramyttion على شاطئ بحر إيجه الأسيوي في مواجهة جزيرة لسبوس ومنها تتفرع الطرق إلى كل من أدرامتيون وترواد Troad وكزيكوس وإلى منطقة بحر مرمرة، وكانت مركزًا ثقافيًا هامًا في القرن الرابع عشر الميلادي، هاجمها العرب سنة ٦٦٣م وسنة ٧١٦م، وبعد أن هاجمها الأتراك في القرن الثاني عشر الميلادي أعاد الإمبراطور مانويل الأول كومنين Manual I Komnene (١١٤٣-١١٨٠م) بناءها وتعميرها ولكنها سقطت في يد الأتراك سنة ١٣٠٢م.

Ramsay W. N., The Historical Geography of Asia Minor, Amsterdam 1962, p. 130, pp. 166–7; ODB, 3, p. 1628.

(٢) الموديوي: وحدة قياس لكل من الحبوب والأرض تترواح قيمتها بين ٨٨٨,٧٣م^2 و ١٢٧٩م^2.

ODB, 2, p. 1388.

(٣) لوباديون: حصن يقع شمال غرب آسيا الصغرى على شاطئ نهر الرايندكوس Rhyndakos على بعد حوالي ٢٠كم جنوب بحر مرمرة، كان مسرحًا للقتال بين الإمبراطور ألكسيوس كومنين والأتراك، وأصبح قاعدة لحملات الإمبراطور يوحنا الثاني John II في آسيا الصغرى، ولكن استولى عليه اللاتين سنة ١٢٠٤م، وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي كان منطقة حدودية ضد العثمانيين، وأصبح منطقة تجارية ثرية استولى عليها السلطان العثماني أورخان سنة ١٣٣٥م.

Ramsay, Historical Geography, p. 160; ODB, 2, p. 1250.

(٤) Lips, p. 1279.

(٥) نوميزماتا: عملة ذهبية تساوي الواحدة أربعة وعشرين قيراطًا، وشكلت قاعدة أساسية في النظام البيزنطي.

ODB, 3, p. 1690.

(٦) Lips, pp. 1279–80.

كذلك توضح لائحة دير انارجيروي المزيد من ممتلكات الإمبراطورة ثيودورا والتي خصصتها للإنفاق على هذا الدير وصيانة مبانيه، وتشمل ممتلكات عديدة في تراقيا والقسطنطينية وضواحيها، وتتضمن أراضي زراعية داخل القسطنطينية مساحتها ٦٤٠ موديوي ومزرعة مساحتها ٦٥ موديوي، وأراضي زراعية خارج العاصمة مساحتها ١٠٠٠ موديوي وأخرى في خلقدونية مساحتها ٤٥٢ موديوي، إلى جانب مزرعتين وحقلين في جالاتا أحدهما مساحته ٣٠ موديوي والآخر مساحته ١٠ موديوي، وقطعة أرض زراعية أخرى مساحتها ٢٥٠ موديوي و ٢٤٠ شجرة زيتون(١).

وأيضا تقدم لائحة دير بيباالبيس للأميرة ثيودورا سينادينى العديد من المعلومات عن أملاك هذه الأميرة والتي قدمت نصفها للدير والنصف الآخر خصصته لنفقتها هي وابنتها، وكانت تتركز هذه الأملاك بصفة خاصة في القسطنطينية وتراقيا، وهي عبارة عن أراضي زراعية وقرى ومزارع كروم وحدائق(٢).

أما الإمبراطورة إيرين مونتفرات فقد امتلكت ثروات هائلة، والتي منحها لها زوجها الإمبراطور أندرونيقوس الثاني لتهدئة غضبها بعد أن غادرت القسطنطينية ورحلت إلى سالونيك، فقد أصدر الإمبراطور مرسومًا إمبراطوريًا حوالي سنة ١٣٠٥م يمنح فيه الأراضي الواسعة للإمبراطورة في مقدونيا ، ويؤكد على إعفاء هذه الأراضي من أي ضرائب أو التزامات حكومية، ليس هذا فحسب بل تمت صياغة بنود الهبة في المرسوم ليس على شكل منحة إمبراطورية وإنما صياغتها وكأنها بيع للإمبراطورة، ولها حق التصرف في هذه الأراضي كيفما تشاء، الأمر الذي يدل على مدى محاولة الإمبراطور لاسترضاء زوجته وكرمه وسخائه معها ومدى سيطرة الإمبراطورة على أراضي الإمبراطورية(٣).

ومما يؤكد ثراء الإمبراطورة إيرين مونتفرات ما قدمته لصهرها الملك الصربي ستيفن ميلوتين من أموال وهدايا والتي كانت فيما يبدو ريع أملاكها الضخمة، فيذكر المؤرخ جريجوراس إلى جانب أموالها وعطاياها لزوج ابنتها أنها قدمت له تاجًا مرصعًا بالأحجار الكريمة واللآلئ الملونة يساوي في قيمته تاج الإمبراطور ووضعته على رأسه، فضلاً عن الأردية الثمينة والمزركشة والمزينة بالجواهر، إلى جانب العطايا الأخرى التي كانت تزيد في

---

(١) Anargyroi, pp. 1291–2.

(٢) Bebaia Elpis, pp. 1556–7.

(٣) Constantinidi - Bibikou, Yolande de Montferrat, pp. 434–5.

كل عام عن الآخر(١).

كما أن الأميرة إيرين خومانوس ابنة رجل الدولة الثري نقفور خومانوس وزوجة الديسبوت يوحنا ابن الإمبراطور أندرونيقوس الثاني قد ورثت ممتلكات واسعة في القسطنطينية ومقدونيا، ومما يدل على ثراء الأميرة ما أنفقته من أموال في بناء ديرها النسائي حتى أصبح أضخم وأفخم دير في العاصمة(٢).

بل وكانت الأميرة إيرين حريصة على إنماء وازدهار أملاكها، وظلت تديرها حتى بعد أن دخلت الدير، ومن هنا ينصحها أستاذها الروحي ثولبتوس بأن تبيع هذه الممتلكات وتتفرغ للعمل الديري(٣). في حين ينصحها أستاذها الروحي الثاني بأن تعهد لأحد الأشخاص بإدارة ممتلكاتها الواسعة لتخفف العناء عنها(٤)، إلا أن الأميرة إيرين خومانوس ظلت محتفظة بأملاكها حتى قبل وفاتها بقليل، حيث تبرعت بقرية تدعى ثولوس Tholos في مقدونيا سنة ١٣٥٥م لدير برودروموس Prodromes(٥).

أما الإمبراطورة ثيودورا كنتاكزينوس أم الإمبراطور يوحنا كنتاكزينوس، والتي كانت متصلة بأسرة باليولوجوس من ناحية الأم، إذ كانت جدتها لأمها أخت الإمبراطور ميخائيل الثامن، فقد امتلكت العديد من الممتلكات والتي كانت في صورة منح إمبراطورية لوالديها وأجدادها، وتركزت هذه الممتلكات بصفة خاصة في منطقة مقدونيا، وذكر المؤرخ جريجوراس أنه من الصعب إحصاء هذه الأملاك، حتى من قبل المتولين حراستها؛ لكثرتها وتعددها، والتي اشتملت على أراضٍ زراعية واسعة ومزارع كبيرة وأموال طائلة وكميات ضخمة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة، إلى جانب آلاف من رءوس الماشية والأبقار

---

(١) Gregoras, Rhmäische Geschichte, I, pp. 188–9.

(٢) Talbot, Building Activity in Constantinople, pp. 334–40; Nicol, Byzantine Lady, p. 64; Laurent Direction Spirituelle, p. 83; Koubena, A Survey of Aristocratic Women Founders of Monasteries, pp. 30–1.

(٣) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 3, pp. 5–6.

(٤) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 3, p. 71.

(٥) دير برودروموس، أحد الأديرة المخصصة للقديس يوحنا المعمدان John The Baptist
Guillou, A., Les Archives de Saint Jean – Prodrome sur le mont ménécée, Paris 1955, pp. 142–3; Laiou, A.E., " Observations on the Life and Ideology of Byzantine women " in : Gender, Society and Economic Life in Byzantium, London 1992, p. 98; Nicol, Byzantine Lady.
ODB, I, p. 1068.

والخنازير، وما لا يعد ولا يحصى من الحبوب والشعير والقمح إلى جانب أشجار الفاكهة[١].

ومما يدل على ضخامة أموال الإمبراطورة ثيودورا ما قامت به من تمويل القوات العسكرية للأمير أندرونيقوس الثالث في صراعه ضد جده الإمبراطور أندرونيقوس الثاني سنة ١٣٢١م، فعندما اندلعت الحرب بين الجد والحفيد وعجز الأمير أندرونيقوس عن دفع الأجور لجنوده قامت الإمبراطورة بتقديم الأموال له، والتي ساعدته على تمويل عملياته العسكرية ومواصلة القتال الذي انتهى بالفوز على جده الإمبراطور وتولى السلطة الإمبراطورية[٢]. وكذلك ما قدمته الإمبراطورة ثيودورا من منح ومساعدة لدير كوتلوموس Kutlumus[٣] والمذكورة في وثيقة هبة للدير، والتي سردت فيها الإمبراطورة بعض ممتلكاتها، وكانت عبارة عن ضياع وأراض واسعة في منطقة سيريس Serres[٤]، إلى جانب حدائق ومزارع عنب ومنازل ومحلات تجارية، وأيضًا مائة رأس من الماشية، ورغم ضخامة هذه المنحة إلا أن ما قدمته للدير يعد قليلاً مقارنة بما تملكه، فهي مثل " الثري الذي لا يسقط من مائدته إلا فتات"[٥]، على حد قولها، الأمر الذي يدل على حجم ممتلكات الإمبراطورة.

كما إن الإمبراطورة هيلينا كنتاكزينوس ابنة الإمبراطور يوحنا كنتاكزينوس وزوجة

---

(١) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, pp. 164–5, 184–5.

(٢) Cantacuzenus, Historiarum, I, pp. 136–9; See Also: Kyrris, Role de la Femme, p. 468; Nicol, Byzantine Lady, p. 72, Reluctant Emperor, pp. 25–6.
انظر الفصل الأول.

(٣) دير كوتلوموس: يقع هذا الدير على جبل أثوس، وهو مخصص للمسيح منقذ البشرية، وبالرغم من وجود وثيقة في أرشيف هذا الدير تذكر أن الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين هو الذي أنشأه سنة ١٠٨٢م إلا أن الدير ذكر لأول مرة في وثيقة تعود لسنة ١١٦٩م، وظهر كمؤسسة ديرية في القرن الثاني عشر الميلادي، وكان هذا الدير صغيرًا وفقيرًا في مصادره حتى القرن الرابع عشر الميلادي عندما اكتسب ممتلكات عديدة في مقدونيا وزاد عدد رهبانه.
ODB, 2, p. 1158.

(٤) سيريس: مدينة في مقدونيا تقع على نهر ستريمون Strymon ظهرت أهميتها منذ القرن الثاني عشر الميلادي كمركز للعمليات العسكرية البيزنطية، اجتاحها النورمان سنة ١١٨٥م، وهزم البلغار الجيش البيزنطي على مقربة منها سنة ١١٩٥م، واحتلها صليبو الحملة الرابعة سنة ١٢٠٦م، واستعادها البيزنطيون سنة ١٢٤٦م، وأخذت تزداد أهميتها منذ القرن الرابع عشر الميلادي ووصفت بأنها مدينة واسعة ورائعة ولكنها سقطت في يد الصرب ١٣٤٥م وأصبحت ولاية لها أهميتها، إلا أن الإمبراطور مانويل الثاني باليولوجوس استعادها سنة ١٣٧١م.
ODB, 2, pp. 1881–2.

(٥) Lemerle, p. , Actes de Kutlumus, Paris 1946, pp. 85–6.

الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجوس قد ورثت العديد من الممتلكات التي قامت بتوزيع جزء منها على الفقراء عند اعتزالها الحياة العامة ودخولها الدير، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ديمتريوس كيدونيس مخاطبًا الإمبراطورة : "... أن تضعي أكبر جزء من أملاكك بين يد الفقراء، هؤلاء الذين تغدقين عليهم من كنوزك، كما تعرفين، سوف يكونون لك بمثابة مرشدين في هذه الرحلة، وسوف يكونون المدافعين عنك أمام القاضي "(١).

علاوة على ذلك فقد استثمر بعض الإمبراطورات والأميرات أموالهن في بعض الأعمال الاقتصادية والتجارية وشراء الممتلكات، ففي الفترة الممتدة من سنة ١٣٣٧-١٣٣٨م، وقعت ثيودورا كنتاكزينوس على ما لا يقل من مائة وعشرة عقد لشراء أراض ومزارع كروم وحقول، هذا بالإضافة لما قامت بشرائه من منازل ومحلات تجارية وقامت بتأجيرها(٢). وأيضًا فإن الأميرة ماريا باليولوجوس، أخت الإمبراطور ميخائيل الثامن استثمرت أموالها والتي كانت تأتي إليها من ريع ممتلكاتها الواسعة في شراء أراض زراعية ومزارع وبساتين فاكهة وكنيسة وحمامات في القسطنطينية(٣).

إضافة إلى ذلك فقد استثمر بعض هؤلاء النساء أموالهن في الإقراض، فهناك ثيودورا باليولوجوس التي قدمت الأموال لأحد أقربائها ليستثمرها لها في صفقات تجارية في جزيرة خيوس، واستمرت هذه الأنشطة المالية حتى سقوط القسطنطينية على يد العثمانيين سنة ١٤٥٣م، ففي وقت متأخر من هذا العام مارست مارية ابن الثري مانويل سيفاستوس Manuel Sevastos العديد من المعاملات التجارية مع التجار الجنوية، وتشمل قروضًا لشراء بعض المنتجات، وتشير إنجليكي لايو Angeliki Laiou إلى أن كثيرًا من النساء اللاتي قمن بإقراض الأموال والاشتراك في التجارة أو غير ذلك من أوجه الاستثمار الاقتصادي كن ينتمين للطبقة الأرستقراطية العليا، ففي القرن الرابع عشر الميلادي كان حوالي خمسة وسبعين بالمائة من الحالات المذكورة يتصلن بالبيت الإمبراطوري(٤). الأمر الذي يدل على ما امتلكه نساء الأسرة الإمبراطورية من أموال وممتلكات.

---

(١) Cydones, Correspondance, Letter No. 222 p. 76.

انظر الملحق رقم الثالث.

(٢) Kyritses, Byzantine Aristocracy, pp. 161–162; Laiou, Role of Women, p. 247.

(٣) Kyritses, Byzantine Aristocracy, pp. 100–101.

(٤) Laiou, Role Of Women, p. 247.

الدور الاجتماعي للإمبراطورات والأميرات :

لعبت الإمبراطورات والأميرات البيزنطيات دورًا اجتماعيًا هامًا، خاصة فيما يتعلق بخدمة المجتمع البيزنطي والاهتمام بالفقراء والمحتاجين ورعايتهم وتوفير حياة كريمة لهم، وتجلى ذلك بأوضح صوره في الناحية الخيرية.

والخيرية كلمة تصف حب الإنسان لأخيه الإنسان، حبه واهتمامه القوي، ليس فقط بقريبه أو صديقه ولكن للإنسانية بوجه عام، وفي المعنى المسيحي البيزنطي أصبحت الكلمة ذات مدلول ديني يهدف للحب والعطف الإنساني، إذ قصد بها أي نوع من العمل يكون إنسانيًا ومتحضرًا، كاهتمام المجتمع بالأيتام والمسنين والمرضى والغرباء، وأيضًا عطف الإنسان على غيره من البشر، ومساعدة هؤلاء الذين يعانون من الصعوبات والمحن قد وصف بالخيرية(١).

ولكن ما هو الباعث الذي دفع البيزنطيين إلى الاعتقاد والإيمان بالخيرية وممارستها ؟

تعتمد الإجابة على هذا السؤال على الفلسفة المسيحية للخيرية، وهي فلسفة أساسها البحث عن الخلاص، لأن البيزنطيين اعتقدوا أنهم في إطعام الفقراء أو بطريقة أخرى مساعدتهم وتقديم العون لهم يخدمون المسيح نفسه، وبناء على ذلك كانوا يأملون كمكافأة لأعمالهم الخيرية الرحمة والمغفرة لذنوبهم من الرب الذي ينظر إليهم بعطف يوم الحساب(٢).

وهذه الفلسفة تعتمد على تعاليم المسيح، نفسه الذي سأله أحد الأشخاص عما يفعله ليرث الحياة الأبدية، وطلب منه المسيح ألا يرتكب الزنا ولا القتل ولا السرقة وألا يشهد زورًا وأن يكرم أباه وأمه، وأجابه هذا الشخص بأنه التزم بكل ذلك منذ صغره، ولكن بعد إجابته قال المسيح كلمته المشهورة : " إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء ... "(٣).

وشدد القديس باسيل العظيم على ذلك بقوله : " لو أنت لم تكن رحيمًا لن تتلق الرحمة، ولو أنت لم تفتح منزلك للفقراء لسوف تحرم من مملكة السماء، ولو أنت حرمت الخبز على

---

(١) Constantelos, D. J., " Byzantine Philanthropy and Social Welfare, New Brunswick 1968, pp. 3–5.

(٢) Bebaia Elpis, p. 1549.

(٣) الإنجيل، لوقا ١٨ : ١٨ – ٢٢ ، متى ١٩ : ١٦ – ٢١.

الجائعين سوف تحرم من الحياة الأبدية "[١].

هذه العبارة وغيرها قد أسهمت بصورة كبيرة في تنامي دور الإمبراطورات والأميرات الاجتماعي وازدهار العمل الخيري من إنشاء الكنائس والأديرة وتقديم المنح لها وإقامة المستشفيات ودور الأيتام والمسنين والتكيات وبيوت الفقراء، وغير ذلك من الأعمال الخيرية. فمن خلال القيام بهذه الأعمال فإن الشخص لن يتلقى المكاسب والخيرات في الدنيا فقط، ولكن ذنوبه سوف تغفر ويدخل الجنة بعد موته، ومن هنا تم التمسك بهذه الفكرة طيلة العصر البيزنطي وكانت دافع لأعمال الخير والإحسان[٢] وشدد سيمون السالونيكي Symeon of Thessalonica[٣] في فترة متأخرة من العصر البيزنطي (ت ١٤٢٩م) على هذه الفكرة بقوله : " إن الخيرية وسائل جيدة لغفران الآثام وتحسين وضع الروح بعد الموت"[٤].

هذه الفلسفة قد آمن بها الأباطرة البيزنطيون والعديد من أعضاء الأسرة الإمبراطورية، ودفعتهم لممارسة الخيرية لخلاص أرواحهم، فإذا كان الإمبراطور هو صورة الرب على الأرض، والرب يتصف بالخيرية، فقد رأى البعض أن الإمبراطور يجب أن يكتسب نفس الصفة، فهي السمة الوحيدة التي تجعل الإمبراطور محاكيًا الرب، كذلك نظر الأباطرة إلى ممارسة العمل الاجتماعي والخيري على أنها أشياء تسعد الرب وتجعله يفضل هذا الإمبراطور ويكافئه في الدنيا والآخرة[٥].

وبما أن الإمبراطورة هي زوجة الإمبراطور والسيدة الأولى في الإمبراطورية، فقد مارست هي الأخرى أعمال الخير، بل وكانت العمل الأساسي لكثير من إمبراطورات وأميرات البيت الإمبراطوري، خاصة وأنهن امتلكن موارد مالية ضخمة ساعدتهن في الإنفاق على سائر أعمال البر والإحسان طلبًا للخلاص ولإظهار حبهن للرب[٦]، وقد امتدح الكثير من

---

(١) نقلاً عن :

Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 21.

(٢) Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 24.

(٣) سيمون السالونيكي : رئيس أساقفة سالونيك، وقبل اختياره لهذا المنصب كان راهبًا مقدسًا في أحد الأديرة في القسطنطينية، مات سنة ١٤٢٩م، وكان مدافعًا متحمسًا عن الإرثوذكسية وعارض تسليم سالونيك للأتراك والجنويين، وألف العديد من الكتب الدينية.

ODB, 3. pp. 1981–2

(٤) نقلاً عن :

Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 25.

(٥) Constantelos, Byzantine Philanthropy, pp. 26, 43–5.

(٦) Gitting, Elite Women, p. 72.

الإمبراطورات والأميرات من أجل اهتمامهن بمن هم أقل حظًا في المجتمع وقيامهن بصفة خاصة برعاية المؤسسات الخيرية ومساعدة المحتاجين، وبعض الإمبراطورات قد أثنى عليهن لأنهن لم ينفقن ثروتهن الشخصية على شراء المجوهرات والملابس الفخمة ومستحضرات التجميل، وإنما قدمن أموالهن وممتلكاتهن لمساعدة الفقراء وإقامة المؤسسات الخيرية لتوفير الرعاية والراحة لهؤلاء البؤساء(١).

الاهتمام بإقامة المؤسسات الاجتماعية والدينية وتقديم المنح لها :

كان من أهم الأعمال الاجتماعية بالنسبة لنساء العرش البيزنطي إقامة الأديرة والكنائس وتجديد ما أصابه الدمار منها، إذ كانت هذه المؤسسات تقدم الكثير من الخدمات داخل المجتمع البيزنطي، وتمد يد المساعدة للمحتاجين، ففي العالم البيزنطي اعتبر أنه لم تكن هناك طريقة أفضل لاستثمار ثروة الفرد من تكريس الكنائس والأديرة لعظمة الرب والتعبير عن حب المؤسس له، وإقامة الأديرة لإيواء الرهبان والراهبات الذين يتضرعون لخلاص روح مؤسس ملجأهم الديني.

ومن هنا أنفق نساء الأسرة الإمبراطورية أموالاً ضخمة على إقامة مثل هذه المؤسسات، ومما يدل على ذلك ما ذكرته الأميرة ثيودورا سينا ديني في مقدمة لائحة ديرها بقولها : " يبدو لي أن ثمة طرقًا عديدة طيبة وعظيمة لنظهر حبنا الصادق والأبدي للخالق، لكن لا شيء أفضل من أن نقيم له مؤسسات الملاذ الإلهي والكنائس، ليس بنفقة قليلة، ونظهر اللهفة والكرم المستمر بكل روح الشخص ويديه(٢).

هذه العبارة تدل على مدى أهمية إنشاء المؤسسات الدينية لدى المسيحي البيزنطي، وكذلك ضخامة الأموال التي تُنفق لإقامة مثل هذه المؤسسات، فقد شهد عصر باليولوجوس اندفاعًا كبيرًا نحو إقامة المباني الدينية خاصة في الفترة الممتدة من سنتي ١٢٨٢-١٣٢٨م(٣).

ففي هذه الفترة نلاحظ العدد الكبير للأديرة النسائية، وأيضًا الدور المميز في هذا الصدد لنساء العرش البيزنطي، ففي غضون ذلك أقيمت عشرة أديرة منها خمسة أديرة نسائية (أي بنسبة ٥٠%) وتم تجديد اثنين وعشرين ديرًا كان منهم ستة أديرة نسائية وديرن ثنائيان، وعندما ننظر إلى مؤسسي هذه الأديرة نجد أن أربعة أديرة من الأديرة العشرة الجديدة مؤسسة بواسطة إناث، وتسعة أديرة من الاثنين وعشرين ديرًا المجددة لها قامت بتجديدها ورعايتها

---

(١) Talbot, A-M., " Byzantine Women, Saints Lives, and Social Welfare ". in : Women and Religious Life in Byzantium, Ashgate 2001, pp. 106-7.

(٢) Bebaia Elpis, p. 1523.

(٣) Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 332.

إناث[١].

ومن الجدير بالملاحظة أن أربع لوائح للأديرة النسائية محفوظة لهذه الفترة على عكس اثنين فقط للأديرة الذكورية، وأن نسبة ٨٠% من اللوائح الخاصة بأديرة الراهبات ترجع لهذه الفترة (بنسبة ٥ : ٤)[٢]. الأمر الذي يدل على الدور المميز الذي لعبته نساء هذه الفترة في إقامة مثل هذه المؤسسات.

وقبل الحديث عن الدور الاجتماعي والخيري الهام الذي أدته هذه المؤسسات داخل المجتمع البيزنطي نتحدث بشيء من التفصيل عن هؤلاء النساء ومؤسساتهن الدينية.

لنبدأ بالأميرة المثقفة ثيودورا روليان التي جددت في الفترة الممتدة بين سنتي ١٢٨٢-١٢٨٩م دير القديس أندرو في القسطنطينية من أموالها الخاصة، وكان هذا الدير مبنى مدمرًا، فقامت الأميرة بإصلاحه وترميمه كدير نسائي، ووسعت وزينت كنيسته، وقضت فيه بقية حياتها التي بلغت حوالي الخمسين عامًا كراهبة تكرس وقتها للعبادة والقراءة[٣]، وقد امتدح مكسيموس بلانوديس أعمالها الخيرية في ثلاث قصائد من تأليفه، وصاغها كما لو كانت مكتوبة بواسطة ثيودورا وهي تخاطب القديس أندرو، وفيها يشيد بنسب ثيودورا وشخصيتها الرائعة، وهي التي " تربت على أخلاق المسيح " ويصفها بالحكمة والصواب[٤].

كذلك كانت ثيودورا روليان مساندة عظيمة للبطريرك جريجوري الثاني، حتى إنها قدمت له الحماية عند اضطراره للتخلي عن منصبه، وجددت ديرًا صغيرًا للقديس أرسينيوس بجوار ديرها، وخصصته كمكان إقامة للبطريرك المخلوع وعاش فيه حتى موته سنة ١٢٩١م[٥].

---

(١) Talbot, Building Activity in Constantinopl, p. 332..

(٢) انظر فهرس الترجمة الإنجليزية للوائح الأديرة البيزنطية :
Byzantine Monastic Foundation Documents, ed. Thomas, J., & Hero, A. C., Washington, 2000.

(٣) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 149; See Also: Koubena, A Survey of Aristocratic Women Founders of Monasteries, p. 30; Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 334; Women, p. 136; Nicol, Byzantine Lady, p. 40.

(٤) Planoudes, Epigrams, pp. 1176–8.

(٥) Gregoras, Rhomäische Geschichte, I, p. 155; See Also: Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 335; Fassoulakis, Byzantine Family, p. 27; Kugeas, Geschichte der Münchener, pp. 593–4.

الأديرة المقامة والمجددة تحت رعاية النساء في الفترة (١٢٨٢-١٣٢٨م)

اسم المرأة	اسم الدير	تاريخ الرعاية	نوع الدير	عدد الراهبات	وضع المرأة	حالة الدير
ثيودورا روليان	– القديس أندرو في كريزي	١٢٨٢–١٢٨٩م	نسائي	؟	أرملة	– تجديد الدير
	– القديس أرسينوس	١٢٨٩–١٢٩١م	ذكوري	؟	أرملة	– تجديد الدير لإقامة جريجور الثاني
ماريه باليولوجوس (سيدة المغول)	– باناجيوستيسا	١٢٨٠م	نسائي	٣٣ راهبة	أرملة	– تجديد الكنيسة وإنشاء صومعات للراهبات
	– دير خورا	١٢٨٢–١٣٢٠م	ذكوري	؟	أرملة	– ؟
ثيودورا باليولوجوس	– ليبس	١٢٨٢–١٣٠٣م	نسائي	٥٠ راهبة	أرملة	– تجديد الدير وإنشاء كنيسة
	– أنارجيروي	١٢٨٢–١٣٠٣م	نسائي	٣٠ راهبة	أرملة	– تجديد الدير
ثيودوار سينادينى	– بيبا البيس	١٢٩٥–١٣٠٠م	نسائي	٣٠–٥٠ راهبة	أرملة	– مؤسسة جديدة
إيرين خومانوس	– كريست فيلانثروبيوس	١٣٠٧–١٣٢٧م	ثنائي	١٠٠ راهبة	أرملة	– تجديد الدير
ماريه ديوكاينا	– جلابينس	١٣٠٥–١٣٢١م	نسائي	؟	أرملة	– دير جديد
	– بامكريستسوس	١٣٠٥–١٣٢١م	ذكوري	؟		– تجديد الكنيسة
آنا روليان	–	١٢٨٣–١٣١٤م	نسائي	؟	؟	– دير جديد
إيجونيا كومنين باليولوجوس	–	١٢٩٦–١٣٢١م	نسائي	؟	؟	– تجديد
أم القائد سيرجينوس	–	١٢٧٥–١٣٠٠م	نسائي	؟	؟	– مؤسسة جديدة
نصيرة غير معروفة	–	١٣٠٠م	ذكوري	؟	؟	–

نقلاً عن :

Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 343.

وهناك أميرة أخرى معاصرة للأميرة ثيودورا روليان وهي ماريا باليولوجوس (سيدة المغول) الابنة غير الشرعية للإمبراطور ميخائيل الثامن التي عادت إلى القسطنطينية بعد موت زوجها القائد المغولي أبغا، وخصصت ثروة ضخمة لإقامة دير للراهبات، فقامت بشراء مجموعة من الممتلكات، عبارة عن كنيسة ومنازل وحمامات وحدائق ومزارع كروم وحولتها لدير نسائي لإقامة ثلاث وثلاثين راهبة، وأطلق على هذا الدير اسم باناجيوستيسا Panagiostissa وقضت أعوامها المتبقية هناك[١].

وربما كانت ماريا على قيد الحياة عند إعادة تجديد وتزيين دير خورا Chora[٢] والتي تم في الفترة من سنة ١٣١٣-١٣٢٠م وقامت الأميرة ببعض التجديدات هناك، وترى تالبوت أن إحياء ذكرى الأميرة على جدران الممر الداخلي لكنيسة خورا بتصوير يتناول مشوار حياتها يدل على أنها لعبت دورًا هامًا في الإنشاءات والتجديدات لهذا الدير، بل ربما كانت إسهاماتها أكثر من غيرها في هذا الصدد[٣].

كذلك هناك نموذج الإمبراطورة الأرملة ثيودورا باليولوجوس التي عاشت بعد وفاة زوجها لأكثر من عشرين عامًا ـ مات الإمبراطور ميخائيل الثامن سنة ١٢٨٢م وبقيت الإمبراطورة ثيودورا حتى سنة ١٣٠٣م ـ كرستها الإمبراطورة للأعمال الاجتماعية والخيرية، فخلال الفترة الممتدة بين سنتي ١٢٩٤-١٣٠١م، قامت ثيودورا بتجديد مؤسستين ديريتين، وهما دير ليبس ودير للقديس كوزماس ودميان، المشهور بدير انارجيروي، وكان

---

(١) Talbot, Building Activity in Constantinople, pp. 334–5; Koubena, A survey of Aristocratic Women Founders of Monasteries, p. 29.

(٢) ديرخورا : يقع في المنطقة الشمالية الغربية من القسطنطينية، ويرجع تأسيسه للقرن السادس الميلادي، وفي القرن التاسع أصبح مركز مقاومة للحركة الأيقونية، وقامت مارية ديوكاينا Maria Doukaina بتجديده في القرن الحادي عشر الميلادي، وفي القرن الثاني عشر قام حفيدها إسحاق كومنين Isaac Komnenen بالاهتمام بهذا الدير وتجديده، ولكن أصابه التدمير أثناء الاحتلال اللاتيني للقسطنطينية، وفي بداية القرن الرابع عشر اتجه ثيودور متيوخيتس إلى إصلاح هذا الدير بأمر من الإمبراطور أندرونيقوس الثاني وساعده في ذلك نقفور جريجوراس وماريا باليولوجوس، وقام بالكثير من التعديلات والتجديدات لهذا الدير، وأضاف إليه بعض المباني الجديدة وزين كنيسته بالفيسيفساء، واهتم بمكتبته ووضع فيها عددًا كبيرًا من الكتب.

ODB, I, pp. 428–30; Ševčenko, I., " Theodore Metochites, The Chora, and the Intellectual Trends of His Time ", in : The Kariye Djami, ed. Underwood, p. A., Princeton, 1975, pp. 19–55.

(٣) Talbot, Building Activity in Constantinople, pp. 335–6.

دير ليبس أكبر المؤسستين، فقد كان عدد راهباته خمسين راهبة، ثلاثين من الأخوات المنشدات والعشرين الباقيات من الراهبات العاملات، كما أنشأت الإمبراطورة كنيسة جديدة بجوار كنيسة الدير القديمة لتخدم كضريح للأسرة الإمبراطورية[١].

أما دير انارجيروي، والتي كانت مبانيه في حالة خراب شامل، فقد قامت ثيودورا بتجديده، ولم تكتف الإمبراطورة بذلك بل قامت ببناء سور حول المباني لتأمينها وحماية الراهبات التي حددت عددهن بثلاثين راهبة[٢]، كما رممت كنيسة دير ثيوتوكوس تاميكرا روميوا Theotokos ta Mikra Romaiou ، حيث تحفظ رفات القديسة ثوماييس Thomais[٣] وفي مرثيته للقديسة راح قنسطنطين أكروبوليتس يتوسل للقديسة أن تبارك وتحفظ " الإمبراطورة الورعة المحبة للمسيح التي جددت الكنيسة والعديد من الكنائس الأخرى التي أصابها الدمار وبنيت كنائس جديدة من أموالها "[٤].

إضافة إلى ذلك فقد اهتمت الإمبراطورة ثيودورا بشؤون المؤسسات الديرية، وعملت على رفاهيتها، فتدخلت مرات عديدة في نزاعات على الامتيازات والممتلكات الديرية، خاصة في سميرنا (أزمير الحالية)[٥]، ففي سنة ١٢٦٩م قدمت إعفاءات جمركية لأربعة قوارب تابعة

---

(١) Lips, p. 1254; See Also: Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 336; Empress Theodora, pp. 298–99; Connor, Women of Byzantium, p. 276.

(٢) Anargyroi, p. 1290; See Also: Talbot, Building Activity in Constantinople, pp. 337–8; Empress Theodora, p. 300.

(٣) القديسة ثوماييس : أحرزت هذه القديسة شهرة كبيرة في الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي، وجاءت من جزيرة لسبوس واتجهت إلى خلقدونية مع والديها، ثم عاشت في القسطنطينية مع زوجها، واشتهرت بأعمالها الخيرية ورعايتها للفقراء، فكانت تجوب شوارع العاصمة وأروقتها بحثاً عن الفقراء لتقدم لهم المساعدة.

لمزيد من التفاصيل، انظر :

Thomais of Lesbos, Life of St. Thomais of Lesbos, Trans. Halsall, p. , in : Holy Women of Byzantium ten saints' Lives in English Translation, ed. Talbot, A-M., Washington 1953, pp. 291–322, See Also: Laiou, A. E., " Women in History of Byzantium ", in : Byzantine Women and Their World, ed. Ioli, K., Cambridge 2003, p. 26.

(٤) نقلاً عن :

Talbot, Empress Theodora, pp. 300–301; Old wine, p. 19.

(٥) سميرنا: (أزمير الحالية)، تقع على ساحل بحر إيجه الأسيوي، وكانت قاعدة بحرية هامة، وقد أحرزت أهمية كبيرة كميناء لإفيسوس، وجعلها الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين قاعدة لعملياته العسكرية في آسيا الصغرى.

لمزيد من التفاصيل، انظر :

Ramsay, Historical Geography, pp. 107–8; Pococke, R., A Description of the =

لدير القديس يوحنا سـولوجون St. John The Theologian فـي بـاتموس Patmos[١].
وكذلك قدمت تأكيدات على امتلاكه بعض الأراضي، وفي سنة ١٢٦٢م استجابت الإمبراطورة لطلب رئيس أحد الأديرة بالقرب من سميرنا وأصدرت وثيقة لتأكيد كل حقوقه وامتيازاته، ثم قدمت منحة من الأراضي بعد ذلك لهذا الدير، هذا بالإضافة إلى العديد من الوثائق الـصادرة عنها والتي تظهر كرمها واهتمامها بالمؤسسات الديرية[٢].

هكذا عُرفت الإمبراطورة ثيودورا بأعمالها الخيرية ورعايتها للأديرة والكنـائس، فقـد وجد على الأقل مؤسستان ديريتان تعتمدان على معونتها وحمايتها، ومدحت بواسطة الشعراء كمؤسسة للكنائس والأديرة ومحسنة لهم أكثر من أي إمبراطورة أخرى[٣].

كذلك فأن الأميرة ثيودورا سينادينى قد ساهمت هي الأخرى في العمل الاجتماعي إذ أسست دير بيبا البيس، والذي اشتمل على كنيسة ومساكن للراهبات وكنيسة جنائزية وبـرج الأجـراس، وتلقت فيه الأميرة ثيودورا وابنتها إيفرسون النذر الديري، وصمم هذا الـدير ليـستوعب ثلاثـين راهبة، واتسع بعد ذلك لخمسين راهبة وأدى العديد من الخدمات الخيرية في المجتمع البيزنطي[٤].

أما الأميرة إيرين خومانوس التي تزوجت لفترة قصيرة سنة ١٣٠٣م الديسبوت يوحنـا ابن الإمبراطور أندرونيقوس الثاني، وبعد موته سنة ١٣٠٧م قررت أن تأخذ القسم الـديري، فوزعت جزءًا من ثروتها على الفقراء، وأنفقت جزءًا آخر في إصلاح وإعـادة بنـاء ديـر كريست فيلانثروبيوس والذي دخلته كرئيسة له وأخذت الاسم الـديري إيلوجيـا Eulogia[٥]

= East and Some other Countries, vol 2, Part 2 : Observations on the Island of the Archipelago, Asia Minor, Thrace, Greece and Some other Parts of Europe, London 1845, pp. 34–9; ODB, 2, pp. 1219–20.

(١) باتموس : جزيرة في الدودكينيز Dodekanese، قرب ساحل آسيا الصغرى، ذكرت مرات عديدة كمكان حيث نفى إليها القديس يوحنا الرسولي، والذي يدعى أيضًا يوحنا سولوجون ويقع فيها ديره الشهير. لمزيد من التفاصيل عن الجزيرة والدير، انظر :

ODB, 3, pp. 1596–7.

(٢) Talbot, Empress Theodora, p. 297; Barišic, Povelje Vizantijskich, pp. 148–54.

(٣) Connor, Women of Byzantium, p. 297; Talbot, Empress Theodora, p. 301.

(٤) Bebaia Elpis, pp.1520–1530, 1564; See Also: Talbot, Building Activity in Constantinople, p.338; Nicol, Byzantine Family, p.10; Connor, Women of Byzantium, p. 278.

(٥) Philanthropos : Typikon of Irene Choumnaina Palaiologina for The Convent of Christ Philanthropos in Constantinople, Trans. Talbot A.M., BMFD, Washington 2000 pp. 1383, 86; Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, p. 238; See Also: Verpeaux, Notes Prosopographiques, p. 260.

وأنفقت إيرين على ديرها بسخاء حتى أصبح أضخم أديرة العاصمة، وتنوعت أنشطة خدماته وكذلك رغبة منها في جذب الراغبين في دخول الحياة الديرية، وبالفعل كـان ديرهـا الـدير الأوسع في القسطنطينية، فإذا كانت القوانين الديرية تحدد عدد الراهبات في كل ديـر، فـإن إيرين تجاوزت هذا الإجراء وأسكنت في ديرها مائة راهبة إلى جانب الرهبان(١).

وهناك سيدة أخرى من أسرة باليولوجوس تدعى ماريـة ديوكاينـا كـومنين براناس باليولوجوس Maria Doukaina Komnene Branas Palaiologos زوجة موظف الدولة الشهير ميخائيل دوكاس جلاباس كومنين براناس باليولوجوس Micheal Doukas Glabas Komnene Branas Palaiologos(٢) التي تعاونت مع زوجها في إعادة بناء كنيسة ديـر بامكريستسوس Pammakaristos(٣) وإصلاح مبانيها المهدمة، وأقامت كنيسة جديدة ألحقتها بهذا الدير جنوب الكنيسة القديمة وكرستها كضريح لزوجها وأعضاء أسرتها الآخرين، وزينتها بالفيسيفساء، وبعد موت زوجها وفي سنة ١٣٠٥م تلقت النذر الديريـة تحـت اسـم مارثـا Martha في دير جلابينس Glabaines والذي من المعتقد أنها قامـت بتأسيـسه(٤). وعـن إحسانها تحدث الشاعر مانويل فيليس، والذي يمدحها كنصيرة ومؤسسة لهذه المباني، ويمتدح عقلها وسلوكها ويصفها بالعطف على المحتاجين(٥).

---

(١) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, p. 238; See Also: Laurent, Princesse Byzantine, p.30, Direction Spirituelle A Byzance, p.83; Trone, Double Monastery, p. 82.

(٢) ميخائيل دوكاس جلاباس : ولد ميخائيل سنة ١٢٣٥م، ذُكر اسمه لأول مرة في التاريخ البيزنطـي سـنة ١٢٦٠م كموظف بيزنطي، ثم تولى بعد ذلك عدة مناصب حكومية وقاد عدة حملات ناجحة ضد البلغـار في سنوات ١٢٦٣م و١٢٧٨م. وفي سنة ١٢٩٧م عهد إليه كحاكم للجزء الغربـي مـن الإمبراطوريـة بالدفاع عن مقدونيا ضد الصرب، وقام ببناء أو تجديد خمسة عشر حصناً في تراقيا. وجدد هو وزوجته إحدى الكنائس في سالونيك، وسجلت مآثره العسكرية في رسم في كنيسة بامكريستسوس، وكذلك أشاد بها الشاعر مانويل فيليس في قصيدة له، ومات سنة ١٣٠٤م.
ODB, 2, p. 582.

(٣) كنيسة بامكريستسوس : هي كنيسة مارية المقدسة، من المحتمل أنها أسست في القـرن الثـاني عـشر الميلادي بواسطة يوحنا كومنين John Komnene وبعد سنة ١٢٦١م ورثها ميخائيل دوكاس ودفن فيها بعد موته، واستولى عليها الأتراك وقاموا بتحويلها إلى مسجد.
ODB, 3, pp. 1567–8.

(٤) Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 340, " Epigrams in Context : Metrical Inscriptions on Arta and Architecture of The Palaiologan Era ", DOP 53 (1999), p. 77; Koubena, A Survey of Aristocratic Women Founders of Monasteries, p. 31.

(٥) Philae, Carmina, I, pp. 280–2.

وثمة نساء أخريات من أسرة باليولوجوس لا يعرف عنهن سوى شذرات من المخطوطات وأشعار مانويل فيليس مثل أنَّا كومنين روليان Anna Komnene Roulaina ويحتمل أنها كانت ابنة ثيودورا روليان، والتي أسست ديرًا للمسيح في القسطنطينية وتلقت فيه النذر الديرية باسم أنتونيا Antonia، ومنحته ممتلكات وثروات وأواني مقدسة، ومن المحتمل أنها دفنت في الدير، وقد أحيا الشاعر مانويل فيليس ذكراها وامتدح أصلها الرفيع، وأنها رغم وفاتها ومغادرتها الحياة فإن أعمالها الطيبة خلدت ذكراها(١).

وفي قصيدة أخرى للشاعر مانويل فيليس وصف الأميرة إيجونيا كومنين باليولوجوس Eugenia Komnene Palaiologos – ابنة عم الإمبراطور أندرونيقوس الثاني – بأنها أعادت بناء دير نسائي دمر أثر زلزال، وزينت كنيسته، وزرعت حوله الحدائق وأصبحت راهبة فيه، ويصفها الشاعر بالشجرة المثمرة، وأنها كانت سببًا لسعادة الكثيرين بقوله : " يا لك من مخلوق يجلب لنا السعادة "(٢).

هذا إلى جانب العديد من أميرات أسرة باليولوجوس واللائي قمن بإنشاء وتجديد الأديرة وأنفقن عليها بسخاء(٣).

كذلك قامت الإمبراطورة أنَّا سافوي بترميم كنيسة أيا صوفيا وجددت الرواق الكبير والحرم المقدس بعد انتهاء الحرب الأهلية بينها وبين كنتاكزينوس(٤)، وفي فترة متأخرة نجد أنَّا نوتاراس الناطقة باسم الجماعة اليونانية في إيطاليا، تخصص جزءًا كبيرًا من المال لإقامة كنيسة أرثوذكسية للبيزنطيين يمارسون فيها شعائرهم الدينية بحرية ودون أي تدخل، وبذلت مجهودات كبيرة مع الحكومة الإيطالية حتى تحقق هذا الحلم(٥).

والدور الاجتماعي والخيري البارز الذي لعبته الإمبراطورات والأميرات في العاصمة احتذته نساء أسرة باليولوجوس واللاتي تزوجن خارج القسطنطينية، فشيدت أنَّا باليولوجوس زوجة نقفور الأول ديسبوت إبيروس كنيسة للعذراء في أرطا Arta عاصمة إبيروس، وكذلك

---

(١) Philae, Carmina, 2, pp. 135–6.

(٢) Philae, Carmina,I, pp. 81–2.

(٣) انظر الجدول السابق.

(٤) History of John Contacuzenus, Book IV, p. 167.

(٥) Cecchini, Anna Notara Paleologa, pp. 1–25; Nicol, Byzantine Lady p.31, Byzantine Family. p. 231.

قامت برعاية عدد من الكنائس والأديرة في إبيروس، وأمرت بعمل تصوير جصي في مجاز كنيسة دير بلاشيران – يقع في قرية تحمل نفس الاسم في ضواحي مدينة أرطا – يصور أحد المواكب الدينية في القسطنطينية والتي شاركت فيه أنَّا باليولوجوس بعد مجيئها للعاصمة وكانت بصحبة أمها أيلوجيا وأختها ثيودورا روليان احتفالاً بإلغاء الوحدة الكنسية(١).

وحتى تستطيع هذه المؤسسات القيام بدورها الاجتماعي والخيري ومواصلة خدماتها داخل المجتمع البينزنطي فإن إمبراطوريات وأميرات أسرة باليولوجوس قدمن لها المنح بكافة صورها، فقد خصصت الإمبراطورة ثيودورا ممتلكات ضخمة لدير ليبس، سردتها الإمبراطورة نفسها في اللائحة الخاصة بالدير، كان بعضها مقدم لها بواسطة ابنها الإمبراطور أندرونيقوس الثاني، وبعضها حصلت عليه بالوراثة أو الشراء، وأخرى كانت تخص أمها، وكانت تشتمل على ممتلكات عديدة في منطقة برجامون وفي القسطنطينية وضواحيها، وقرية في مقدونيا وأراضي في لوباديون(٢)، كذلك قدمت الإمبراطورة ثيودورا العديد من الأراضي خارج وداخل القسطنطينية لدير أنَّا رجيروي واشتملت على حدائق ومراعي ومزارع عنب وأشجار زيتون(٣)، وخصصت الأميرة ثيودورا سيناديني نصف ممتلكاتها الموروثة لدير بيبا البيس، وكانت عبارة عن قرى وأراض زراعية ومزارع كروم وذلك للإنفاق على الدير وصيانة مبانيه(٤).

وقدمت حفيدة للأميرة ثيودورا سيناديني تدعي إيجوينا كنتاكزينوس Eugenia Kantakouzene حديقة وأموالاً وهدية من الذهب لدير بيبا البيس، كما أنها قامت ببعض الإصلاحات لمباني الدير في السنوات الممتدة بين ١٣٩٨-١٤٠٩م(٥).

كذلك فإن ماريا باليولوجوس منحت إنجيلاً ثميناً لعذراء خورا وأقمشة مذهبة، ويفترض أن ماريا باليولوجوس هي المقصودة بالراهبة مالنيا Melane والتي صورت في فيسيفساء

---

(١) Perreault, J., " The Basilissa Anna Palaiologina of Arta and The Monastery of Vlacherna " in : Femmes et Le Monachisme Byzantine : Actes du Symposium d'Athenes, 28–29 mars 1988, Athens 1991, pp. 43–49; Teteriatnikov, N., " The Dedication of The Chora Monastery in the time of Andronikos II Palaiologos ", B lxvi (1996), pp. 204–5; Nicol, Byzantine Family, p. 23.

(٢) انظر ما سبق ص ١٠٨.

(٣) انظر ما سبق ص ١١٠.

(٤) انظر ما سبق ص ١١٠.

(٥) Bebaia Elpis, pp. 1567–8; See Also, Lemerle, Actes des Kutlumus, pp. 86–7.

الجزء الجنوبي للممر الداخلي لكنيسة خورا، فالنقش يصفها كعضو في أسـرة بـاليولوجوس و" سيدة للمغول " التي قدمت لدير خورا المنسوجات والإنجيل[1]، وسـجل الـشاعر مانويـل فيليس هذه المنحة من ماريا للكنيسة قائلاً على لسانها :

" كان مناسبًا [لي] على حد سواء أن أرد بمقابل ذي قيمة للعذراء كاملة النقاء

عذراء بكلاهما الجسد والقلب

للواحدة الأكثر قداسة من الملائكة والقديسين

كان مناسبًا [لي] أن أحضر مع الحب والشوق

هدية ذات طابع ملكي كما لو كانت لإمبراطورة

مكافأة على الخيرات التي تمتعت بها من فضلها

مكافأة على ما لا يحصى من مخاطر نجيت منها بالقوة العظيمة

لصاحبة القوة كلها البتول الجديرة بالمدح والإطراء

متقدمة بأحجبتي وأخمرتي الذهبية التي امتلك منها الكثير

فأقدم أيضًا هذا الكتاب المقدس إلى البيت الجليل لتامة النقاء [البتول] "[٢].

من هذه القصيدة يتضح أن هذه الهدية تقدمها ماريا كهبة من شخصية ملكية إلى عذراء خورا كنوع من الامتنان والتعبير عن شكرها للعذراء تجاه الكثير من المنح التي قدمتها لهـا والنجاة من المخاطر التي لا تعد ولا تحصى، والتي تعرضت لها الأميرة في بـلاد المغـول وأنقذت منها، وقد يرجع هذا التصريح إلى مخاطر تحملتها الأميرة في سفرها ومعيشتها بعيدًا عن أسرتها ووطنها بين المغول. وترى تالبوت Talbot أن تصوير ماريـا علـى جـدران الكنيسة في خورا يعكس منحة قدمتها الأميرة لهذه الكنيسة أكثر من مجرد الإنجيل والأقمـشة المذهبة، فربما كانت ماريا على قيد الحياة عند تجديد وتزيين كنيسة دير خورا، ويبـدو أنهـا لعبت دورًا هامًا وأسهمت بنصيب وافر في هذه الإنشاءات، والتي تمت في فترة مبكرة مـن

---

(١) Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 335.

(٢) نقلاً عن :

Teteriatnikov, The Dedication of The Chora, pp. 195-6.

القرن الرابع عشر الميلادي[١].

كذلك وهبت الأميرة إيرين خومانوس دير برودروموس كنيسة وجزءًا كبيرًا من قرية كانت ملكًا لها، ويؤكد ذلك الاتفاقات الموقعة بين الدير وإيرين[٢]. وقدمت أيضًا ثيودورا كنتاكزيتوس ممتلكات عديدة لرهبان دير كوتلوموس وتشمل قرى وأراضي شاسعة تتضمن حدائق ومزارع ومحلات ومنازل إلى جانب مائة رأس من الماشية[٣].

من هذا كله يتضح مدى اهتمام نساء الأسرة الإمبراطورية بالمؤسسات الاجتماعية والخيرية، وحرصهن على أدائها وظيفتها حتى بعد موتهن، وقد بلغ من شدة حرصهن عليها وعلى أملاكها أنهن اعتبرن هذه الممتلكات أوقافًا مقدسة ومكرسة للعذراء، لا يجب الاعتداء أو الاستيلاء عليها تحت أي ظروف أو بواسطة أي سلطة، فهذه الممتلكات مستقلة عن أي تدخل، ومن يعتد عليها يجلب على نفسه العقاب واللعنة[٤].

ومن الجدير بالملاحظة أن دور الإمبراطورات والأميرات الاجتماعي لم يقتصر على إنشاء المؤسسات الدينية والخيرية، وتقديم المنح والأموال لها حتى تستمر في أدائها وظيفتها الاجتماعية، وإنما قدمن أيضًا الأموال للفقراء والمرضى بصورة مباشرة، وكان هذا الأمر أكثر شيوعًا عند دخول هؤلاء النساء الدير، إذ يقم هؤلاء النسوة بتوزيع معظم ثرواتهن عند تلقيهن النذر الديرية، وخير مثال على ذلك كانت الأميرة إيرين خومانوس التي أنفقت قبل دخولها الدير جزءًا كبيرًا من ثروتها في مساعدة الفقراء وتحرير الأسرى[٥]، كما أن الإمبراطورة هيلينا عندما قررت أن تصبح راهبة سنة ١٣٩١م قامت بتوزيع جزء كبير من ممتلكاتها على الفقراء والمحتاجين، ويمدح ديمتريوس كيدونيس عمل الإمبراطورة وأنها سوف تكافأ عنه في الآخرة[٦]. كذلك دفعت أنًا نوتاراس الكثير من الأموال لافتداء الأسرى البيزنطيين عند الأتراك بعد سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م[٧].

---

(١) Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 336.

(٢) Guillou, Archives de Saint Jean – Prodrome, pp. 142–3.

(٣) Lemerle, Actes de Kutlumus, pp. 83–6.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1557; See Also: Lemerle, Actes de Kutlumus, pp. 86–7.

(٥) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, p. 238; See Also: Laurent, Princesse Byzantine, p. 44; Hero, Irene-Eulogia Choumnaina Palaiologina, pp.121–2.

(٦) Cydonés, Correspondance, Letter No. 222 , p. 76.

(٧) Nicol, Byzantine Lady, p. 107.

كذلك كانت هناك راهبة تدعى نيمفدورا Nymphodora، وهبت أحد الأديرة النسائية ممتلكات عديدة اشتملت على كنيسة ومنزل وأراضٍ زراعية وبضائع وحصص لها في مناجم للتعدين(١).

على أي حال، لم يقتصر الدور الاجتماعي على نساء الأسرة الإمبراطورية فقط، فقد احتذى مثالهن عدد من نساء الطبقة الأرستقراطية الثرية أو الوسطى، واللاتي اعتبرن خدمة المجتمع، وتوزيع الأموال على الفقراء والمحتاجين، دليل على التقوى، وسوف يكافأن عليه بخلاص أرواحهن وغفران ذنوبهن. واستمر هذا الاتجاه حتى نهاية الإمبراطورية، فوجدنا سيدة في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي زوجة ثيودور سارنتلتينوس Theodore Sarantinos ـ مواطن ثري من مقدونيا ـ معروفة بعطفها على الفقراء، فكانت توزع الملابس والمواد الغذائية على المحتاجين أيام الثلاثاء والجمعة، وفي وصيتها هي وزوجها، أوصوا بأن يوزع ربع أراضيهم الزراعية على الأديرة النسائية والمحتاجين(٢).

وفي فترة متأخرة يذكر ميخائيل دوكاس وفاة سيدة من الطبقة الأرستقراطية كانت معروفة بالبر والإحسان تجاه الفقراء والمحتاجين، وبمسلكها العاقل والحكيم ويصفها " بأنها كانت طاهرة من كافة أدران الروح "(٣).

الدور الاجتماعي للمؤسسات الدينية والاجتماعية :

ننتقل الآن من النساء اللاتي أقمن المؤسسات الدينية والاجتماعية وخصصن لها الممتلكات والأموال إلى المؤسسات نفسها، وما قامت به من دور اجتماعي هام في مساعدة الأعضاء الأقل حظًّا في المجتمع، وخدمة شريحة عريضة من المجتمع، إذ كان مبدأ شائعًا بين الفقراء والأيتام والمحتاجين أن يتجهوا إلى الكنائس والأديرة وغيرها من المؤسسات طلبًا للمعونة والمساعدة.

الكنيسة :

يجب أن نلاحظ أن الخيرية البيزنطية لم تكن محدودة ومقصورة على الأعمال الخيرية فقط للأشخاص المحسنين، والذين قاموا بأعمال الخير في أوقات معينة تجاه الفقراء، وذلك لأن

---

(١) Laiou, Observations on the Life, pp. 62–3.

(٢) Constantelos, Byzantine Philanthropy, pp. 142–3.

(٣) ميخائيل دوكاس، التاريخ البيزنطي، ص٣٠٠.

الكنيسة نفسها خصصت مبالغ كبيرة من الأموال والمنح وريع الأراضي المقدمة لها، وقامت بتوزيعها بشكل منتظم على الفقراء والمحتاجين في مناسبات معينة أثناء العام.

فمنذ البدايات الأولى للمسيحية شجعت الكنيسة على العمل الاجتماعي بصفة عامة وأعمال الخير بصفة خاصة، وكان دورها الأعظم يكمن في عملها الخيري والتحضري بين شعوبها، وكذلك الأمم والقبائل الأخرى، إذ أقرت الكنيسة أعمال الخير تجاه الفقراء والمحتاجين، كما يظهر من خلال مجموعة القوانين الكنسية، فالقانون التاسع والخمسون من هذه المجموعة يقر أن كل الأساقفة ورجال الدين بالكنيسة يجب أن يمارسوا أعمال البر والإحسان، وأن المشرف على ممتلكات الكنيسة يجب أن يوزع الفائض على الفقراء، والقانون الحادي والعشرون لمجمع جانجرا Gangra سنة ٣٤٣م[١] يمدح ويشجع خيرية الكنيسة، كما أن رجال الدين بالكنيسة سواء في القرن الرابع الميلادي أو في القرن الخامس عشر للميلاد كانوا مدركين للتفاوت الاجتماعي بين فئات المجتمع، وعديد منهم طلبوا من الأغنياء أن يساعدوا الفقراء ويوفروا لهم ما يحتاجون إليه، ليس هنا فحسب بل قدموا بأنفسهم أمثلة واضحة على الكرم والجود، وأصبح معروفًا تمامًا أن كثيرًا من رجال وآباء الكنيسة كانوا يقومون بتوزيع ثرواتهم الشخصية على الأعمال الخيرية للكنيسة[٢].

على هذا النحو يمكن القول أن الكنيسة من خلال مؤسساتها لم يكن دورها مقصورًا على الناحية الدينية والوعظ لتحقيق الخلاص، ولكن امتد دورها إلى إطعام الجائعين وتخفيف معاناتهم، وإيواء المسافرين وتقديم الضيافة للغرباء، والعناية بالمرضى ورعاية الأيتام والأرامل، وأدركت مهمتها ورسالتها الاجتماعية والخيرية جيدًا، وعملت على تخفيف العبء على الفقراء، بواسطة إقامة المستشفيات ودور الغرباء والمسافرين ودور الأيتام وغيرها، وأصبح مفهومًا تمامًا أن الاحتياجات المادية للإنسان تعد جزءًا من مسئولية الكنيسة، وساعدتها الإمبراطورات والأميرات على القيام بهذا الدور لما قدمته لها من منح وهبات وأوقفته عليها

---

(١) مجمع جانجرا: عقد هذا المجمع سنة ٣٤٣م لإدانة الزهد المتطرف الخاص بـ يوستسيوس الأنطاكي Eustathias of Antioch ، وخصص حوالي عشرين قانونًا من قوانينه تتعلق بأمور تخص الرهبنة والحياة الاجتماعية للرهبان.

لمزيد من التفاصيل، انظر :

ODB, I, pp. 821–2

(٢) Constantelos, D.J., Poverty, Society and Philanthropy in The Late Mediaeval Greek World, New Rochelle 1992, p. 117, Byzantine Philanthropy, pp. 7–9.

من أراض[١].

الدير :

مما لا شك فيه أن الديرية البيزنطية لعبت دورًا اجتماعيًا هامًا، فالجميع حتى المعترضين على النظام الديري البيزنطي يعترفون بالدور المشرف الذي لعبته هذه المؤسسة في النشاط الاجتماعي والخيري، وتلبية احتياجات المجتمع من حولها[٢]. ذلك أن الأديرة البيزنطية كانت مقصد الفقراء والمحتاجين، وقد ساعدت أفكار القديس باسيل العظيم على تقوية هذا المبدأ، حيث أعلن : إن الرهبانية لا ينبغي أن تنفصل عن حاجات المجتمع الإنساني، وأن ممارسة الأعمال الاجتماعية والخيرية يجب أن تصبح عنصرًا أساسيًا في حياة الجماعة الديرية، وأن سعى الراهب يجب ألا يكون فقط نحو خلاصه، ولكن نحو عمل الخير الإنساني والعمل المثمر للجميع، وشجع القديس الجماعة الديرية على أداء أعمال الخير ليس فقط لجماعة الرهبان في الدير ولكن لكافة الناس خارجه[٣].

ونتيجة لهذه الفلسفة التي أساسها حب وخدمة الجنس البشري، فإن الأديرة أصبحت مراكز للكرم والجود وتوزيع الطعام والأموال، وربما الملابس، على الفقراء والمحتاجين الذين يأتون يتوسلون على الأبواب، وكذلك مراكز للعناية بالمرضى والحجاج وعابري السبيل[٤].

وتعد لوائح المؤسسة الديرية أفضل مصدر للمعلومات عن الدور الاجتماعي للدير والعطاءات التي تقدم للفقراء على بوابة الدير، لأنها توضح قواعد ونظم وملامح الحياة داخله، فكان من المعتاد أن توزع الأديرة الطعام يوميًا على البوابة لهؤلاء المحتاجين، وإلى جانب المنح اليومية فإن معظم الأديرة كانت تقدم حصصًا من الطعام خاصة في أيام الأعياد الهامة، مثل يوم عيد القديس راعي الدير، وعيد رأس السنة، وعيد الفصح، وعيد وفاة العذراء، وعيد الغطاس، إلى جانب إحياء ذكرى المؤسسة وأقربائها، ولائحة دير ليبس للإمبراطورة ثيودورا تنص على أنه في عيد ميلاد القديس يوحنا المعمدان يوزع على بوابة الدير ثلاثة أرغفة وست عملات ذهبية[٥].

---

(١) Constantelos, Poverty, Society and Philanthropy, p. 149.

(٢) Constantelos, Byzantine Philanthropy, pp. 110, 202.

(٣) نقلاً عن :

Constantelos, Byzantine Philanthropy, pp. 88–90

(٤) Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 90.

(٥) Lips, p. 1277.

وكانت هذه المنح تحتوي على الجزء المتبقي من الوجبة الأساسية لهذا اليوم، فقد ذكرت الأميرة ثيودورا سيناديني في لائحة ديرها ذلك بقولها : " لا يجب على أي شخص أن يخزن المتبقي من الوجبة اليومية له، ولا تحفظ لليوم التالي، ولكن من الصواب أن توزع على الفقراء، إخواني في المسيح، هؤلاء المدفوعون بالجوع والمجاعة القاسية ليأتوا إلى بابكم كل يوم وينتظرون كرمكم بعد الرب ليتغذوا بواسطتكم بكسرة صغيرة من الخبز وكمية صغيرة من الطعام "(١).

كذلك حث البطريرك أثناسيوس في فترة مبكرة من القرن الرابع عشر الميلادي كل الرهبان والراهبات أن يأكلوا فقط مرة واحدة في اليوم، وشدد على أنه مهما تكن كمية الطعام الفائضة يجب أن توزع على المحتاجين الذين يعانون الفقر والجوع(٢).

كما أن الأميرة ثيودورا سيناديني فرضت أنه عند موت أي راهبة في ديرها ولمدة أربعين يومًا بعد موتها فإن نصيبها من الطعام يجب أن يوزع على المحتاجين الذين يأتون إلى بوابة الدير(٣).

مهما يكن من أمر، فإن هذه الحصص من الطعام الذي يتم توزيعها على بوابة الدير نظر إليها كعمل للمحبة والإحسان المسيحي الذي يكافئ الرب عليه، كما يتضح من لائحة دير الأميرة ثيودورا سيناديني بقولها : " بهذه الكسرات الصغيرة الفائضة منكن أنتن سوف تخففون من درجة فقرهم العظيمة، بكل من رحمتكم وشفقتكم وسروركم العظيم، لأنه من خلالهم أنتن سوف تطعمون المسيح، وكنتيجة لذلك أنتن تفعلن لأنفسكن فضلاً وإحسانًا أعظم من الذي تفعلونه لهم "(٤).

ولائحة بعض الأديرة النسائية توضح في تفصيل كبير الكميات الدقيقة التي تقدم في الذكرى السنوية لكل عضو من أعضاء أسرة المؤسسة، والتي تعكس شكل التسلسل الهرمي الاجتماعي، مشيرة إلى أهمية كل عضو من أسرة المؤسسة حسب درجة قرابته من الإمبراطورة أو الأميرة المؤسسة للدير، وكذلك حسب حجم الهبة أو التبرع الذي قدمه للدير،

---

(١) Bebaia Elpis, p. 1549.

(٢) نقلاً عن : Talbot, Byzantine Women, Saint's Lives, p. 118

(٣) Bebaia Elpis, p. 1565.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1549.

الأمر الذي ينعكس على مدى فخامة الاحتفال بإحياء الذكرى، من ناحية عدد الطقوس التي تقام بواسطة الراهبات، وإضاءة الشموع، ومقدار الصدقات التي توزع على بوابة الدير، وأيضًا كمية الطعام الذي تتناوله الراهبات في حجرة الطعام. ففي دير كيشمارتيموني Kecharitomene[١] للإمبراطورة إيرين ديوكاينا Irene Doukaina حددت الإمبراطورة أنه في الذكرى السنوية لوفاتها هي وزوجها الإمبراطور توزع عشرة أرغفة من الخبز وثمانية مكاييل من النبيذ وعشر عملات معدنية، في حين أنه عند إحياء ذكرى الموتى من أولادهم توزع خمسة أرغفة من الخبز وست عملات معدنية، ولأحفادهم ثلاثة أرغفة، وعينت إيرين تسعة عشر قريبًا لها، والذين يجب أن تحيا ذكراهم السنوية بحصص إضافية توزع على بوابة الدير، بالإضافة إلى تسعة أيام للأعياد، لتصبح ثمانية وعشرين يومًا يقدم فيها الطعام للفقراء والمحتاجين خارج الدير[٢].

أما الأميرة ثيودورا سينادينى فقد حددت أنه في إحياء ذكرى والديها السنوية والتي تقام في الخامس والعشرين من أكتوبر من كل عام، توزع أربعة أرغفة من الخبر وثلاثة مكاييل من النبيذ، ونفس المقدار من الخبز والنبيذ يوزع في إحياء ذكرى زوجها يوحنا أنجيلوس دوكاس سينادينى، أما ابنتها المحبوبة إيفرسون والتي دخلت الدير منذ طفولتها، فإن ثيودورا أكدت على ضرورة أن يتم إحياء الذكرى لهذه الابنة بصورة أكثر وفرة في كل مراسمها[٣]، أما ولداها يوحنا John وثيودور Theodore وزوجتهما، فقد أمرت ثيودورا أن يتم إحياء الذكرى لهم بنفس طريقة إحياء الذكرى لأبيها وأمها من حيث الصلاة وإضاءة الشموع وتوزيع

---

(١) دير كيشمارتيموني : أسس هذا الدير في القسطنطينية في فترة مبكرة من القرن الثاني عشر الميلادي بواسطة الإمبراطورة إيرين ديوكاينا زوجة الإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين، ويقع في الجزء الشمالي من العاصمة، ويجاوره دير ذكوري أسسته الإمبراطورة أيضًا سنة ١١٠٧م ولكن يفصل سور بين الديرين، وكانت قاعدة دير كيشمارتيموني تقوم على حياة نسكية صارمة، ولم يكن الراهبات ينمن في حجرات منفصلة وإنما في حجرات جماعية، وكان بجوار الدير مبنى فخمًا خصصته إيرين لأعضاء الأسرة الإمبراطورية الإناث اللاتي يرغبن في دخول الحياة الديرية.

لمزيد من التفاصيل عن الدير ولائحته، انظر:

Kecharitomene, Typikon of Empress Irene Doukaina Komnene For The Convent Of The Mother of God Kecharitomene in Constantinople, Trans. Jordan, R., in : BMFD, Washington. 2000, p. 649; See Also: ODB, 2, p. 1118.

(٢) Kecharitomene, pp. 687–8, 700–2.

(٣) Bebaia Elpis, pp. 1555–6.

الصدقات على بوابة الدير، والوفرة للراهبات في حجرة الطعام[١]، ثم تحدد بعد ذلك الأميرة ثيودورا كيفية إحياء الذكرى لأحفادها وأخويها وأيضًا أختها وزوجها وأبنائهما ثم حميها وغير ذلك من أعضاء أسرتها، كلاً حسب ما قدمه من منح للدير[٢].

المستشفى :

حرصت إمبراطورات وأميرات أسرة باليولوجوس على الاهتمام بالمستشفيات وإنفاق الكثير من الأموال على إنشائها لتوفير الخدمة العلاجية لكافة فئات المجتمع[٣]، ففي لائحة دير ليبس توجد معلومات عن مستشفى تقع بجوار كنيسة الدير، أقامتها الإمبراطورة ثيودورا لعلاج الراهبات وغيرهن من أفراد المجتمع خارج الدير ممن يحتاج الرعاية الطبية[٤].

وكانت مستشفى دير ليبس تقدم الرعاية الطبية لاثنتي عشرة مريضة، وكان يوجد بها عدد كبير من الموظفين، فكان بها ثلاثة أطباء للعناية بالمرضى وجراح، وكاهن للاحتياجات الدينية، ومساعد للطبيب وممرضة، وصيدلي رئيسي، وستة مساعدين، وصيدليين آخرين، وثلاث خادمات، إلى جانب طباخة وغسالة[٥]. وكانت الإمدادات المقدمة لهذه المستشفى وفيرة، فكان يقدم لها القمح والزيت والنبيذ والملح والخشب للتدفئة، كما ذكرت لائحة الدير ضرورة التغير السنوي لمفروشات وبطاطين المستشفى، وكذلك حددت مرتبات العاملين بهذه المؤسسة العلاجية، ذلك أن الكاهن الذي يؤدي الخدمات الدينية ويقيم الطقوس الأخيرة للراهبة المتوفاة يتقاضى سنويًا اثنتي عشرة نوميزماتا، أما الأطباء الثلاثة فكل منهم كان يتقاضى ست عشرة نوميزماتا سنويًا، والمساعد كان راتبه اثنتي عشرة نوميزماتا، أما الجراح فكان راتبه أربع عشرة نوميزماتا، وكانت الممرضة تتقاضى أربع عشرة نوميزماتا، والصيدلي الرئيسي كان يحصل على اثنتي عشرة نوميزماتا، والصيدليين الآخرين كان راتبهما مثل الصيدلي الرئيسي، أما الجراح فكان يتقاضى أربع عشرة نوميزماتا، والثلاثة خادمات كانت كل واحدة تحصل

---

(١) Bebaia Elpis, p. 1556.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن خدمات إحياء الذكرى لأقارب الأميرة ثيودورا، انظر :

Bebaia Elpis, pp. 1501–3

(٣) لمزيد من التفاصيل، انظر :

Constantelos, Byzantine Philanthropy, pp. 152–184.

(٤) Lips, p. 154.

(٥) Lips, p. 1281.

على عشرة نوميزماتا، وتحصل الطباخة على نفس راتب الخادمات، أما الغسالة فكانت تأخذ خمسة نوميزماتا، وكانت المستشفى تحت إشراف رئيسة الدير والمشرف المالي، واللذان عملا على توفير أكبر قدر من الرعاية والراحة للمرضى(١).

بيت الغرباء أو المسافرين :

اهتمت الإمبراطورات والأميرات البيزنطيات بإنشاء بيوت الغرباء أو المسافرين، والتي كانت منشآت هامة في العالم البيزنطي، ذلك أن السفر لم يكن عملية سهلة في العصور الوسطى خاصة بالنسبة للفقراء، ومن هنا كان هناك اهتمامًا خاصًا بمشكلة إطعام وإيواء المسافرين منذ بداية الإمبراطورية وحتى أواخر أيامها، وكانت وظيفة هذه المؤسسات الأساسية تقديم الطعام والمأوى للفقراء والغرباء والحجاج الذين يأتون للعاصمة أو يذهبون لمدن أخرى، سواءً لأعمال تجارية أو أغراض دينية، والذين لا يجدون مكانًا للإقامة، ومن ثم فإن هذه المؤسسة وجدت في المدينة الكبيرة والمدينة الإقليمية أو حتى على الطريق العام، بالإضافة إلى المؤسسات الديرية والكنائس والمزارات، وكانت تحتوي على غرف لإسكان الغرباء والفقراء، بالإضافة إلى مستوصف طبي منظم لرعايتهم(٢). وقد عبر ثيودور ستوديتي Theodore The Studite ، الذي كتب في الربع الأخير من القرن الثامن أو بداية القرن التاسع الميلادي عن أهمية العمل لهذه المنشأة بقوله :

يتقدم إلى بيت الضيافة يا إلهي

المسافرون المتعبون يتناولون طعامنا

والخبز الجذاب الذي يسر القلب

والنبيذ اللذيذ الكثير

ويتغطون بالأغطية التي تحمي من برد الشتاء(٣)

على أي حال، ساهمت نساء الأسرة الإمبراطورية في إقامة مثل هذه المؤسسات

---

(١) Lips, p. 1281.

(٢) Constantelos, Byzantine Philanthropy, pp. 153, 185–6.

(٣) نقلاً عن :

Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 216.

والإنفاق عليها، فقد أنشأت ثيودورا كنتاكزينوس إمبراطورة طرابيزون(١) بيت للمسافرين في القسطنطينية حيث أرسلت الأموال أثناء وجودها في طرابيزون إلى أختها لتقوم بإنشاء هذه المؤسسة الاجتماعية الهامة، وبعد عودة الإمبراطورة من طرابيزون بعد وفاة زوجها سنة ١٣٩٠م تولت الإشراف عليها، وقامت أيضًا بتجديد مبان دينية عديدة في القسطنطينية(٢).

كذلك فإن ماريا ديوكاينا زوجة ميخائيل جلاباس هي وزوجها قاموا بإنشاء بيت للمسافرين يحمل اسمه في القسطنطينية، وكان مبنىً ضخمًا للفقراء والمرضى والمعاقين، ويبدو أنه كان موجودًا بالقرب من الدير الذي أسسته هي وزوجها، ويدعى بامكريستسوس(٣).

وأيضًا كان هناك بيت للمسافرين في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي أو بداية القرن الخامس عشر الميلادي، شيدته سيدة تدعى ثيودوسيا كنتاكزينوس Theodosia Cantacuzenus في عهد الإمبراطور مانويل الثاني، وكرست له الكثير من الأموال والممتلكات بحيث كان يتم فيه إعالة الفقراء والغرباء والإنفاق عليهم(٤).

وقد استمر وجود مثل هذه المنشآت حتى فترة متأخرة من العصر البيزنطي، فالرحالة الفرنسي برتاندوا دي لا بروكير Bertandon de la Brocquiere الذي زار القسطنطينية في القرن الرابع عشر الميلادي، وجد أن المدينة مازال يوجد بها العديد من البيوت للمسافرين والغرباء(٥).

على أي حال، كان اهتمام البيزنطيين بإنشاء المؤسسات الاجتماعية والخيرية مستمرًا، وذكر يوحنا كنتاكزينوس أن الدولة البيزنطية كانت عامرة بالمؤسسات الخيرية، والتي استمرت حتى نهاية العصر البيزنطي، فيذكر أندرونيقوس كاليستوس Andronikos

---

(١) ثيودورا كنتاكزينوس : هي ابنة نقفور كنتاكزينوس Nicephoros Cantacuzenus تزوجت إمبراطور طرابيزون ألكسيوس الثالث Alexios III (١٣٤٩-١٣٩٠م) سنة ١٣٥١م وأصبحت إمبراطورة لطرابيزون.

Nicol, Byzantine Family, p. 143.

(٢) Constantelos, Poverty, Society and Philanthropy, p. 121; Nicol, Byzantine Family, p. 144.

(٣) Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 205.

(٤) Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 213.

(٥) نقلاً عن :

Constantelos, Poverty, Society and Philanthropy, p. 121.

Kallistos – الذي كان شاهد عيان على سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م – أن كثيرًا من المؤسسات الاجتماعية كالمستشفيات ودور المسنين والأيتام ومنازل الفقراء وغيرها من المباني التي تفتخر بها العاصمة قد تحطمت، ذلك أن القسطنطينية قد تمتعت بشهرة واسعة بأنها أم للفقراء والأيتام، ومكان راحة للمسافرين، وملجأ وملاذ للأرامل(١).

ومهما يكن من أمر، فإن الإمبراطورية البيزنطية كانت أمة يتنافس فيها الإمبراطور وأعضاء الأسرة الإمبراطورية وكذلك أصحاب المناصب العليا والأفراد من كل طبقات المجتمع مع بعضهم البعض في إقامة المؤسسات الاجتماعية، والتي كانت هدفًا وغاية أساسية يومية للحياة الإمبراطورية، وجزءًا لا يتجزأ من حياة الإمبراطورات والأميرات البيزنطيات، والذي أنفقن عليه كل غال وثمين(٢).

---

(١) نقلاً عن :

Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 136.

(٢) Constantelos, Byzantine Philanthropy, p. 136.

دور نساء الأسرة الإمبراطورية في النزاعات والحركات الدينية :

لم يكن دور نساء البلاط البيزنطى فى النزاعات والمشكلات الدينية التى عانت منها الإمبراطورية البيزنطية فى فترات عديدة من تاريخها محددًا بالفترة المبكرة، فإذا كان أولئك النسوة قد لعبن دوراً فى الحركة اللأيقونية، التى أزعجت الإمبراطورية البيزنطية طوال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، فقد أدين دوراً بارزاً فى بعض النزاعات والحركات الدينية التى اندلعت فى الإمبراطورية البيزنطية، وكان أبرزها مشكلة الوحدة الكنسية بين الكنيسة البيزنطية وكنيسة روما اللاتينية فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، تلك السياسة التى اضطر الإمبراطور ميخائيل الثامن إلى اتخاذها والتحالف مع البابوية، بعد أن أدرك أنها القوة السياسية والدينية الوحيدة فى الغرب الأوربى القادرة على حماية عرشه ضد محاولات شارل كونت أنجو Charles of Anjou[(١)] والبندقية لإخضاع القسطنطينية للسيطرة اللاتينية، وكان ثمن هذه الحماية البابوية قبول وحدة الكنيسة البيزنطية مع كنيسة روما، أو بمعنى آخر، خضوع الكنيسة البيزنطية لسيادة الكنيسة الغربية وتحقيق حلم بابوات روما، لذلك طرح ميخائيل الثامن موضوع الوحدة الكنسية للتفاوض، تلك المفاوضات التى أدت إلى إعلان الوحدة الكنسية فى مجمع ليون الثانى سنة ١٢٧٤م[(٢)].

---

(١) شارل كونت انجو: هو شقيق الملك الفرنسي لويس التاسع Louis IX (١٢٢٣-١٢٧٠م) ملك فرنسا وأصغر أخوته، توج ملكاً على نابولي وصقلية في فبراير سنة ١٢٦٥م، وهنا وجدت البندقية والتى كانت تسعى لاسترداد الحكم اللاتينى فى القسطنطينية ضالتها المنشودة فى شارل، والذى عرف بعدائه للقسطنطينية لدرجة أن المصادر البيزنطية تذكر أنه قضى كل حياته فى تشجيع وتنفيذ الأعمال العدائية ضد الإمبراطورية البيزنطية، وكان يسعى لإقامة دولة كبرى عاصمتها القسطنطينية، وتحالفت البندقية ممثلة فى إمبراطور القسطنطينية اللاتينى السابق بلدوين مع شارل أنجو ووليم فليهاردوين أمير أخايا اللاتيني والبابا كليمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥- ١٢٦٨م) ضد الإمبراطور ميخائيل الثامن، وكان هدف هذا التحالف تحطيم الإمبراطورية البيزنطية، بحيث أصبح تحالفًا شبه عالمي وسعى شارل إلى أن يضم إليه أكبر عدد ممكن من دول وسط أوربا وشمال البلقان ضد القسطنطينية مما دفع ميخائيل إلى اللجوء إلى النشاط الدبلوماسي والتفاهم مع البابا للحد من خطر شارل وحلفائه.

محمد مؤنس، الإمبراطورية البيزنطية، ص٣٨٠، حاشية رقم (١)؛ أحمد رشاد، السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٩- ٢٠٠.

(٢) لمزيد من التفاصيل عن الوحدة ومجمع ليون انظر:

Blemmydes,N., A Partial Account, Trans, Munitiz, J.A., Belg. 1988, pp. 106- 114, 119- 125.

أمل أحمد حامد، مجمع ليون الثانى ١٢٧٤م، دراسة فى مشروع الوحدة بين كنيستى القسطنيطينية وروما فى القرن الثالث عشر الميلادى [رسالة ماجستير غير منشورة - جامعة المنصورة - ١٩٩٧م].

وكان أقارب الإمبراطور ميخائيل الثامن أول المنشقين عليه والمعارضين لسياسته بداية من المناقشات التمهيدية للوحدة سنة ١٢٧٣م، وحتى إعلانها فى مجمع ليون، فعندما وصلت أنباء الوحدة الكنسية إلى القسطنطينية،ثارت مشاعر الاستياء لدى الغالبية العظمى فى العاصمة، واجتمع الحزب المعارض للوحدة حول ايرين- ايلوجيا- أصغر أخوات الإمبراطور ميخائيل الثامن والتى كانت لها هيبة وكلمة مسموعة لدى أخيها الإمبراطور، غير أن سياسته الدينية أدت إلى نشوب العداء بينهما، وأصبحت هى وبناتها من أشد المناوئين له، حتى أشير إليهن بأنهن قد تسببن فى الكثير من المتاعب والهموم للإمبراطور(١)، بل ووصل الأمر بها وهى الأخت المحبة لأخيها والأثيرة لديه أن أعلنت عن تفضيلها دمار أخيها وزوال دولته على أن تقبل تعرض العقيدة الأرثوذكسية لخطر الوحدة الدينية(٢)، وقد عانت أيلوجيا وابنتها ثيودورا روليان من الاضطهاد، وتمت إدانتهما كزعماء للمنشقين والقبض عليهما ومصادرة أملاكهن ونفيهن خارج القسطنطينية(٣) .

ووجهة النظر المعارضة للوحدة للأميرة ثيودورا روليان والتى قال عنها بلانوديس: إنها "عانت كثيرًا من الآلام فى سبيل العقيدة الأرثوذكسية"(٤) قد عبر عنها بوضوح فى سيرة شهداء الأيقونية التى كتبتها الأميرة وهى فى السجن بدافع من أمها – إيرين – فهى تتحدث عن الفوضى التى أصابت الكنيسة فى ذلك الوقت بسبب الاتفاق الذى تم بين الإمبراطور وأسقف روما، وتهاجم هؤلاء الذين تجاهلوا المذاهب المقدسة، وذلك "لأنهم أسرعوا بوقاحة نحو تدمير ليس فقط أرواحهم ولكن جعلوا كل شخص يشارك فى الموت الروحى"(٥) .

كذلك كانت ماريا ابنة إيرين وزوجة القيصر البلغارى قنسطنطين تش من أشد المعارضين للوحدة الكنسية، وسعت إلى تأييد رجال الدين والرهبان المعارضين للوحدة واستقبالهم فى بلاط زوجها القيصر، لدرجة أن باخميريوس يذكر " أن البلاط البلغارى أصبح

---

(١) Laurent, Notes de Chronologie, pp. 209– 210, Loenertz, R.J., "Memoire d'ogier, Protonotaire, Pour Marco et Nonces de Michel VIII Paleologue Auprés du Pape Nicholas III. 1278, Printemps-ete", OCP xxxi(1965), pp 384–5.

(٢) Nicol, Last Centuries, p .54.

(٣) Gregoras, Rhomaische Geschichte, I, p.149; See Also, Fassoulakis, Byzantine Family, p.25; Nicol, Byzantine Family, p.16, Laurent, Notes de Chronologie, p. 212.

(٤) Planoudes, Epigrams, p. 117.

(٥) Nicol, Byzantine Lady, pp 37– 8, 40, Fassoulakis, Byzantine Family, p. 25; Talbot, Bluestocking Nuns, 615.

فى عهدها ملجأ للمنشقين على الإمبراطور ميخائيل الثامن"(١)، ولم تكتف ماريا بذلك بل دبرت الخطط لمواجهة خالها الإمبراطور والتصدى له، وأرسلت سفارتين سنة ١٢٧٦م، أحداهما إلى بطريرك بيت المقدس تحثه فيها على أن يحرض السلطان الظاهر بيبرس سلطان مصر ضد ميخائيل الثامن، والسفارة الثانية أرسلتها إلى بلاط السلطان نفسه بحيث يتحرك السلطان من جهة والبلغار من جهة ويسببوا الاضطرابات للإمبراطور فى أراضيه، ولكن بيبرس اندهش من طلبها وأعاد السفراء إلى بلادهم ورفض تلبية رغبة ماريا(٢) .

كذلك فإن آنًا باليولوجوس زوجة نقفور الأول ديسبوت أبيروس، قد تحولت ضد خالها الإمبراطور، خاصة عندما علمت باضطهاد أمها ونفيها، ورحبت بالهاربين من القسطنطينية إلى أبيروس، وبدون شك قد دعمت زوجها فى مفاوضاته الدبلوماسية مع شارل أنجو للإطاحة بالإمبراطور ميخائيل الثامن والفوز بتاج القسطنطينية(٣). وأيضا دعم هؤلاء النساء بطريرك نيقية المخلوع أرسينوس وحركته، ذلك البطريرك الذى أدان ميخائيل الثامن كمغتصب للعرش الإمبراطوري، وأصدر ضده قرار الحرمان عندما أمر بسمل عيني الإمبراطور الصغير يوحنا الرابع لاسكاريس John IV Laskaris (١٢٥٨- ١٢٩١م) آخر أباطرة نيقية، مما دفع الإمبراطور إلى خلع البطريرك ونفيه،ولكن وُجِدَ له عدد كبير من الأنصار من رجال الدين والعلمانيين والرهبان، وكانت النتيجة قيام انشقاق الأرسينين والذى استمر لعقود طويلة يؤرق الإمبراطورية البيزنطية(٤).

كانت جماعة الرهبان المدافعين عن أرسينوس أكثر الرهبان رفضاً للوحدة الكنسية، ولعبوا دوراً خطيراً فى إشعال الثورة ضد سياسة الإمبراطور للوحدة، بل وكان لهم تأثيرًا

---

(١) Pachymeres, Relations Historiques, I, p. 544.

(٢) Pachymeres, Relations Historiques, pp. 544– 6; See Also, Ostrogorsky, The Palaeologi, p. 338; Miller, Balkan States, pp 527–8.

انظر أيضًا : ليلى عبدالجواد، علاقة الدولة البيزنطية بسلطنة المماليك، ص ٨٠؛ الأمين أبوسعده، العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوى الإسلامية، ص ٢٦٥- ٢٦٦؛ أحمد رشاد، السياسة الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، ص ١٧٢- ١٧٣.

(٣) Nicol, D., " The Relations of Charles of Anjou with Nikephoros of Epiros", BF iv (1972), p. 174; Despotate of Epiros, p. 30; Byzantine Family, p. 21.

(٤) Pachymeres, Relations Historiques, I, pp. 266– 70.

انظر أيضًا : رنسيمان، الحضارة البيزنطية، ص ١٣٧؛ عبدالقادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية، بيروت ١٩٦٦م، ص ١٧٧.

كبيرًا على عامة الشعب، حيث نظموا دعاياتهم بمهارة شديدة عن طريق النواب السريين، ونجحوا فى التغلغل داخل مختلف طبقات المجتمع البيزنطى، وبدأوا فى الاتصال بجميع المتمردين من الأمراء والأساقفة، وكذلك موظفى الإمبراطورية الذين فقدوا مناصبهم بسبب معارضتهم للوحدة، ليبثوا فيهم أفكارهم المعادية للاتين، وأعادوا الذكريات الأليمة لأيام الاحتلال اللاتينى وما ارتكبه اللاتين فى الكنائس البيزنطية من جرائم بشعة، وكذلك صور الاضطهاد التى تعرض لها البيزنطيون على يد اللاتين، ووجدت أفكار هؤلاء وحلفائهم التربة الخصبة التى ساعدت على إشعال الثورة ونشوب الاضطرابات داخل الإمبراطورية البيزنطية[١].

ووجدت هذه الجماعة التدعيم لها من أميرات البيت الإمبراطورى، فكانت إيرين أخت الإمبراطور ميخائيل الثامن وابنتها ثيودورا روليان من أشد المدعمين لها والمعجبين بالبطريرك أرسينوس وأفكاره، لدرجة أن الأميرة ثيودورا طلبت من الإمبراطور أندرونيقوس الثانى- فى فترة لاحقة- أن يسمح لها بنقل رفات البطريرك من كنيسة أياصوفيا إلى دير القديس اندرو التى قامت الأميرة بتجديده ووافق الإمبراطور على ذلك كجزء من سياسته لتهدئة الجماعة الأرسينية بعد إلغاء الوحدة الكنسية، وتم نقل الرفات إلى كنيسة القديس أندرو فى احتفال مهيب حضره الإمبراطور، وكبار رجال الدولة، والرهبان، وعامة الشعب[٢].

ولما كان نساء الأسرة الإمبراطورية من أشد المعارضين لسياسة الوحدة، فقد لعبن دوراً هاماً فى التشجيع على إلغائها بعد وفاة الإمبراطور ميخائيل الثامن، فكانت إيرين- عمة الإمبراطور أندرونيقوس الثانى- هى المحرك الأساسى وصاحبة الدور الهام فى التأثير عليه لإلغاء الوحدة الدينية بمجرد اعتلائه العرش الإمبراطوري سنة ١٢٨٢م[٣].

وهناك من يرى أن أندرونيقوس الثانى قد دفع بقوة فى سياسته الدينية بواسطة أمه

---

(١) Pachymeres, Relations Historiques, I, p. 270; See Also, Kyritses Byzantine Aristocracy, pp. 305- 6; Vasiliev, Byzantine Empire, 2, p. 661; Ostrogorsky, Byzantine State, pp. 410- 441.

(٢) Pachmeres, Andronico Palaeologo, II, pp. 85- 6; Gregoras, Rhomaische Geschichte, I, p. 149.

(٣) Pachymeres Andronico Palaeologo, II, pp. 114- 115; Gregoras, Rhomaische Geschichte I, p. 160; See Also: Laurent, Notes de chronologie, p. 210, Nicol, Byzantine Lady, p. 38.

الإمبراطورة ثيودورا، التى تخلت عن ولائها السابق للوحدة مع روما، واعترفت بالأرثوذكسية فى مجمع بلاشيران سنة ١٢٨٣م(١).

على أى حال، فإن أولئك النساء الإمبراطوريات قد شاركن بفاعلية فى مجمع إلغاء الوحدة الكنسية، واندفعت آنّا باليولوجوس قادمة من أبيروس لمساندة أمها إيرين فى حث أندرونيقوس الثانى على التنكر للوحدة الكنسية، وإذا كان من المحتمل حضورها المجمع الكنسى المعادى للوحدة فى بلاشيران، فإنه من المؤكد أنها حضرت المجمع الكنسى الذى عقد فى مدينة أدراميتون Adramyttion(٢) أوائل سنة ١٢٨٤م والذى أكد إنهاء الوحدة الكنسية فى صحبة أمها إيرين وأختها ثيودورا روليان(٣).

وثمة شاهد على حضور أولئك النساء مجمع إلغاء الوحدة الكنسية، وهو التصوير الجصي الموجود فى كنيسة دير بلاشيران في أرطا عاصمة أبيروس، والذي يصور أحد الاحتفالات الدينية فى القسطنطينية، والمشهد يدور فى ميدان العاصمة، ويصور رجلاً يحمل أيقونة العذراء وحوله رجال الدين والحشد المحتفل، ويتابع النساء المشهد من الشبابيك، وعلى حافة الميدان التجار الذين يعرضون سلعهم للمارة، وهناك ثلاث سيدات نبيلات مميزات عن الحشد المحتفل من الناحية اليسرى للمشهد يحملن فى أياديهن مواقد بخور ومصابيح، فحجم هؤلاء النساء فى التصوير وملابسهن وشكلهن الجليل عند مقارنتهن بالنساء الأخريات اللاتى يتبعهن، بالإضافة إلى هؤلاء الموجودات بالجانب الأيمن من المشهد يؤكد أصلهن الإمبراطورى ومكانتهن المميزة. ويفترض بيرايلت Perrault فى ضوء أحداث تولية أندرونيقوس الثانى العرش الإمبراطورى ورحيل آنّا باليولوجوس إلى القسطنطينية وإلغاء الوحدة الكنسية وعقد مجمع كنسى فى بلاشيران ثم فى أدراميتون بأنه يمكن القول بأن أولئك النساء الثلاث هن إيرين وابنتيها ثيودور روليان وآنّا باليولوجوس اللاتى تقابلن فى

---

(١) Talbot, Empress Theodora, p. 298.

(٢) أدراميتون: (هى أدرميت الحالية) مدينة تقع على الساحل الشمالى الغربى لآسيا الصغرى، حطمها القائد التركى تزاخاس Tazchas سنة ١٠٩٠م، ولكن أعيد تعميرها مرة أخرى وأصبحت قاعدة للدفاع عن القسطنطينية ضد الهجمات التركية والإيطالية، وتم الاستيلاء عليها بواسطة اللاتين سنة ١٢٠٥م وسيطر عليها الجنويون سنة ١٣٠٤م والعثمانيون سنة ١٣٣٤م.

ODB, I, p. 23, 227; Ramsay, Historical Geography, p. 114.

(٣) Pachymeres, Andronico Palaeologo, II, pp. 42– 3; See Also: Nicol, Despotate of Epiros, p. 3.

القسطنطينية وحضرن مجمع بلاشيران، وشاركن فى المجمع الذى عقد فى أدراميتون، وشاركن فى الاحتفال الذى تلى ذلك، ويبدو أن موت إيرين الذى حدث بعد ذلك بوقت قصير- منتصف سنة ١٢٨٤م- هو ما دفع ابنتها أنًا إلى اختيار هذا المشهد بصفة خاصة لدلالته الوجدانية، وتصويره بدير الراهبات فى بلاشيران لتخليد ذكرى أمها، فى وقت انتصار الأرثوذكسية والتى كافحت إيرين وبناتها من أجلها بحماس وتحملت الكثير من الصعوبات فى سبيلها(١).

على أى حال، فإن النساء البيزنطيات لم يقبلن فكرة الوحدة الكنسية فى أى مرحلة من تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فعندما أرسل الإمبراطور قنسطنطين الحادى عشر إلى روما ملتمساً المساعدة وعارضاً رغبته فى إقرار الاتحاد الكنسى(٢) وطلب من البابا إرسال وفد لإزالة ما تبقى من خلافات بسبب الانشقاق الدينى، وبعد وصول الوفد البابوى وتأييد الإمبراطور مشروع الوحدة الكنسية رفض النساء قبول هذه الوحدة، بل ولم يتعاملن مع رجال الكنيسة البيزنطية الذين أيدوا سياسة الإمبراطور، فيروى دوكاس، قصة سيدة كانت تعانى آلام المخاض، ولكن رفضت المشاركة فى العشاء الربانى، والقيام بطقس الاعتراف على يد قس مؤيد لمشروع الوحدة الكنسية، وفضلت أن تضع طفلها دون أن تتلقى الغفران على يديه(٣) كذلك رفضت الراهبات البيزنطيات الاتحاد الكنسى "ولم تقبل واحدة منهن هذه الفكرة" على حد قول دوكاس(٤) .

لم يقتصر دور نساء الأسرة الإمبراطورية على معارضة سياسة الوحدة الكنسية بل

---

(١) Perreault, Basilissa Anna, pp. 43- 6.

(٢) أرسل الإمبراطور قنسطنطين هذه السفارة أثناء حصار العثمانيين للقسطنطينية سنة ١٤٥٢م. فبعد أن فشل فى كسب القوى الأوربية إلى جواره والحصول على المساعدات لمواجهة العثمانيين أرسل إلى البابا نيقولاس الخامس Nicolas V (١٤٤٧- ١٤٥٥م) وأكد له أن سقوط الإمبراطورية يعنى التهديد المباشر لإيطاليا على يد العثمانيين، وعندئذ أعلن البابا عزمه عن إرسال أسطول للدفاع عن المدينة المحاصرة، ولكنه حاول الاستفادة من ظروف الإمبراطورية الحرجة وطلب من الإمبراطور إعلان الوحدة بين الكنائس، فوافق الإمبراطور وأرسل مندوباً من عنده لإتمام الاتفاق بين الجانبين.
السيد محمد المتولى، الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر [رسالة ماجستير غير منشورة- جامعة المنصورة- ١٩٩٨م]، ص ١٢٢- ١٣٢.

(٣) ميخائيل دوكاس، التاريخ البيزنطى، ص٢٣٤- ٢٣٦.

(٤) ميخائيل دوكاس، التاريخ البيزنطي، ص٢٤٤.

شاركن أيضاً فى كافة الأزمات والقضايا الدينية فى عصر أسرة باليولوجوس، ففى سنة ١٣٧٠م أعلن بطريرك القسطنطينية فيلوثيوس كوكينوس Philothes Kokkinos (١٣٥٣-١٣٦٤ / ١٣٧٦م)[١] رفضه لولع سيدات القسطنطينية الأرستقراطيات بالمشاركة والانخراط فى النزاعات والحركات الدينية[٢]، ومن هذه الحركات كانت حركة الزهد الصامت أو الهوسشستس Heschastes[٣]. وقد اشتركت الأميرة إيرين خومانوس بحماس فى هذا النزاع، وبذلت كل طاقتها الفكرية والمادية لمناهضة بالماس وحركته، وكرست نفوذها وثروتها لدعم

---

(١) البطريرك فيلوثيوس كوكينوس: ولد فى سالونيك سنة ١٣٠٠م ومات سنة ١٣٧٧م، لأبوين فقيرين وأصبح راهبًا فى أحد الأديرة على جبل أثوس، ثم رجع إلى سالونيك وعمل كرئيس لأحد الأديرة الذكورية هناك، وفى سنة ١٣٥٣م، تولى الكرسى البطريركى خلفاً لـ كالليستوس الأول Kallistos I الذى رفض تتويج متى كنتاكزينوس، ومع تنازل يوحنا كنتاكزينوس عن العرش نفى كوكينكوس ورجع كالليستوس، ولكنه عاد لمنصبه البطريركي بعد مرور عشر سنوات وبعد موت كالليستوس، وكانت فترة توليه البطريركية الثانية علامة مميزة للاعتراف بجريجورى بالماس Gregory Plamas رئيس أساقفة سالونيك والذى كان من مؤيديه وكتب عدة مناظرات ضد خصومه.

ODB, 2, pp. 923, 3, p. 1662.

(٢) نقلاً عن:

Laiou, Observations on the Life, pp. 96– 7.

(٣) حركة الزهد الصامت أو الهوسشستس أو البالمسية: نسبة إلى جوريجورى بالماس والذى كان أشهر رجالها وواضع قواعدها، وسميت بالزهد الصامت لاعتقاد أنصارها أن أفضل أساليب العبادة التى توصل الإنسان بخالقه هى الانقطاع عن الحياة وملازمة الصمت والعبادة. وعرفت هذه الحركة فى البداية عند رهبان جبل أثوس، وكان هدفهم رؤية النور الإلهى، وكان لديهم أسلوب معين من الصلاة والتأمل، ومن خلاله ادعوا أنهم قادرون على رؤية النور الإلهى بأعينهم البشرية، وقيل أن هذا النور أو الإشراق له نفس طبيعة وخصائص النور الذى ظهر للمسيح فى تجليه على جبل تابور وأصاب الرسل بفقدان البصر، وادعوا أنه بواسطة هذا النور المؤله يتحقق الخلاص والتأليه، لأن المتصوف يكون قادراً على أن يكتشف ويلاقى الرب . وبالفعل فإن التوحد مع الإله ممكن الوصول إليه بواسطة الخبرة البشرية من خلال أنشطة تعبدية . ولكن هذا الادعاء وما ينطوى عليه هو ما دعى البعض إلى اتهام أنصار هذه الحركة بالوقاحة، وهنا بدأ الخلاف الذى قسم الإمبراطورية البيزنطية ، وكان من أشد معارضيها بارلام أوف كالابريا Barlaam of Calabria – وهو راهب إيطالى وصل إلى القسطنطينية سنة ١٣٣٠م- وعبر عن معارضته فى سؤالين، وهما: كيف أن الفجوة بين الإله والإنسان يمكن عبورها؟ وكيف أن الإله الغامض يمكن إدراكه واكتشافه بواسطة الإنسان؟

لمزيد من التفاصيل :

- Nicol, D.M., Church and Society in the Last Centuries of Byzantium, Cambridge 1979, pp. 36– 40; Laiou, Observations on the Life, pp. 69– 70; Meyendorff, J., Introduction á L'etude de Grégoire Palamas, paris, 1959; ODB, 3, p. 1561.

هسى، ج.م، العالم البيزنطى، ترجمة رأفت عبدالحميد، القاهرة ١٩٩٧م، ص ٢٠٥، هامش رقم (١١)، عبدالقادر أحمد اليوسف، الإمبراطورية البيزنطية ص ١٧٧- ١٧٨.

خصمه اللدود الراهب جريجورى أكيندينوس، وبعد أن تمت إدانة الأخير سنة ١٣٤٠م، كفلت له الأميرة الحماية عندما جاء أعداؤه يبحثون عنه، كذلك اشتركت فى مناقشات لاهوتية مع أتباع بالماس وكتبت خطابات طويلة لهؤلاء الذين لم يحضروا هذه المناظرات لمهاجمة بالماس، وفى مايو سنة ١٣٤٢م، ساعدت إيرين بواسطة أقاربها وحاشيتها فى حشد عدد من الرهبان لمناصرة أكيندينوس وتنظيم مجمع كنسى ضد بالماس وأتباعه.(١)

وثمة دافع سياسى وراء مناهضة إيرين لبالماس، فإلى جانب اقتناعها بخطأ أفكاره، ففى الواقع إن كنتاكزينوس كان من أشد أنصار بالماس، ورأت الإقرار بالعرفان والجميل يفرض عليها ـ وهى التى اتصلت بأسرة باليولوجوس وتزوجت بداخلها ـ أن تعارض كنتاكزينوس مغتصب العرش البيزنطى من أصحاب الحق الشرعى ومعارضة أنصاره ومنهم بالماس(٢)، ويبدو أن سلوك إيرين ومعارضتها الشديدة قد أفزعت بالماس الذى صب جام غضبه عليها وهاجمها واستخف بها كامرأة تنتمى لأسرة خومانوس وليس باليولوجوس، فهى فى نظره امرأة غير رفيعة المنزلة منحت بعض السلطة، فراحت تتصرف كإمبراطورة حقيقية، ووصف بالماس خصمه أكيندينوس بأنه باع نفسه لهذه المرأة مقابل المساعدة المادية.(٣)

ورغم انتصار البالمسيين فى نهاية الصراع سنة ١٣٥١م فإن إيرين لم تتراجع عن رأيها وظلت على موقفها مما عرضها للكثير من المعاناة والمتاعب والمضايقات، والتى كانت على حساب صحتها، فماتت عجوزًا مريضة سنة ١٣٥٥م، بعد حياة حافلة بالعمل فقد عرفت كفاعلة خير وعالمة باللاهوت ومؤسسة ورئيسة لأكبر دير في القسطنطينية.(٤)

كذلك شارك عدد من راهبات القسطنطينية وسالونيك فى النزاع البالمسى، فهناك راهبة تدعى مارولينا Maroulina والتى كانت رئيسة أحد الأديرة فى القسطنطينية سنة ١٣٥٠م،

---

(١) Letters of Gregory Akindynos, p. xxiii; See Also: Talbot, Bluestocking Nuns, p.617, Verpeaux, Notes Prosopographiques, p. 260; Gill, Matrons and Brides, p. 56, Hero, Irene-Eulogia Choumnaina Palaiologina, pp. 140– 42.

(٢) Laurent, Princesse Byzantine, pp. 58– 9; Nicol, Byzantine Lady, pp. 68– 9; Hero, Irene-Eulogia Choumnaina Palaiologina, pp. 140–2.

(٣) نقلاً عن:

- Nicol, Byzantine Lady, p. 69; Hero, Irene- Eulogia Choumnaina Palaiologina, pp. 142–3.

(٤) Gregoras, Historiae Byzantinae, 3, p. 283; See Also: Hero Irene-Eulogia Choumnaina Palaiologina, pp. 142– 3; Talbot, Bluestocking Nuns, p. 617; Nicol, Byzantine Lady, p. 69.

ولكن صدرت عقوبة الحرمان الكنسى ضدها بسبب معارضتها لجريجورى بالماس، فقد اعتبرتها الكنيسة خطراً على روح الراهبات، وتم طردها من إدارة الدير.(١)

على النقيض من تلك السيدات اللاتى عارضن بالماس وحركته فقد كان هناك من شايعة، فقد لاقت أفكاره قبولاً لدى الإمبراطورة أناسافوى إبان فترة الحرب الأهلية بين سنتي ١٣٤١- ١٣٤٧م فشايعته وأدانت خصمه جريجورى أكيندينوس، وعندما حاول البطريرك يوحنا كالكاس رفع جريجورى إلى منصب الأسقفية رفضت الإمبراطورة أنّا ذلك بشدة، وأعلنت أنه يعارض قرارات المجمع الكنسى الذى ترأسه زوجها أندرونيقوس الثالث، وأدان أكيندينوس بوصفه هرطيقًا، وأعلنت أن هذا التعيين غير قانونى، وتعرض جريجورى للسجن والاضطهاد، ومع إصرار البطريرك على تعيينه، قامت أنا بعقد مجمع كنسى فى فبراير سنة ١٣٤٧م، وترأسته هى وابنها الصغير يوحنا الخامس، وقرر ذلك المجمع حرمان جريجورى وأتباعه وطردهم من الكنيسة.(٢)

كذلك ناصرت إيرين كنتاكزينوس بالماس لفترة من الوقت، لكن عندما مات أصغر أبنائها ويدعى أندرونيقوس، فقد أخبرها البعض أن موت ابنها كان عقاب الرب لها بسبب مشايعتها لبالماس، وأصابها الفزع، واتجهت مؤقتاً إلى الحزب المعادى له.(٣)

علاوة على ذلك فقد لعب النشاط الدينى والعبادة دوراً حيوياً فى حياة نساء الأسرة الإمبراطورية، وهناك العديد من الإمبراطورات اللاتى وصفن بالتقوى والورع والمواظبة على تأدية الطقوس الدينية، فكانت هناك الأميرة ماريا باليولوجوس والتى أرسلت إلى فارس سنة ١٢٦٥م لتتزوج هولاكو، وقيل إنه أثناء رحلتها البرية الطويلة كانت تؤدى الطقوس الدينية كاملة فى خيمة من الحرير المزين بصور القديسين، وحافظت على عقيدتها الدينية بعد زواجها ولم تغيرها، وأنشأت كنيسة فى فارس.(٤)

---

(١) Talbot, Bluestocking Nuns, p. 616.

(٢) Letters of Gregory Akindynos, pp. xxv- xxxi; See Also: Kyrris, Role de la Femme, p. 469.

(٣) Nicol, Byzantine, Lady, p. 76; Byzantine Family, pp. 105–6; Laiou, Women, p. 25.

(٤) Pachymeres, Relations Historiques, I, p. 234; See Also: Talbot, Building Activity in Constantinople, p. 334.

وقد حظى حضور النساء الصلوات والأعياد الدينية داخل الكنيسة وزيارة أضرحة القديسين قبولاً اجتماعيًا، كما قدم للمرأة – كما تشير تالبوت- فرصة مقبولة للخروج من المنزل والتعامل مع أناس آخرين بعيداً عن حدود الأسرة، هذا بالإضافة إلى إشباع حاجتهن الروحانية والوجدانية.(١)

وبداخل الكنيسة فإن النساء كن منفصلات عن الرجال، فغالباً ما كانت النساء تتواجدن فى الشرفات العلوية وفى أجنحة جانبية، بالإضافة إلى وجود ستائر على هذه الشرفات لحجب النساء عن أعين الرجال، ويصف الرحالة الروسى إجناتيوس السمولينسكى Ignatius of Smolensk النساء يقفن فى الشرفات العلوية خلف الستائر الحريرية حتى يمكنهن مشاهدة الصلوات دون أن يرى وجوههن الرجال المحتشدون فى صحن الكنيسة(٢) وكان للإمبراطورة بالكنيسة مكان خاص بها، عبارة عن حجرة كبيرة أو جناح يتألف من عدد من الحجرات مخصص لها، فكانت تتلقى فيه العشاء الربانى عند تتويجها داخل المذبح، فالرحالة الروسى إجناتيوس والذى كان شاهد عيان لتتويج الإمبراطور مانويل الثانى وزوجته هيلينا كنتاكزينوس يذكر أن الإمبراطورة دخلت المذبح من الأبواب الجانبية وتلقت العشاء الربانى فيه.(٣)

الرهبنة والديرية :

إذا كانت إمبراطورات وأميرات عصر باليولوجوس قد لعبن دوراً هاماً فى المجتمع البيزنطى، فقد أدين أيضًا دورًا مميزًا فى حياة الرهبنة والأديرة كافة طوال هذا العصر. وثمة دليل على هذا الدور الفعال وهو أن لوائح الأديرة النسائية المتبقية والتى تخص أديرة أسستها نساء من الأسرة الإمبراطورية هى ست لوائح، لائحة واحدة فقط تخص عصر كومنين بينما ترجع الخمس الباقية إلى عصر أسرة باليولوجوس(٤)، ومن هنا يمكن القول أن حياة الرهبنة النسائية فى عصر أسرة باليولوجوس دارت فى فلك هؤلاء النساء الإمبراطوريات وأديرتهن،

---

(١) Talbot, Women, p. 132; (Karras, V.A., The Liturgical Participation of Women in the Byzantine Church [PhD. Catholic University of America 2002], pp. 56– 7).

(٢) Majeska, Russian Travelers, p. 104, (Taft, R.F., " Women at Church in Byzantium: when-and why? "; Dop, 52 (1998) pp. 55–6; Karras, Liturgical Participation, pp. 74– 6).

(٣) Majeska, Russian Travelers, p. 104; See Also: Taft, Women at Church, pp. 55–6; Karras, Liturgical Participation, p.77.

(٤) انظر فهرست الترجمة الإنجليزية للوائح الأديرة البيزنطية.,BMFD.

والتى كانت عالمهن الخاص الذى رحلن إليه بعد أن تركن حياتهن فى القصر الإمبراطورى وعملن على تنظيمه وفق رغباتهن، فهن من وضعن اللوائح لهذه الأديرة ونظمن أسلوب الحياة والعمل فيها بما يتفق مع وضعهن الإمبراطورى، وبما يحقق أقصى درجة من الراحة والرفاهية لهن ولأقربائهن، ويتضح ذلك من خلال تناول نظام الحياة داخل هذه الأديرة النسائية الإمبراطورية.

وقبل تناول طبيعة الحياة والعمل من الناحية الفعلية فى هذه المؤسسات الإمبراطورية، لابد من استعراض القالب النظرى للقواعد المنظمة للحياة الديرية كما نصت عليه لوائح هذه المؤسسات الديرية، والذى يوضح مدى الفرق بين النظرية والتطبيق فى هذه المؤسسات المقامة بواسطة إمبراطورات وأميرات عصر أسرة باليولوجوس. ذلك أن حياة الرهبانية تتطلب هجران ورفض العالم من أجل حياة روحية أسمى، فكلمة الرهبنة مشتقة من الفعل اليونانى Movaζw، والذى يعنى "يعيش وحيداً"، وبالتالى كانت هناك ثلاثة شروط يجب توافرها فى الراهب أو الراهبة، وهى الطهارة والعفة، والفقر، والطاعة. وهذه الشروط ترتبط على نحو وثيق بقطع الروابط الأسرية. فالطهارة والعفة تستلزم الزهد فى متعة الزواج وإنجاب الأطفال، والفقر يعنى التخلى عن أى حقوق فى الإرث أو توزيع هذه الممتلكات، والطاعة لرئيسة الدير تحل محل الطاعة للوالدين والزوج.(١)

وهكذا فإن قطع العلاقات الدنيوية بما فيها الأسرية بعد دخول الدير كان المبدأ الأساسى للأديرة البيزنطية، ذلك باعتبار أن ارتباط الشخص بأسرته وممتلكاته يعد شاغلاً لفكره وعائقاً له عن ممارسة حياة نسكية مكرسة للمسيح، ومن ثم كان من بين التضحيات المتوقعة من أولئك الراغبين فى الحياة الرهبانية قطع كل الروابط الأسرية، ليس فقط مع الزوج، ولكن مع الوالدين والأبناء والأقارب، والتخلى كذلك عن الأملاك الشخصية.(٢)

فقد راح ثولبتوس يؤكد للأميرة إيرين خومانوس فى إحدى خطاباته لها على ذلك قائلاً: "يجب عليك أن تبيعى كل ممتلكاتك، وتتخلى عن والديك وأخوتك وأقاربك وأصدقائك المقربين وأموالك ومنازلك وممتلكاتك وحتى جسدك، وعوضاً عن ذلك سوف تفوزين باللؤلؤ النفيس،

---

(١) Talbot, A.M., "The Byzantine Family and the Monastery", In: Women and Religious Life in Byzantium, Ashgate 2001, p.119.

(٢) Talbot, Byzantine Family, p. 119.

المسيح الذى هو كل نعمة وفوق كل نعمة".[١]

وإذا كانت الرهبنة البيزنطية قد هدفت إلى تقليل الارتباط بين الراهبات وأسرهن، فقد كان من الضرورى أن تقدم رابطة تحل محل ذلك، فالجماعة الديرية التى تنضم إليها الراهبة تقدم لها صلة جديدة من القرابة الروحية تحل محل أسرتها، ومن هنا قامت أديرة الراهبات بدور الأسرة، وساد تعبير الأسرة فى النصوص الديرية وسير القديسين، فالراهبات داخل الدير تربطهم صلة الأخوة الروحية، فإحدى اللوائح الديرية النسائية تحث الراهبات على الحب الأخوى والمشاركة الوجدانية: " أحبوا بعضكن البعض حبًا أخويًا ... فإذا عانى عضو تتعب له سائر الأعضاء، وإذا عضو شرف بالعمل فى شكل يسر الرب، كل الأعضاء يسرون معاً"[٢]، وكانت توصف العلاقة بين رئيسة الدير والراهبات كعلاقة الأم ببناتها، ومن هنا حثت رئيسة الدير على حب ورعاية بناتها الراهبات والعناية بهن "كأم حقيقية تعتنى ببناتها وتهتم بهن، كأنهن ذراعاها وأعضاؤها".[٣]

وقدمت الحياة الديرية للراهبات بديلاً عن الزواج الدنيوى، فحينما تتخذ الراهبة القسم الديرى، فهى بذلك تصبح عروساً للمسيح "وتقترن به بالزواج الروحى"[٤] وفى لائحة دير الأميرة ثيودورا سينادينى تذكر عن ابنتها إيفرسون : " أقسمت منذ وقت طويل أن أزوج هذه الابنة العزيزة المحبوبة إلى وأزفها على العريس الوحيد الأنقى والأكمل بين كل الرجال"[٥] وكانت الهبات والأموال التى تقدمها الراهبة عادة عند دخولها الدير بمثابة المهر للمسيح، وتقدم للدير بواسطة الراهبة أو أسرتها.[٦]

كذلك كانت العزلة والفصل التام بين الجنسين أحد العناصر الأساسية فى النظرية الديرية، فقد أعلنت الأديرة النسائية أن حدودها محظورة على الرجال، ولكن لم يتم التمسك بهذه القاعدة عندما كان يتعلق الأمر بأقارب المؤسسة الذكور، فقد سمحت الإمبراطورة

---

(١) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 3, pp. 75.
انظر الملحق الرابع

(٢) Bebaia Elpis, p. 1536.

(٣) Bebaia Elpis, p. 1536.

(٤) Lips, p. 1270, Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. I, p. 35.

(٥) Bebaia Elpis, p. 1526.

(٦) Talbot, Byzantine Family, p. 121; Connor, Women of Byzantium, p. 269.

ثيودورا باليولوجوس بدخول الإمبراطور ورجال الدولة لديرها النسائى لزيارة الكنيسة أو قبور أقربائهن الموتى أو حضور الأعياد الدينية، بل وأعطت الإذن للمنشدين الرجال بالقدوم للدير لغناء الترانيم فى أحد الأعياد الدينية، حيث حضر ابنها الإمبراطور أندرونيقوس الثانى لتأدية الطقوس الدينية[١]. وكانت لائحة دير نيلوس دماليس أكثر مرونة، إذ سمحت لرجال السلطة والنبلاء، ليس فقط النبلاء المحليين، وإنما أيضاً الأجانب بالدخول وأن تفتح لهم الأبواب بكل سرور، وترحب بهم رئيسة الدير والراهبات كأفضل ما يكون.[٢] كذلك سمحت لبعض الرجال بدخول الدير والذى كان لا غنى عنهم، ذلك أن روتين الحياة اليومية للدير قد تطلب وجود هؤلاء الرجال لإنجاز بعض الأعمال، كالكهنة والآباء الروحيين والأطباء وحفارى القبور وأحياناً المشرفين الماليين كما سنرى.

ولكنها حصرت هذه الوظائف فى كبار السن والرجال المتزوجين والخصيان، بالإضافة إلى تحديد عدد مرات وجودهم، وكذلك مناطق تواجدهم داخل الدير لإنجاز أعمالهم.[٣]

وكان أكثر الزوار تردداً على الدير وأقربهم للراهبات، الكاهن، وذلك بسبب الحاجة إليه لإقامة الطقوس والشعائر الدينية، وكان يتراوح عدد الكهنة من دير إلى آخر، ففى دير الإمبراطورة ثيودورا ليبس كانوا أربعة كهنة، وفى دير أنارجيروى اثنان، أما دير الأميرة ثيودورا سينادينى كان هناك كاهن واحد.[٤] واشترطت لائحة الدير أن يكون الكاهن متزوجًا ومتقدمًا فى العمر، وأن يتصف بالتقوى وخشية الرب.[٥]

---

(١) Lips, p. 1270.

يجب ملاحظة أن الإمبراطورة إيرين ديوكاينا منعت دخول المنشدين من الرجال ديرها سواء أثناء الطقوس العادية أو فى أيام الأعياد أو خدمات إحياء الذكرى، مما يوضح مرونة الأديرة النسائية لعصر باليولوجوس عن عصر كومنين.

Kecharitomene, p. 704

(٢) Neilos Damilas, p. 1477.

(٣) Talbot, A-M., "Women's Space in Byzantine Monasteries", in: Women and Religious Life in Byzantium, Ashagate 2001, p. 120; "A Comparison of The Monastic Experience of Byzantine Men and Women" in: Women and Religious Life in Byzantium, Ashgate 2001, p. 13.

(٤) Lips, p. 1267; Anargyroi, p. 1292; Bebaia Elpis, p. 1536.

(٥) Neilos Damilas, pp. 1475– 6.

تشددت لائحة دير كيشاريتمونى فى شروط الكاهن، فقد اشترطت أن يكون خصيًا على عكس أديرة باليولوجوس والتي لم تضع هذا الشرط ضمن قواعدها.

Kecharitomene, p. 678.

وكان هناك رجل آخر يزور الدير النسائى بشكل منتظم، وهو الأب الروحى للراهبات، إما أن يكون راهبًا أو ناسكًا أو أسقفًا، وكان بمثابة معلمًا لهن، وحددت مهمته بسماع الاعترافات الفردية من الراهبات وإلقاء العظات عليهن، وكان يسمع اعترافات الراهبات فى ممر كنيسة الدير، أو داخله لو كان الطقس بارداً.(١)

وفى لائحة دير ليبس تصف الإمبراطورة ثيودورا الأب الروحى بممثل المسيح على الأرض، وتطلب من الراهبات أن يكشفن له عن أفكارهن ونزاعاتهن وأعمالهن، غير متحفظات أمام الشخص الذى اختير كنموذج للمسيح(٢)، وأكدت الأميرة ثيودورا سينادينى للراهبات على أهمية الاعتراف أمام الأب الروحى، وأنه يغفر الذنوب ويطهر الشخص من الآثام " فالروح التى تنوى الاعتراف فإنها تكبح من الإثم كما لو كانت قد لجمت".(٣)

وكان تكرار زيارة الأب الروحى للدير النسائى تختلف من دير إلى آخر، فقد كانت يومية فى دير الأميرة ثيودورا سينادينى، وثلاثة أيام فى الشهر فى دير الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس،حيث كان الأب الروحى يقضى ليلة فى حجرات صغيرة مصممة لهذا الغرض فى بيت الغرباء أو المسافرين الملحق بالدير.(٤)

وما يدل على السلطة المعنوية والنفسية التي يمارسها الأب الروحى على الراهبات، حث الأميرة ثيودورا سينادينى للراهبات أن يكن حريصات عندما يخترنه لأن حياتهن وخلاصهن يتوقفن على ذلك.(٥)

ومع أن لائحة دير الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس اشترطت فى المشرف المالى أن يكون من الرجال المشهود لهم بالتدين وحسن السمعة، إلا أنها فرضت بعض القيود على وجوده فى الدير، فهو لا يستطيع مقابلة رئيسة الدير إلا فى يوم محدد، وفى حضور كبار موظفى الدير والراهبات الرئيسيات، كما أنه لا يستطيع البقاء فى الدير حتى وجبة الغداء، ولو اضطر إلى ذلك فإنه يتناول طعامه فى واحدة من حجرات بيت الغرباء أو المسافرين، وليس

---

(١) Lips, pp. 268–9; Neilos Damilas, p. 1474; Anargyroi, p.1292.

(٢) Lips, p. 1269.

(٣) Bebaia Elpis, pp. 1553– 4.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1554.

(٥) Bebaia Elpis, p. 1554.

فى حجرة الطعام مع الراهبات[١]. فى حين كان يتم إسناد وظيفة المشرف المالى فى ديرى بيبا اليبس ونيلوس دماليس إلى راهبة.[٢]

أما الطبيب الذى كان دائماً ذكراً، فكان يزور الدير مرة واحدة فى الأسبوع باستثناء أيام الصوم، لأنه فى ذلك الوقت تغلق بوابة الدير أمام الجميع، ولكن إذا مرضت راهبة أثناء ذلك وكانت حالتها تستدعي وجود الطبيب، كان يسمح له بالتواجد بصفة يومية لمتابعة حالة الراهبة الصحية.[٣]

وإذا كانت قواعد المؤسسة الديرية- كما ذكرنا- قد سعت إلى قطع أى اتصال بين الراهبات والعالم الخارجى، وبصفة خاصة الانفصال عن الأشخاص الذين يذكرون الراهبة بروابط القرابة الدنيوية من الوالدين والأبناء والأقارب، إلا أن الأديرة النسائية المقامة بواسطة إمبراطورات وأميرات أسرة باليولوجوس قد سمحت للراهبات بقدر من الحركة والحرية فى الاتصال بالعالم الخارجى، وزيارة أقربائهن، بعد أن أدركت صعوبة تحقيق العزلة الكاملة عن الأهل، فرغم أن الأميرة ثيودورا سينادينى حذرت الراهبات من الانغماس العاطفى مع أقربائهن، وراحت تذكرهن بقسمهن فى رفض روابط العالم الخارجى، إلا أنها أيقنت أنه من الصعب المحافظة بصورة تامة على الطريقة المثالية للحياة الديرية، وذلك بسبب الضعف البشرى، ومن هنا ذكرت أنه: " يجب أن نخضع ونستسلم قليلاً ونخفف من حدة الانضباط بدون أن نسبب أى ضرر"[٤]، فإذا رغب قريب للراهبة في زيارتها فإنه يقابلها فى مكان ما عند البوابة الخارجية للدير، وفى حضور راهبة مسنة أو أكثر، من المشهود لهن بحسن السمعة[٥]. وإذا مرضت الراهبة وأرادت أمها أو أختها أو إحدى قريباتها زيارتها يسمح لها بذلك، بل وقضاء اليوم كله مع هذه المريضة، ولكن يجب أن ترحل هذه الزائرة فى المساء حتى ولو كانت الراهبة المريضة على وشك الموت، فلا يسمح لقريبتها بالمبيت فى الدير،

---

(١) Lips, pp. 1272–3; Anargyroi, p. 1292.

يجب ملاحظة أن دير كيشاريتمونى كان أكثر تشدداً فيمن يتم اختياره لهذه الوظيفة، حيث اشترط أن المشرف المالي يجب أن يكون خصياً وهو الشرط الذى لم ينص عليه لائحة أديرة باليولوجوس.

Kecharitomene, p. 677–8.

(٢) Bebaia Elpis, pp. 1538; Neilos Damilas, p. 1477.

(٣) Lips, p. 1270.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1513.

(٥) Lips p. 1270, Bebaia Elpis, p. 1515.

ولكن يمكن أن تعود لزيارتها فى اليوم التالى.[١]

إضافة إلى ذلك، فقد سمحت لوائح الأديرة النسائية للراهبات بمغادرة الدير، فإذا كانت لائحة دير كيشماريتيمونى قد سمحت للراهبة بالخروج من الدير فقط فى بعض الظروف الاستثنائية كمرض أحد الوالدين أو وفاته، وتصحبها راهبتان مسنتان، وتعود قبل حلول الليل[٢]، فإن أديرة باليولوجوس قد خففت هذه الصرامة، ومنحت للراهبات مرونة وحرية أكبر فى زيارة أقربائهن والخروج خارج أسوار الدير، فإذا رغبت الراهبة أن تزور أحد أقاربها تسمح لها رئيسة الدير بذلك، وتخرج غير مصحوبة من الدير، على أن تعود فى الحال بعد إتمام الزيارة، ولكن لو كانت هذه الراهبة امرأة غير موثوق فيها تصحبها راهبتان مسنتان[٣]. وسمحت قاعدة دير الأميرة ثيودورا سينادينى للراهبة بزيارة أقربائها بغرض الحصول على قدر من الاستجمام والراحة، ولكن إذا كانت الراهبة صغيرة السن تصحبها راهبتان عند مغادرتها الدير[٤]، وكانت مهمة هاتين الراهبتين مراقبة الصغيرة حتى لا يقع أى شئ يخالف القواعد الديرية، وعندما تعود هذه الراهبة فى المساء فإنها تروى تفاصيل الزيارة لرئيسة الدير، وتخبرها فيما فكرت فيه، وكذلك الأشياء التى حدثت ضد رغبتها، وما إذا كانت قد ظلت تخشى الرب طوال اليوم، وكذلك لو حاولت أن تخرج على أى قواعد متفق عليها، لأنها انساقت إليها بسبب تراخيها وكسلها، أو لأنها اندفعت لها غير راغبة بسبب ظروف خارجة عن إرادتها، وعندئذ فإن الرئيسة تستحسن ما هو جدير بالاستحسان، أو تصحح السلوك غير الملائم بتوجيه التعليمات المناسبة لها[٥].

كذلك كانت الراهبات يتركن أديرتهن لعدة أسباب أخرى، كمصاحبة رئيسة الدير الجديدة للقصر الإمبراطورى أو البطريركية، حيث كان الإمبراطور أو البطريرك يقلدها منصبها.[٦]

فضلاً عن ذلك فقد حث ثولبتوس راهبات دير الأميرة إيرين خومانوس على القيام بالأعمال الخيرية خارج الدير وزيارة المسجونين والمرضى وإمدادهم بما يحتاجون إليه، وأن

---

(١) Lips, p. 1270.

(٢) Kecharitomene, p. 679.

(٣) Lips, p. 1270.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1546.

(٥) Bebaia Elpis, p. 1546..

(٦) Lips, pp. 1262– 8; Bebaia Elpis, p. 1530.

يقمن بذلك بصورة منتظمة قائلاً: "هل يوجد فى غيابات السجون مسجون تخلى عنه أقاربه أو خذله أصدقاؤه احتقاراً له أو قاطعه جيرانه؟ علينا نحن أن نتوجه إلى سجنه ونزوره، ونخفف عنه، وعلينا أن نكفله ونتعاطف معه ونواسيه، وآخر استسلم للملذات وانغمس فى القيام بأعماله، علينا أن نلتزم بنصحه وأن نمهد له الطريق إلى الكنيسة "[١] وأيضاً ذهبت الراهبات لحضور جنازات أقربائهن، فقد ذهبت الأميرة إيرين باليولوجوس لجنازة عمها ونصحها معلمها الروحى بأن "تتخذ العبرة من الموت".[٢]

وقد وجدت أسباب عملية لخروج الراهبات خارج حدود الدير، كالحاجة لشراء حطب الوقود من السوق، أو تقديم التماس أو شهادة أمام المجمع الكنسى، أو جمع الأجور المتأخرة من المستأجرين.[٣]

ومن هنا يمكن القول أن أديرة عصر باليولوجوس التي أسست بواسطة الإمبراطورات والأميرات لم تستطع أن تنعزل عن العالم من حولها، ولم تستطع منع الرجال تمامًا من دخول الدير النسائي، وكذلك فإن الراهبات لم يستطعن تحقيق النموذج المثالى للعزلة والانفصال تماماً عن الأهل، وأوضح مثال على ذلك الأميرة إيرين باليولوجوس التى ارتبطت بشدة مع أسرتها والقصر الإمبراطورى، بل والعالم من حولها، ذلك الارتباط الذى حذرها منه مرات عديدة ثولبتوس، ونبهها من خطورته على تقدمها الروحى، وتناقضه مع مثالية وهدف وقواعد الحياة الديرية، فهذا الارتباط بالأسرة والأقارب هو ما جعل الأميرة إيرين تحيا حياة ديرية أقل كمالاً، ففى أحد خطابات ثولبتوس لها يقول :" تخلى عن الزيارات المتكررة للقصر، واتركى جموع الخدم، وابتعدى عن تفاهة كل تملق.. بمفردك ولوحدك سوف توضعين فى القبر، وبمفردك سوف تقفين أمام المحكمة الإلهية المروعة... بمفردك سوف تجيبين على سلوكك، أنت لن تجدى أحدًا يدافع عن موقفك، لا أحد من والديك ولا من أقاربك ولا أحدًا من الذين قاموا بتملقك، ولا أحدًا من حرسك أو مرافقيك أو خدمك..."[٤] وقائلاً لها أيضاً: "أنت لازلت تتمتعين بربيع الراحة وتعتمدين على مواساة والديك، أخواتك، أقاربك، أصدقائك، وكل معارفك، أنت تتمتعين بعطر المدح الذى يغدقه عليك المقربون....".[٥]

---

(١) نقلاً عن:

Laurent, Princesse Byzantine, p. 54.

(٢) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 22, p. 111.

(٣) Talbot, Acomparison of Monastic Experience, p. 13.

(٤) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. I, p. 35.

(٥) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 3, p. 71.

– انظر الملحق الرابع.

كذلك نبهها أستاذها الثانى إلى أن اتصالها المستمر مع أسرتها والعالم الخارجى كان السبب فى ضيقها وعنائها[1]، كما أن إيرين كانت تعقد الاجتماعات فى ديرها أيام السبت والأحد من كل أسبوع والذى كان يحضرها والداها والعديد من رجال الدولة والمفكرين والفلاسفة فى عصرها وغيرهم من أصدقائها الارستقراطيين، وكانت تعرف منهم أخبار البلاط الإمبراطورى وتناقش معهم الأمور الدنيوية والدينية[2]، ويبدو أنه كان من الصعب على امرأة فى وضع إيرين السابق ومكانتها قبل أن تدخل الدير، أن تعيش حياة معزولة بصورة كاملة عن العالم والبلاط الإمبراطورى وحياته.[3]

ومما يدل على عجز النظام الديرى عن تحقيق النموذج الأمثل لقطع العلاقات الأسرية والخارجية والفصل بين الجنسين ما عرف باسم الأديرة الثنائية، وفيها يعيش الأقارب من الرهبان والراهبات فى أبنية متجاورة أو منضمة كل منها للآخر تحت إدارة واحدة، وتدعم بنفس الموارد الاقتصادية، وتكون لهم بعض الأنشطة المشتركة.[4]

قد بدأت المعارضة الرسمية لهذا النوع من الأديرة سنة ٥٠٧م، ثم أمر الإمبراطور جستنيان بإلغاء هذا النظام الديرى، و فى سنة ٧٨٧م حذر مجمع نيقية من إنشاء أديرة ثنائية جديدة، وطالب الأقارب من الرجال أن يذهبوا إلى أديرة الرجال، والنساء أن يذهبن إلى أديرة النساء.[5]

وفى سنة ٨١٠م ذهب البطريرك نقفور الأول Nicephoros I (٨٠٦- ٨١٥م)[6] إلى

---

(١) Correspondence of Princess Irene, Letter, No. 19, p. 95.

(٢) Laiou, Observations on the Life, p. 96; Verpeaux, Notes Prosopographiques, p. 252.

(٣) Nicol, Byzantine Lady, p. 64.

(٤) Trone, Double Monastery, p. 81.

(٥) نقلاً عن :

Neilos Damilas, pp. 1471–2; Trone, Double Monastery, p. 81.

(٦) نقفور الأول: بطريرك القسطنطينية في الفترة الممتدة (٨٠٦- ٨١٥م)، مؤرخ وقديس ولد فى القسطنطينية سنة ٧٥٠م ومات كراهب، وقد رحل مع أبيه إلى نيقية، ثم عاد إلى العاصمة وعمل كسكرتير إمبراطورى، وبعد ذلك انسحب من الحياة العملية وأسس عدة أديرة على الشاطئ الشرقى للبوسفور، وعندما تولى المنصب البطريركى واجه عدة مشكلات وتعرض للكثير من المصاعب، وكتب التاريخ وعدة كتب للدفاع عن الأيقونية والذى كان من أشد أنصارها.

لمزيد من التفاصيل انظر:

Nikephoros I, Life of the Patriarch Nikephoros I of Constantinople, Trans, Fisher, E.A., in: Byzantine Defenders of Images, Eight Saints' Lives in English Translation, ed. Talbot, A-M. Washington 1998, pp. 25–40; See Also: ODB, 3,P. 1477.

خطوة أبعد من ذلك، حيث أوقف كل الأديرة الثنائية وهدد بالحرمان الكنسى ضد أى أسقف أو رئيس دير أو أى رجل دين يوافق على هذا النوع من الأديرة، والذى مثل الاختلاط فيها بين الرهبان والراهبات مشكلة كبيرة، وكاتب سيرته ينسب له أنه وضع حدًا للقضاء على هذا النوع من الأديرة.(١)

ولمدة ثلاثة قرون بعد قرارات البطريرك نقفور لم تذكر أى أديرة ثنائية فى المصادر، ولكن عادت هذه الأديرة للظهور مرة أخرى فى القرن الثانى عشر الميلادى، ثم شهد عصر باليولوجوس إحياء مثل هذا النوع من المؤسسات، وأنشأت الأميرة إيرين خومانوس الدير الثنائى كريست فيلانثروبينوس فى القسطنطينية. ورغم أن البطريرك أثناسيوس هاجم هذه الممارسة إلا أنه أسس ديرين ثنائيين بنفسه، أحدهما يدعى نيوموني Nea Mone والآخر على أحد الجبال فى القسطنطينية.(٢)

وكان البطريرك يهدف من وجود هذه الأديرة أن تكون مسكنًا للرجال والنساء المثاليين الذين وصلوا إلى ذروة الحصانة من أى ميل أو عاطفة... وفى نفس الوقت رجال ونساء متحدون، ولكن لكل منهم معيشته المنفصلة، ولكن يجب أن يخضع النساء للرجال، ويكون لهم نفس الطعام وطريقة الحياة، ويطيعون رئيسة الدير، وطعامهم وممتلكاتهم مشتركة، وعلى الرجال العمل في الدير وتوفير احتياجات الطعام للنساء.(٣)

هكذا كان النساء فى ظل هذا النظام يخضعن للرجال واللائي بدورهن يعملن على توفير الغذاء، إلا أن هذا النظام المثالى الذى تخيله أثناسيوس قد انهار بعد وفاته لأن الراهبات لم يعملن، وأهمل الرهبان زراعة الأرض، وتم تقسيم الدير إلى قسمين منفصلين.(٤)

ومما يدل على العلاقة بين الرجال والنساء فى هذه الأديرة خطبة ألقاها ثولبتوس فى عيد الفصح على الراهبات فى دير الأميرة إيرين خومانوس، واختار حدث الموت المفاجئ لأحد رهبان الدير موضوعاً لها قائلاً: "إخوتى، أنتن تعرفونه، كنتن ترونه بأعينكن، لقد كان

---

(١) Life of the Patriarch Nikephoros I, pp. 65– 8; See Also: (Trone, Double Monastery, p. 82.

(٢) Talbot, A-M., Double Monastery, ODB, I, p. 1392.

(٣) Talbot, A Comparison of The Monastic Experience, p. 6.

(٤) Talbot, Women's Space, p. 119; A Comparison of The Monastic Experience, p. 7.

نديمكن ورفيقكن على مائدة الطعام، ومعه أنتن تسرن فى بحر هذه الحياة"(١) وإذا نظرنا إلى تأكيد إيرين فى لائحة ديرها على ضرورة الحياة المشتركة للجماعة الديرية فى كافة الأمور المتعلقة بالحياة داخل الدير(٢) فإنه يمكن القول أن الرجال والنساء فى ديرها كانوا يترافقون على مائدة الطعام، وكان لهم طعام مشترك ويقومون ببعض الأعمال معاً.

ومهما يكن من أمر، فإن الراهبات لم يستطعن تحقيق النموذج المثالى للعزلة والانفصال عن العالم الخارجى، ورأينا كيف أن هناك اختلافًا بين القواعد النظرية التى حددتها قواعد الأديرة النسائية وبين التطبيق الفعلى في الأديرة المقامة بواسطة إمبراطورات وأميرات عصر باليولوجوس، فهل هذا الاختلاف كان هو السائد فى بقية القواعد المنظمة لحياة الراهبات وسلوكهن داخل الدير وعلاقتهن بعضهن بالبعض، وعلاقتهن برئيسة الدير ؟ أم أنه كان هناك اتفاق بين القواعد النظرية والممارسة الفعلية داخل الأديرة النسائية ؟

فى البداية نتحدث عن "النظرية" أو "القواعد" كما نصت عليها لوائح الأديرة النسائية الأرستقراطية، فالهدف الأسمى من تأسيس الدير النسائى، هو توفير مجتمع جديد تدخله المرأة بإرادتها واختيارها، وتستبدل روابط القرابة الدنيوية بروابط القرابة الروحية، وهذا المجتمع الجديد قائم على الحب والمساواة بين راهبات هدفهن مشترك، وهو تحقيق الكمال الروحى من خلال حياة مكرسة للرب والمسيح والعذراء، حياة تتسم بنكران الذات والحب والطاعة والمشاركة بين الراهبات فى كل أمر أو عمل داخل الدير، وقد عبرت اللوائح الديرية عن ذلك كثيراً، فلائحة دير الأميرة ثيودورا سينادينى تذكر أن " الدير هو المنزل وورشة الفضيلة لهؤلاء الذين اختاروا الحياة وفقاً لما يحبه الرب، وهؤلاء الراهبات اللاتي تخلين عن الحياة الدنيوية وفقدن كل شئ فى العالم وتحملن بسرور ومتعة كل صعوبة ومشقة من أجل المسيح حبهن الحقيقى"(٣) وتذكر أيضاً اللائحة نفسها "أن هؤلاء الراهبات قد تخلين عن العالم واحتقرن كل الأشياء الدنيوية من أجل خدمة الرب والفوز بمملكته"(٤)، وتؤكد على هذه القاعدة لائحة دير الأميرة إيرين خومانوس فتذكر أن "هؤلاء الراهبات قد اعتزلن العالم والأشياء الدنيوية

---

(١) نقلاً عن :

Trone, Double Monastery, pp. 85–6; Laurent, Princesse Byzantine, p. 49.

(٢) Philanthropos, p. 1387.

(٣) Bebaia Elpis pp. 1523–4.

(٤) Bebaia Elpis, pp. 1523–4.

واتخذن الملجأ الهادئ فى حياة الدير ليعشن وفقاً للرب معلنات رغبتهن فى كبح الجسد عن الشهوات".[١]

كذلك تشدد لوائح الأديرة النسائية على ضرورة أن تعيش الراهبات حياة نسكية جماعية، فحياة الإنسان وحيداً غير صحيحة له، لأن الوحدة تؤدى إلى الإهمال والغفلة، ولكن الحياة المشتركة يمكن من خلالها للراهبات أن ينتصرن على رغباتهن الشخصية ونزعاتهن ويحققن الكمال الروحى. فتأمر لائحة دير الأميرة ثيودورا سينادينى الراهبات بالمحافظة على الحياة المشتركة، وأن كل حياة خاصة أو ممتلك خاص يجب ألا يكون له وجود " فإنكن تملكن كل شئ مشترك، أرواحكن، أفكاركن، أجسادكن، الطعام والضروريات المادية، بل والأكثر أهمية أن الرب نفسه لكن مشترك، الخلاص مشترك، آلامكن مشتركة، كفاحكن مشترك، محاكمتكن مشتركة، إنجازاتكن مشتركة....".[٢]

وأصرت الأميرة إيرين خومانوس فى لائحة ديرها على ضرورة أن تعيش الراهبات حياة نسكية مشتركة وأن يخصصن مقدارًا معيناً من الاهتمام لأنشطتهن المشتركة ولعملهن اليدوى وخدماتهن الكنسية وسائر الأعمال، فهن بهذه الطريقة يتصرفن كراهبات وليس كنساء عاديات[٣]، وحذرت الراهبة من أن تمتلك شيئاً أو تعمل شغلاً يدويًا لنفسها، حتى لو كان رباطًا أو حبلاً من الصوف، أو إعداد طعام خاص فى حجرتها، فإن ذلك كله يعدّ سرقة وانتهاكاً للمقدسات، ومن تفعل ذلك تتعرض للتأديب بل والطرد من الدير.[٤]

كذلك أكدت اللوائح الديرية على أنه لا ينبغى استخدام أى مبرر أو ذريعة لتغيير ذلك الأسلوب فى الحياة، وخولت لرئيسة الدير أمر مراجعة الراهبات وتصحيح سلوكهن، خاصة لو أن واحدة منهن اتجهت نحو خرق هذه القاعدة، ونصت لائحة الأميرة إيرين أن "قاعدة هذا النظام النسكى يجب أن تكون دائماً قوية وراسخة ولا تتأثر بأى محنة أو مبرر أو ذريعة مهما يكن، لا بسبب الثراء أو بسبب الفقر، ولا خلال الندرة أو الغزارة ولا أى مبرر آخر معقول أو ذريعة مهما يكن، ولكن النظام النسكى وطريقة الحياة يجب أن يحافظ عليها ولا تتغير

---

(١) Philanthropos, p. 1387.

(٢) Bebaia Elpis, p. 1536.

(٣) Philanthropos, p. 1386.

(٤) Philanthropos, p. 1386.

للأبد، حتى لو انخفض دخل الدير إلى حد يكفى راهبتين، فنحن نأمل أن يعشن فى طريقة نسكية ويعملن وفق هذه الطريقة فى الحياة ".[١]

وتتضمن لوائح الأديرة النسائية أيضاً مبادئ تؤكد على ضرورة أن تعيش الراهبات فى جو من الحب والمساواة والأخوة والأمومة الروحية، فتحث الراهبات أن يحب بعضهن البعض كأخوة، وأن ينبذن كل اختلاف أو خصومة أو كراهية أو حقد، وبذلك يعشن حياة الملائكة ويكن جديرات بحجرات الزفاف الدائمة، وتلك النعم التى لا عين رأتها ولا أذن سمعتها ولا قلب إنسان تخيلها، وهى ما أعده الرب لهن.[٢]

وأكدت لائحة دير نيلوس دماليس على ضرورة العيش فى سلام وحب ومودة بين الراهبات، فمن تحب أختها فهى تحب الرب، ولو لم تكّن الراهبة الحب لأختها، فهى لن تحرز أى شئ فى حياتها الروحية، وتحقيق هذا الحب يتطلب عدة شروط "فالمحب يكون الصابر العطوف، المحب ليس الغيور أو المتبجح، وليس المتغطرس أو المتوحش، والمحب لا يكون سريع الانفعال ولا يسعد بالخطأ ولكن يسر بالصواب، المحب يحمل كل الأشياء، يصدق كل الأشياء، ويأمل فى كل الأشياء ويتحمل كل الأشياء، فالحب لا نهاية له".[٣]

هذا عن علاقة الراهبات ببعضهن البعض، والتى وصفتها اللوائح الديرية بعلاقة الأخوة الروحية، وما يرتبط بهذه الأخوة من شروط.

أما عن علاقة رئيسة الدير بالراهبات والتى كانت بمثابة أم روحية لبناتها، فقد عبر عنها ثولبتوس للأميرة إيرين خومانوس بقوله: " يجب على رئيسة الدير أن تهتم بالراهبات، ويجب عليهن أن يطعن أوامرها ويقدمن لها الاحترام والتبجيل الملائم ".[٤] فهى بالنسبة لهن كل شئ، " فهى تقوم مقام أبائهن وأمهاتهن وأخواتهن وأقربائهن ومعارفهن وأصدقائهن وهى معلمتهن وناصحتهن....".[٥]

ومن هنا حُثّت رئيسة الدير على محبة الراهبات ورعايتهن كأم لهن "وأن توزع حبها

---

(١) Philanthropos, p. 1387.

(٢) Lips, p. 1274; Bebaia Elpis, pp. 1536–7.

(٣) Neilos Damilas, pp. 1467–8.

(٤) Letters of Theoleptos of Philadlphia, Letter No. 3, p. 87.

(٥) Bebaia Elpis p. 1534.

وعطفها بالتساوى بينهن مثل أشعة الشمس، ليس كثيراً ولا قليلاً"[١] وأن تكون مصدرًا لنصحهن وتشجيعهن، وأن ترعى المريضة منهن وتستدعى لها الطبيب، وتوفر الطعام المناسب لها، بل وتأخذها بنفسها إلى الحمام، وأن تعمل كل شئ لراحتها حتى تسترد صحتها[٢]، وينصح ثولبتوس إيرين خومانوس بزيارة ورعاية الراهبة المريضة بقوله:"زورى أختك المريضة وحاولى أن تسعفيها بيدك، وكونى موجودة عندما تلفظ أختك النفس الأخير..."[٣] وإذا اضطرت رئيسة الدير إلى توقيع العقاب على إحدى الراهبات فلتفعل ذلك برفق وحب الأم دون غضب أو انفعال[٤] . وفى المقابل كان يجب على الراهبات طاعة رئيسة الدير طاعة تامة، فتذكر لائحة الأميرة ثيودورا : " أن الراهبات يجب أن يطعن الرئيسة مثل الحيوانات التى تحمل الأثقال فى طاعتها لأسيادها، أو الأدوات الصلبة فى يد الحرفى "[٥] وأن كل كل كلمة أو أمر بواسطة الرئيسة تكون قانونًا يجب على الراهبة قبوله وطاعته دون سؤال، وأن تنفذه بكل سرور"[٦] " وأن تلتزم الراهبة بأوامرها وتبتعد عن نواهيها، وألا تفعل شيئًا أو تتلقى شيئًا من خارج الدير دون علمها، وألا تترك الدير دون إذنها "[٧].

إضافة إلى ما سبق فقد أكدت اللوائح الديرية على ضرورة المساواة بين الراهبات فى كل أمور الحياة داخل الدير، ولضمان تحقيق هذا المبدأ لم تطلب قواعد الدير من الراهبات عند الدخول تقديم أى تبرع، ولم يطلب منهن ما يسمى "هبة الدخول"، ولكن إذا رغبت الراهبة أن تقوم بالتبرع فإن ذلك يقبل بشرط ألا يؤثر على وضع الراهبة داخل الدير، وألا يكون مبررًا للتفاخر والغرور، أو مبررًا للتصرف بطريقة متعجرفة تجاه أخواتها، أو أن تعفى نفسها من أسلوب الحياة أو العمل المفروض داخل الدير، ولكن ينبغى أن تتصرف كما لو كانت لم تقدم أى تبرع، وتتساوى مع غيرها فى الامتيازات المقدمة، وكذلك في الخضوع لنظام الدير، وتلتزم بكل الأوامر التى تلتزم بها بقية الراهبات[٨]. وأكدت لائحة الإمبراطورة ثيودورا

---

(١) Bebaia Elpis p. 1534.

(٢) Bebaia Elpis, pp. 1534, 1546– 50.

(٣) Letter of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 2, p. 67.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1542.

(٥) Bebaia Elpis, p. 1430.

(٦) Bebaia Elpis, pp. 1558–9.

(٧) Lips, p. 1264; Bebaia Elpis, pp. 1534– 6.

(٨) Lips, p. 1269.

باليولوجوس على ضرورة المساواة فى الطعام والشراب بين الراهبات بصرف النظر عن وضع الراهبة، فالنبالة أو نقصها لا علاقة لها بوضع الراهبة فى الدير، فكل الراهبات " يقدم لهن نفس الخبز والطعام والنبيذ الذى يوضع أمام الراهبات على طول المائدة من البداية إلى النهاية ومن الأولى للأخيرة، وأن تكون النسب متساوية، لأنه لا يوجد مبرر لأن تأخذ بعض الراهبات أكثر وأخريات أقل، أو البعض كثيراً والآخر قليلاً، ولا البعض يقدم لهن طعام أفضل وأخريات طعام أسوأ"[١].

ولا يجوز لأى راهبة أن "تطلب طعامًا مختلفًا عن بقية الراهبات بسبب تفاخرها بالنسب أو النبالة أو السن أو درجة أعلى فى التعليم، أو لأنها رئيسة الدير، أو بسبب التبرع بأموال أو ممتلكات أو أى أشياء أخرى للدير"[٢] كذلك لا ينبغى لأى راهبة أن تحتفظ بشئ أو تأكل شيئًا فى حجرتها، وإذا حدث وأرسل إليها طعام من الخارج بواسطة أقاربها يجب ألا تأخذه لها، وإنما يوضع على المائدة فى حجرة الطعام، وتتناوله بدون أى لوم، ولكن إذا كان هذا الطعام كمية كبيرة فإنه يتم تقسيمه بحيث يتلقى كل الراهبات منه أجزاء متساوية، حتى ولو كانت أجزاء صغيرة، أما إذا كان غير كاف للتقسيم فإنه يوزع على الراهبات المرضى فقط.[٣]

على هذا النحو يمكن القول أن القاعدة الثانية فى الرهبانية النسائية داخل الأديرة الإمبراطورية، كانت حياة نسكية جماعية، قائمة على الحب ونبذ الكراهية والخلاف وعلاقات الأمومة والأخوة والمساواة بين جميع الراهبات.

فإذا كانت هذه القاعدة التى وضعتها اللوائح الديرية، فإلى أى مدى تم تطبيقها فى حياة الراهبات؟

فى البداية نشير إلى أن القراءة الجيدة للوائح الديرية تكشف عن تميز واختلاف واضح بين أعضاء الجماعة الرهبانية، وتثبت أن العلاقة بين الراهبات لم تكن بالضبط علاقات حب ومودة وأخوة وأمومة روحية كما نصت عليها القواعد الديرية. وإذا بدأنا بعلاقة رئيسة الدير بالراهبات والتى كانت بمثابة أم روحية لهن وحثت على رعاية الراهبات وإذا عاقبت واحدة منهن فإن ذلك يكون بعطف وشفقة، فنجد أن كثيراً ما كانت تحدث احتكاكات واختلافات بين الرئيسة والراهبات، مثلما حدث بين الأميرة إيرين خومانوس والتى كانت دائماً تشعر بوضعها

---

(١) Lips, p. 1269.

(٢) Lips, .p. 1274.

(٣) Lips, .p. 1274; Bebaia Elpis, p. 1548

ومكانتها الإمبراطورية وبين الراهبات فى ديرها، حيث تدخل ثولبتوس أكثر من مرة لإصلاح الأمور بين الأميرة والراهبات، وتأسف على مجهوده فى تسوية الأمور بين الجانبين، لأنه بذل مجهوده دون جدوى، كما أنه نصح إيرين بأن تخفف من صرامتها وقسوتها وسرعة غضبها لأتفه الأشياء، ودعاها إلى الصبر وضبط النفس عند عقابها للراهبات، خاصة تلك الراهبة التى أثارت غضبها، وأن تلتمس لها الأعذار وتسامحها.(١)

أما عن علاقة الراهبات بعضهن بالبعض، فرغم ما نصت عليه اللوائح الديرية من المساواة بين الراهبات إلا أنه وجد تميز واضح بين راهبات الكنيسة والراهبات العاملات، أو الراهبات من ذوات الأصول الإمبراطورية وغيرهن، ذلك أن راهبات الكنيسة كن مخصصات لواجبات الكنيسة والصلاة وتأدية الطقوس والتسابيح، وبالتالى كان لابد من معرفة هؤلاء الراهبات للقراءة والكتابة(٢)، ولما كان التعليم فى هذا العصر يكاد يكون مقصوراً على النساء الأرستقراطيات فإن ذلك إشارة إلى وضع هذه المجموعة الاجتماعى، والتى كانت محصورة فى الراهبات الأرستقراطيات، أما الراهبات العاملات فقد تولين كل الأعمال اليومية داخل الدير حتى أعمال الزراعة(٣)، بل وطلب منهن فى وقت فراغهن أن يشتركن فى الطقوس اليومية للكنيسة، ويتبعن راهبات الكنيسة اللائى يعرفن القراءة(٤).

على هذا النحو فإن راهبات الكنيسة قد تمتعن بأسلوب حياة أكثر راحة من الراهبات العاملات، مما سبب بعض التوتر بينهن، وهناك إشارات عديدة على حدوث احتكاك بين المجموعتين، ومن هنا تحث لائحة دير الأميرة ثيودورا سينادينى راهبات الكنيسة أن يؤدين عملهن بصورة تامة، وألا يشعرن بالملل حتى لا يسببن ضيقًا أو سخطًا للراهبات العاملات، وطلب من راهبات الكنيسة أيضاً أن يتذكرن الحياة الصعبة لأخواتهن اللاتى يؤدين كل مهام العمل اليدوى من أجلهن(٥). كذلك فإن لائحة دير كيشاريتمونى تطلب من راهبات الكنيسة أن يؤدين عملهن بسرور، وأن يدعون الرب ألا يصيبهن حقد أو حسد من أخواتهن وأن يحب

(١) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 2, pp. 41– 55.

(٢) Bebaia Elpis, pp. 1540– 1.

(٣) Lips, p. 1267.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1541.

(٥) Bebaia Elpis, pp. 1539– 40.

بعضهن البعض[١].

وإذا كانت اللوائح الديرية حثت الراهبات على ضرورة المساواة فى الطعام والشراب، بصرف النظر عن وضع الراهبة، إلا أنه كان يحدث أحياناً عكس ذلك، من هنا حثت وكيلة المؤنة[٢] على أن توزع الطعام والشراب على جميع الراهبات بنفس الكمية، ولا تميز واحدة عن الأخرى، وأن تكون هى نفسها مقتصدة فى تناول الطعام، وإلا تسئ استخدام منصبها[٣]. كما أمرت كل راهبة أثناء الطعام ألا ترفع عينيها وتنظر لأختها لترى ماذا تأكل وكيف تخدم على المائدة، وأن تكون عيناها على طبقها، وتركز على الطعام الموجود أمامها[٤]، وأيضاً تجلس الراهبات على مائدة واحدة، وألا يثرن أى مشكلة حول وضع جلوسهن، وعدم التذمر من كمية الطعام أو نوعيته.[٥]

وطلبت الأميرة ثيودورا سينادينى من الراهبات ألا يشعرن بالغيرة والحسد تجاه أختهن المريضة، والتى تتلقى معاملة خاصة وطعامًا خاصًا نظرًا لظروفها المرضية، بل يتقبلن ذلك بعطف ويزرن أختهن المريضة.[٦]

كذلك حثت الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس الراهبات على أن تتم عملية اختيار رئيسة الدير فى جو من الاستقرار، وأن يؤدين هذه المهمة دون عداء أو تشاجر، بل تتم فى جو من الحب والسلام[٧].

وتكرار مثل هذه النصائح يعد دليلاً على وجود حالات خروج عن القواعد الديرية التى وضعتها مؤسسات هذه الأديرة من الإمبراطورات والأميرات، ومما يدل على ذلك ما فرضه ثولبتوس من عقاب قاس على الراهبات اللاتى يشتركن فى نزاعات بالأيدى مع أخواتهن، وأنهن يجب أن يعاقبن بحنى الركبة حتى تنهك أجسادهن، والصوم حتى يكبحن انفعالاتهن،

---

(١) Kecharitomene, p. 683.

(٢) عن هذه الوظيفة انظر ما يلى ، ص .

(٣) Bebaia Elpis, p. 1543.

(٤) Bebaia Elpis, p. 1548.

(٥) Lips, p. 1274.

(٦) Bebaia Elpis, p. 1550.

(٧) Lips, p. 1267.

والصلاة والتوسل المستمر حتى يشعرن بالندم والأسف[١].

علاوة على ذلك فإن مبدأ المساواة والتى نصت عليه اللوائح الديرية، وشددت على تطبيقه، وأكدت أن الاختلافات بين الأشخاص ووضعهن فى العالم الخارجى لا ينبغى أن تؤثر على حياتهن داخل الدير لم ينفذ مع الراهبات أقارب مؤسسة الدير، ولم يراع تطبيق أيًا منها عندما كان يتعلق الأمر بإحدى النساء من ذوات الأصول الإمبراطورية، فاللوائح الديرية بدون شك لم تترك مثل هؤلاء النساء ذوات الأصول الإمبراطورية والداخلات للعالم الديرى أن يسلكن حياة الراهبة العادية، فكان هناك تحيز واضح نحوهن فى الأديرة النسائية، وبصفة خاصة نحو أقارب الإمبراطورة أو الأميرة صاحبة الدير.

وهذا كان أمرًا طبيعيًا خاصة إذا بحثنا البواعث التى دفعت نساء الطبقة الإمبراطورية والأرستقراطية إلى تأسيس أديرة، فى ظل ما يتطلبه ذلك من تخصيص موارد مالية ضخمة ومساحات واسعة من الأراضى والأملاك. فما هى البواعث التى دفعت هؤلاء النساء إلى التضحية بهذه الأموال الضخمة وتخصيصها لبناء أديرة للراهبات؟ بل ووقف العديد من الممتلكات الأخرى للإنفاق على هذه المؤسسات الديرية باستمرار؟

اللائحة الديرية نفسها تقدم لنا إجابة ذات شقين على هذا السؤال، وهى الأيديولوجية المسيحية وصلات القربى، أو بمعنى آخر، كان هناك سبب دينى وآخر اجتماعى. والسبب الأول صاغته فكرة الخطيئة وعقوبتها يوم الحساب، والتى انتشرت فى المجتمع البيزنطى كله، ومن هنا هدفت مؤسسة الدير من تأسيسه إلى هدفين: الأول: إظهار تقواها وحبها للرب؛ أملاً فى الحصول على مغفرته يوم القيامة، وبالتالى كانت هذه الأديرة تكرس للمسيح أو العذراء، وأحيانًا أحد القديسين، على أمل أن هؤلاء سيتدخلون لمنفعة هذا الشخص يوم القيامة[٢]، والثانى: يوضح الاعتقاد فى قوة وفاعلية صلوات الراهبات، فهؤلاء الراهبات قد حققن درجة من التقوى والقرب من الرب، وبالتالى فإن صلواتهن سوف تستقبل على نحو أفضل بواسطة الرب، ولأن الراهبات يَصلْينَ لروح مؤسسة ديرهن، فإن الأخيرة اعتقدت أن آثامها التى لا تقدر ولا تحصى سوف تغفر بصورة أكثر قوة وفاعلية بواسطة صلاتهن ودعائهن لها[٣].

---

(١) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 2, pp. 56– 7.

(٢) Bebaia Elpis, p. 1526; Anargyroi, Philanthropos, p. 1260.

(٣) Bebaia Elpis, p. 1526.

ومن هنا وجدت تفاصيل عديدة ومتكررة من قبل المؤسسة للصلاة من أجل خلاص روحها هى وأقاربها، سواء كان ذلك فى حياتها وحياتهم[١]، والأكثر أهمية إحياء ذكراهم بعد موتهم. فالتفاصيل لإحياء الذكرى عديدة، مما يدل على أهمية هذا العنصر كباعث لتأسيس الأديرة، فالأميرة ثيودورا سينادينى تهتم بصورة كبيرة بإحياء ذكرى أقاربها فى تواريخ وفاتهم، وأول من تذكره والداها، وبعد ذلك زوجها ثم ابنتها إيفرسون وولداه وزوجاتهم وأحفادها وإخوانها وأختها وزوجها و أبناؤهم، بل وكل أقاربها الذين قدموا المنح للدير.[٢]

وتقدم الأميرة ثيودورا تفاصيل عديدة عن كيفية إحياء الذكرى من صلاة وإقامة الطقوس وتزيين الكنيسة وإضاءة الشموع والوفرة فى طعام الراهبات، وتوزيع الطعام والصدقات على الفقراء والمحتاجين، مما يشير إلى أهمية هذا العنصر كهدف لإنشاء الدير النسائى[٣] وتؤكد الأميرة للراهبات على ضرورة القيام بخدمات إحياء الذكرى، وأن تتم بجد وحماس دون تهاون أو كسل، وأن يحافظن على القيام بها حتى ولو انخفض دخل الدير[٤].

وهذا دليل على عدم المساواة بين الراهبات داخل الدير، فبينما ثيودورا تشدد على ضرورة إحياء ذكرى أقاربها نجدها لا تذكر أى خدمات لإحياء ذكرى الراهبات العاديات، هؤلاء الراهبات اللاتى تركن العالم وكرسن أنفسهن لخدمة الرب، وخضعن لنظام الدير، وقضين عمرهن فيه وقمن بكافة أنواع العمل الشاق داخله.[٥]

على أى حال، إذا كان الباعث الدينى عاملاً هاماً فى قرار المؤسسات الإرستقراطيات لإقامة الأديرة النسائية، فإن هناك سبباً آخر، بل وأحياناً السبب الرئيسى فى تأسيس الدير، وهو الحفاظ على صلة وروابط القرابة والأسرة، وهذه الصلة لا تشمل الأسرة المباشرة للمؤسسة، وإنما تمتد أحياناً إلى أبعد درجات القرابة، بما أن الجميع يحملون لقب الأسرة.

---

(١) Bebaia Elpis, pp. 1555– 6.

(٢) Bebaia Elpis, pp. 1561– 2.

(٣) Bebaia Elpis, 1561–2.

(٤) Bebaia Elpis. pp. 1562–3.

(٥) لقد انتبهت ابنة ثيودورا إيفرسون إلى هذه النقطة، ومن هنا أمرت أن التشريف يجب أن يقدم ليس فقط لهؤلاء الراهبات أقارب المؤسسة والذين عاشوا فى رخاء داخل غرفهن، ولكن أيضاً للراهبات العاديات واللاتى يستحقن كل احترام، وضرورة إحياء الذكرى لهن؛ لأنهن قمن بكل أنواع العمل لصالح الجماعة. Bebaia Elpis, p. 1565.

والمطالع للوائح الديرية يلاحظ رغبة المؤسسة فى تقوية روابط القرابة بينها وبين أسرتها والحفاظ عليها، فهى من خلال تأسيس الدير تزود أفراد أسرتها الإمبراطورية بمأوى ومسكن يمكنهم الانسحاب إليه، ليس فقط لسبب دينى، وإنما وقت الترمل أو الشيخوخة أو حتى الخطر السياسى(١)، فتذكر الأميرة ثيودورا سينادينى: " وذلك من أجل أن أوفر ملجأ آمنًا للنساء اللاتى اخترن الطريقة النسكية للحياة، وأيضاً لى ولابنتى المحبوبة التى كرستها منذ لحظة ولادتها للعذراء المقدسة ".(٢)

كذلك تزودهن أيضاً بمصدر لتمويلهن مادياً طوال حياتهن، بل ويتعدى الأمر إلى توفير هذا الملجأ بعد موتهن من خلال دفنهن فى الدير، فعادة كانت مؤسسة الدير تتوقع أن تدفن هى وأقاربها فى ديرها، لدرجة أن هذه الأديرة كانت توصف أحيانًا بأنها " أضرحة أسرية"(٣)، فالإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس قد أضافت كنيسة أخرى للكنيسة الموجودة بالفعل فى دير ليبس لتكون ضريحًا لها ولأعضاء أسرتها(٤)، كما أنها حددت الموضع الدقيق، حيث ترغب أن تدفن مع ابنتها وأمها متجاورتين؛ لأنها لا ترغب أن تنفصل عن أمها بعد الموت، وخصصت مكانًا كقبر لابنها، وأيضاً أعلنت موافقتها على دفن أى شخص من أولادها وأحفادها وأقاربها فى الدير، بما فيهم الذكور.(٥)

---

(١) كانت هناك عدة أسباب تعجل بقرار الشخص لاتخاذ النذر الديرية؛ كوفاة الزوج، والتى كانت أكثر المحن التى تدفع المرأة لهذا القرار، ومن هنا يمكن القول أن معظم راهبات العصر البيزنطى الأوسط من الأرامل، كذلك فإن المرأة المتزوجة أحياناً كانت تتخذ القسم الديرى هروباً من حياة زوجية تعيسة، وأحياناً يتخلى الزوجان عن حياتهن ويتخذان القسم الديرى، كذلك فإن الفتوحات التركية فى عصر باليولوجوس دفعت العديد من النساء لدخول الدير الذي قدم الملجأ والحياة الآمنة للذين فقدوا الأسرة والممتلكات. وكانت هناك أسباب أيضاً ذات طبيعة دينية، فالأميرة ثيودورا سينادينى تدعو تكريسها بأنه وفاء لديونها للعذراء التى قامت برعايتها وحمايتها وأسبغت عليها الكثير من النعم، كذلك دفع الحماس الزهدى والرغبة فى التوبة فى الفترة المتأخرة من العصر البيزنطى الكثير إلى اتخاذ القسم الديرى.
لمزيد من التفاصيل عن أسباب دخول الدير، انظر :
Bebaia Elpis, pp. 1524– 6; See Also: Abrahamse, D.F., "Women's Monasticism in the Middle Byzantine Period: Problems and Prospects", BF 9 (1985), p. 50; Talbot, A-M., "Late Byzantine Nuns: By Choice or Necessity?", in: Women and Religious Life in Byzantium, Ashgate 2001, pp. 107– 115.

(٢) Bebaia Elpis, p. 1524.

(٣) Kyritses, Byzantine Aristocracy, p. 338.

(٤) Lips, pp. 1254, 1278.

(٥) Lips, p. 1278.

علاوة على ذلك فإنه إذا كان أحد بواعث إقامة الدير لدى المؤسسة هو توفير ملجأ أو مسكن لأقربائها، بل وتوفير قبر لهن بعد وفاتهن فقد حرصت أيضًا على توفير قدر من الاهتمام والامتيازات لهذه القريبة، وكانت شديدة الحرص على صياغة القواعد الديرية بما يتفق مع حياة هؤلاء النساء فى البلاط الإمبراطورى حتى لا يشعرن بالفرق أو بقسوة الحياة الديرية، فاللوائح الديرية تمدنا بتدابير وإجراءات خاصة تتعلق برغبة دخول أحد أفراد أسرة المؤسسة للدير، فلائحة دير الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس تنص أنه لو أن واحدة من بنات ثيودورا رغبت فى دخول الدير يمنح لها أربعة أضعاف الإمدادات والمؤن المقدمة للراهبة العادية[1]، ويكون لها ثلاث راهبات لخدمتها، وتعيش منفصلة عن بقية الراهبات، وتقدم أيضاً المؤن لراهباتها، ولها كذلك الحرية فى الالتزام أو عدم الالتزام بقواعد الدير، وأيضاً لها الحرية فى مشاركة الراهبات فى الخدمات الكنسية إذا رغبت أو العيش لوحدها مع خادماتها، ولو أن واحدة من حفيداتها دخلت الدير يكون لها خادمتان، أما إذا كانت امرأة قريبة للمؤسسة أو من عائلة أرستقراطية تكون لها خادمة واحدة.[2]

وأيضاً حثت الأميرة ثيودورا سينادينى رئيسة ديرها على أن تعامل الراهبات الأرستقراطيات معاملة مميزة عن باقى الراهبات، وتقدم لهن امتيازات أكثر، وتوفر لهن درجة معتدلة من الراحة، بل وتكون لكل راهبة خادمة إذا رغبت فى ذلك، فهؤلاء النساء قد اعتدن حياة الراحة والرفاهية.[3]

كذلك أعطت الإمبراطورة ثيودورا باليولوجوس الحق لأى امرأة من بناتها أو حفيداتها أو أى امرأة نبيلة أخرى دخول الدير للكنيسة أو لزيارة قبور أقربائها، الأمر الذى لم يكن متاحًا للمرأة العادية.[4]

ولم تقتصر الامتيازات لنساء الأسرة الإمبراطورية على الأديرة النسائية فقط بل تعدتها للأديرة الذكورية أيضاً، فإذا كانت الأديرة الذكورية قد منعت النساء من دخول الدير الذكورى، ولو كانت المرأة جثة هامدة، بل وعدم تقديم أى طعام للنساء الفقيرات أمام بوابة الدير، حتى

---

(١) فى الوقت الذى أكدت فيه ثيودورا للراهبات على الاعتدال فى تناول الطعام وعدم الشبع وإتخام المعدة، تقدم أضعاف أضعاف طعام الراهبة العادية إلى قريبتها. فأين الاقتصاد فى تناول الطعام وأين المساواة؟

(٢) Bebaia Elpis, p. 1548.

(٣) Bebaia Elpis., p. 1550.

(٤) Lips, p. 1278.

ولو كن يتضررن جوعًا، بل ووصل الحد فى بعض الأديرة الذكورية إلى منع وجود الحيوانات الإناث بكافة أنواعها حول هذه الأديرة(١) إلا أنها استثنت الإمبراطورات والأميرات وأفراد الأسرة الإمبراطورية من هذه القيود المفروضة على النساء العاديات، إذ سمح لهن بدخول الأديرة الذكورية، سواء للعبادة أو أى سبب آخر.(٢)

من هذا كله يتضح أن المؤسسة الديرية البيزنطية التى أسستها إمبراطورات أو أميرات فى عصر باليولوجوس كانت ذات طابع أسرى، ولم تلتزم بما جاء فى اللوائح الديرية من قواعد المساواة بين الراهبات فى الحقوق والواجبات، وعدم اعتبار النبالة سببًا للتميز أو تقديم امتيازات خاصة للراهبات، فمن الصعب أن نتخيل أن هناك فى هذه الأديرة "مساواة"، فهذه الكلمة لا تكون ملائمة لوصف طريقة حياة الراهبات داخل دير نساء العرش في عصر باليولوجوس، الأمر الذى يدفعنا إلى القول أن هذه القواعد كانت مجرد قواعد نظرية لم تنفذ من الناحية العملية.

التنظيم الإدارى للدير النسائى :

مما لا شك فيه أن النساء الإمبراطوريات قد وضعن التنظيم الإدارى للدير لتنظيم الحياة اليومية والعمل بداخله بما يتفق مع رغباتهن، بحيث يكن هم مصدر كل القرارات والمرجعية الأولى لكل شئ، ولا يكون لأى موظفة داخله البت فى أى أمر أو عمل أى شئ دون الرجوع

---

(١) Neophytos:Testamentary Rule of Neophytos for the Hermitage of the Holy Cross, Trans. Galatariotou, C., in: BMFD, Washington 2000, p. 1366; Meteora: Canonical Rule of Athanasios the Meteorite for the Monastery of the Transfiguration (Metamorphosis), Trans. Dennis, G., BMFD, Washington 2000, p. 1460; Manuel II Palaeologos: Typikon of Manuel II Palaiologos for the Monasteries of Mount Athos, Trans. Dennis, G., BMFD, Washington 2000, p. 1622, Charsianeites: Testament of Patriarch Matthew I for the Monastery of Charsianeites, Trans, Talbot, A-M., BMFD, Washington 2000, p. 1652.

يذكر أحد كاتبى لوائح الأديرة الذكورية عن سبب هذا المنع بقوله: إن هذا المنع ليس لأننا نكره أمثالنا من المخلوقات البشرية، ولكن لأننا نخشى الضرر لو هم اعتادوا على زيارة الدير، فهذا يكون سببًا للشر أكثر منه لفائدة إخواننا.

Machairas: Rule of Neilos, Bishop of Tamasia for the Monastery of the Mother of God of Machairas, Trans. Bandy, A., BMFD, Washington 2000, pp. 1155–6.

(٢) Auxentios: Typikon of Michael VIII Palaiologos for the Monastery of Archangel Michael, Trans, Dennis, G., BMFD, Washinton 2000 p. 1228. Menoikeion; Typikon of Joachim, Metropolitan of Zichna far the Monastery of St. John the Forerunner, Trans. Timothy, M., BMFD, Wahington, 2000, p. 1601.

للمؤسسة التى تحكمت فى كل صغيرة وكبيرة فى الدير، فهى التى تضع الوظائف، وتعين الراهبات، وتحدد الشروط التى يجب توافرها لكل وظيفة، والأعمال التى يجب أن تقوم بها كل راهبة، وكانت تراقبها فى أداء وظيفتها وتشرف عليها.

المالك :

كان الدير بكل ممتلكاته عادة يقدم لشخص علمانى كهبة مشروطة، وكان هذا الشخص يتولى إدارة الدير، ويمول أفراد جماعته ومبانيه، وفى مقابل ذلك كان له حق الانتفاع من الهبة بالحصول على الفائض من دخل الدير.(١)

الوصى :

اختارت الإمبراطورة ثيودورا لهذه الوظيفة زوجها ثم ابنها وخلفاؤه بعد ذلك، مما يؤكد رغبتها لإخضاع ديرها للسلطة الإمبراطورية(٢)، إذ كان للوصى سلطة كبيرة على الدير، وخولت له امتيازات عديدة، لدرجة أنه لم يترك لجماعة الدير الفرصة لاتخاذ أى قرار، وكانت مهمته الإشراف على تطبيق اللوائح الديرية وحماية الراهبات والدفاع عنهن ضد أى إساءة أو اعتداء(٣)، فقد قررت الإمبراطورة أن الدير يحتاج لوصى أو حارس لحماية الراهبات، نظراً لطبيعة المرأة الرقيقة والضعيفة، فهى تحتاج لحماية قوية.(٤)

الوظائف الإدارية :

رئيسة الدير :

كانت بمثابة أم روحية للراهبات، وكان يتم اختيارها من ضمن الراهبات ذوات الأصول الإمبراطورية، أو على أقل تقدير من الراهبات الأرستقراطيات. وتحكمت الإمبراطورة أو الأميرة مؤسسة الدير فيمن يتولى هذه الوظيفة، ووضعت عدة شروط لها، فكان ينبغى أن تتصف بالتقوى والحكمة، فهى تعلم وترشد جماعة الراهبات للأعمال الطيبة وطريق الصواب، وتبث فيهن الفضيلة من خلال كلماتها وأفعالها، وتغرس فيهن الحماسة للخير الحقيقى والحب

---

(١) Galatariotou, C., " Byzantine Women's Monastic Communities: The Evidence of the Typika", Job 38 (1988), pp. 269– 270.

(٢) Lips, p. 1266.

(٣) Bebaia Elpis, p. 1529.

(٤) Lips, p. 1266.

النقى الطاهر، وبذلك تقودهن نحو خلاص أرواحهن[١]، كذلك يجب أن تكـون لـديها خبـرة بالأمور الدنيوية والمالية وتكون سيدة لها حضور، نظراً لأهمية منصبها.[٢]

وقد حددت اللوائح الديرية التى وضعتها إمبراطورات وأميرات عصر باليولوجوس أن تنتخب الرئيسة بواسطة الراهبات فى مدة أسبوع، وبعد اختيارها تقام صلاة شـكر بواسـطة الكهنة، ويتم الاحتفال، وفى اليوم التالى تذهب اثنتا عشرة راهبة مع الكاهن تتقدمهم الرئيـسة الجديدة إلى الإمبراطور أو البطريرك ليقلدها منصبها، وتعود بعد ذلك هي والراهبـات إلـى الدير.[٣]

المشرف المالي :

تدخلت الإمبراطورة ثيودورا فى اختيار صاحب هذا المنصب، فقد نصت لائحة ديرها أن يتولى هذا المنصب رجل، والذى يختار بواسطة رئيسة الدير والراهبات المبجلات، ويتولى الإشراف على أملاك الدير من حقول ومزارع وغيرها من ممتلكات تابعة للدير، وكان أيضاً يشرف على أعمال صيانة وإصلاح مباني الدير، ويدافع عـن أملاكـه، ولا يـسمح لأحـد بالاستيلاء عليها أو إتلافها. وكان عليه أن يقدم حسابات أراضى وأملاك الدير إلى الرئيـسة التى تراجعها، وكان يعين له تابعين على الممتلكات التابعة للدير.[٤]

وقد تولى هذا المنصب في دير الأميرة ثيودورا سينادينى راهبة، واشترطت فيها الأميرة أن تكون " كهلة " ليس بعدد سنوات عمرها الفعلية وإنما بحكمتها وطهارتها وخيرية حياتهـا، وأن تكون لديها خبرة بالأمور العملية، وكانت لا تشرف فقط على ممتلكات الـدير الداخليـة، وإنما تقوم باستعلامات وتحقيقات عن المحاصيل والريع والأرباح للممتلكات الخارجية، وتقابل وكلاء المزارع التابعة للدير، وتقرر من يعمل على نحو أفضل، وتحث المقصرين على العمل من أجل ازدهار ممتلكات الدير، وتشرف كذلك على مخازن المنتجات الزراعية.[٥]

---

(١) Bebaia Elpis, p. 1530.

(٢) Laiou, Observations on the Life, p. 86.

(٣) Lips, p. 1267; Bebaia Elpis, p. 1530.

(٤) Lips, p. 1270.

(٥) Bebaia Elpis, pp. 1538– 9.

حافظة غرفة المقدسات :

هى الموظفة المسئولة عن الحفاظ على أملاك الدير المنقولة؛ كأثاث الكنيسة وأوعيتها المقدسة والملابس الطقوسية، وفى المناخ الجيد كانت تعرضها للتهوية والشمس، ويعهد إليها أيضاً بحفظ كافة الوثائق والسجلات الخاصة بأملاك الدير، وألزمتها الإمبراطورة ثيودورا أن تتأكد من رجوع أى وثيقة قد خرجت من حوزتها، وبعد أن تتلقاها فى حضور الراهبات الرئيسيات في الدير تقوم بحفظها فى صندوق وتلصق الختم عليها، وقد وضعت الرقابة على هذه الموظفة من قبل الراهبات ذوات الأصول الإمبراطورية.(١)

الأيكليزيارخيسا :

حددت الأميرة ثيودورا سينادينى الصفات التى يجب توافرها فيمن يتولى هذا المنصب، فيجب أن تكون مثالاً للفضيلة والحكمة والتقوى، وتكون راهبة قادرة على الغناء والإنشاد فى مهارة وتناغم، وكانت هذه الراهبة مسئولة عن العناية بكنيسة الدير والإشراف على طقوسها الدينية اليومية والموسمية، بل وكان عليها أن تحدد المكان الملائم فى الكنيسة للأخوات المنشدات، وتشجعهن على أداء الطقوس بحماسة وإتقان دون تهاون أو كسل أو إهمال، وبذلك فإنه كان يعتمد عليها فى تناغم وانتظام الحياة وأداء الطقوس داخل الكنيسة، وعهد إليها أيضاً بالإشراف على الراهبات الصغار اللاتى يدرسن داخل الدير، وتقوم هى بإرشادهن وتوجيههن(٢).

المشرفة على المخزن :

اشترطت الأميرة ثيودورا سينادينى فى هذه الراهبة أن تتصف بالتقوى والتواضع، وكذلك الروح الاجتماعية السمحة والعطف والود، بحيث يكون من السهل على الراهبات الوصول إليها والتحدث معها، وكانت مهمتها توزيع مواد الاستعمال اليومية للدير، فهى تتلقى العباءات والملابس والأغطية والمفروشات وكل شئ آخر تحتاج إليه الراهبات لاستعمالهن اليومى، وأيضاً تتلقى المحاصيل والفاكهة عندما تأتى من الخارج، وتخزنها فى مخزن الدير، وتحفظها بحسابات دقيقة.(٣)

---

(١) Lips, p. 1272.

(٢) Bebaia Elpis, pp. 1537–8.

(٣) Bebaia Elpis, p. 1543.

وكيلة المؤنة :

هى المسئولة عن موارد الدير من النبيذ والطعام وتوزيع مقدار ما يستهلك منها يومياً وموسمياً فى الدير[١]، وهناك راهبات أخريات يساعدن هذه الموظفة فى أداء مهامها، مثل الراهبة المسئولة عن حجرة الطعام وانتظار الراهبات ووضع الطعام على المائدة، ثم رفع الأطباق بعد الانتهاء من تناول الطعام، إلى جانب أنها تؤدى العديد من الخدمات لإسعاد الراهبات[٢]، وهى لم تكن المساعدة الوحيدة لوكيلة المؤنة، بل إن هناك راهبات أخريات واللاتى كانت مهمتهن صناعة الخبز وإعداد الطعام، فكانت الأولى تأخذ القمح والثانية تأخذ المواد الغذائية من وكيلة المؤنة ثم يقوم بإعداد الخبز وتجهيز الطعام للراهبات[٣]، وبذلك كانت مهمة وكيلة المؤنة: ماذا تأكل الراهبات كل يوم، ومن يعد الطعام ويوزعه ويخدم الراهبات، وأيضاً مقدار وجودة النبيذ المستهلك، فهى تقدم التعليمات للراهبات اللاتى يقمن بذلك تفصيلياً.[٤]

حارسة البوابة :

لم يكن مسموح لأى راهبة القيام بحراسة بوابة الدير، وإنما اشترطت المؤسسة فى صاحبة هذا المنصب عدة شروط، فقد اشترطت لائحة الأميرة ثيودورا سينادينى فى هذه الراهبة أن تقدم دليلاً على تقوتها وحكمتها وتعقلها، ويجب أيضاً أن تمتلك شخصية صارمة، حيث يكون مجرد ظهورها يبث الخشية والرعب فى نفوس الراهبات اللاتى يحاولن الاقتراب من بوابة الدير بدون سبب فينسحبن على الفور[٥]. وكانت هذه الراهبة مسئولة عن مفاتيح بوابة الدير، ولا تسمح لأحد بالدخول أو الخروج من الدير إلا بإذن رئيسة الدير، فإذا جاء أحد من الخارج واستأذن فى الدخول، كانت تستفسر عن الزائر وعن هويته ومن أين جاء وسبب الزيارة، وبعد ذلك تنقل هذه المعلومات إلى رئيسة الدير والتى تقرر السماح له بدخول الدير أو غير ذلك، وبهذه الطريقة " يتم المحافظة على الأمان داخل الدير، ولا تتعرض أى راهبة

---

(١) Bebaia Elpis, p. 1543.

(٢) Bebaia Elpis, p. 1543.

(٣) Bebaia Elpis, p. 1543.

(٤) Bebaia Elpis, , p. 1272.

(٥) Bebaia, Elpis, p. 1544.

للمعاناة أو الضرر، ولا يتم سلب أى ممتلك ديرى على الإطلاق ".(١)

خلاصة القول أن لوائح المؤسسات الديرية النسائية الموضوعة بواسطة إمبراطورات وأميرات عصر أسرة باليولوجوس، كانت لوائح أرستقراطية، صاغها أفراد من الأسرة الإمبراطورية، ووضعت العديد من الامتيازات لهؤلاء النساء الإمبراطوريات واللاتى يرغبن فى الالتحاق بتلك المؤسسات، وأيضًا كانت هذه المؤسسات امتدادًا للأسرة، تعمل على توفير أكبر قدر من الرفاهية والراحة لأفراد أسرها، وتذكر هؤلاء الأفراد بماضيهم الإمبراطوري أكثر من الفقر والزهد الديرى(٢)، وكانت أيضاً مؤسسات أسرية يديرها أفراد من أسرة المؤسسة، فكان من المعتاد أن تتولى الإمبراطورة أو الأميرة المؤسسة للدير إدارته، وتسند الوظائف الهامة فيه لأفراد من أسرتها، ومما يدل على هذا الطابع الأسرى حصر وظيفة الوصى على الدير على زوج أو ابن المؤسسة، كما أن هذه الأديرة تمتعت بمزيد من الحرية والمرونة سواء فى الاتصال بالجنس الآخر أو خروج الراهبات من الدير لزيارة أقربائهن والقيام ببعض المهام، فالموظفة المالية كانت تشرف على الممتلكات الخارجية للدير، وتعقد الاجتماعات مع المسئولين الذكور عن إدارة الممتلكات، وكذلك تم السماح للعديد من الرجال بالتردد على الدير مثل الأب الروحى للراهبات والكهنة والطبيب والوصى، والإمبراطور ورجال الدولة، بل وكان هناك رجال آخرون يدخلون الدير مثل شخص يدعى ميناس Menas الذى أصر المعلم الثاني للأميرة إيرين خومانوس على حضوره اجتماعاته معها، وشخص آخر يدعى نيفون Nephon أرسله إلى إيرين أكثر من مرة يحمل رسائله إليها.(٣)

علاوة على ذلك، يتضح من خلال اللوائح الديرية صفات وخصائص هذه المرأة الإمبراطورية، فهى كانت امرأة قوية وذكية، قادرة على الإدارة، فقد أدارت الأميرة إيرين خومانوس ديرها بكفاءة ومهارة شديدةً حتى إنه بعد سنوات من ذلك فإن أباها الروحى وأستاذها ثولبتوس خاطبها برئيسة الدير(٤)، كذلك فإن هذه المرأة كانت دائمة التفاخر بنسبها ومكانتها، مثل الأميرة إيرين خومانوس والتى كانت تعطى نفسها دائماً لقب "إمبراطورة"

---

(١) Bebaia, Elpis, p. 1544.

(٢) Nicol, Byzanine Lady, p. 8.

(٣) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 17, pp. 85–91.

(٤) Laurent, Princesse. Byzantine, p. 54; Verpeaux, Notes Prosopographiques, p. 260; Nicol Byzantine Lady, p. 63.

ويخاطبها والداها بشكل معتاد "إمبراطورتى"، وأيضاً الأميرة ثيودورا سينادينى والتى توضح فى مقدمة لائحة ديرها أصلها النبيل ونسبها المميز، فتصف أباها قنسطنطين كومنين باليولوجوس دوكاس أنجليوس، أخا الإمبراطور ميخائيل الثامن كأرستقراطى عظيم وقائد شهير، امتلك قوة لا تقهر، وقاد القوات البيزنطية ضد الأعداء وحقق انتصارات رائعة، وأمها، إيرين براناس كومنين لاسكاريس كنتاكزينوس باليولوجوس Irene Branas Laskaris Kantakouzenos Palaiologos أنها مساوية لزوجها فى مكانته الأرستقراطية وثرائه واعتبرتها أسمى من النساء الأخريات فى عصرها مثل أبيها، أما زوجها، يوحنا أنجيلوس دوكاس سينادينى، فكان ارستقراطيًّا عظيمًا حارب بمهارة ضد الأعداء(١).

وأيضاً كانت هذه المرأة ذات الأصول الإمبراطورية شاعرة بمكانتها الإمبراطورية ولم تتخل عنها، فقد ظلت إيرين خومانوس رغم اعتزالها للحياة العامة الطويلة مدركة لرتبتها ونفذت قواعد البروتوكول الإمبراطورى، فقد ذكرت لمعلمها الثانى أن السبب فى عدم خروجها من الدير وذهابها لحفلات الزفاف والجنائز والاجتماعات الإمبراطورية أن ذلك يتطلب أن تصاحبها حاشية ضخمة، وكذلك عدد مماثل من الخيول والعربات وغير ذلك من المراسم الخاصة بالإمبراطورات والأميرات(٢)، الأمر الذى دفعها للتكبر والغطرسة، فكانت تشعر بالمهانة عندما لا تتلقى الاحترام الذي ترى أنها تستحقه من كل راهباتها، بل و من الأشخاص خارج الدير. وكانت مكانتها ووضعها فى الدير يهدف إلى تقوية هذه السمات الشخصية، بالرغم من لوم أستاذها المتكرر لها، فكانت إيرين تطلب الطاعة التامة من راهباتها بل والصارمة فى بعض الأحيان، ولفت ثولبتوس نظرها إلى صرامتها الزائدة مع الراهبات قائلاً: "الراهبات مخلصات لعهدهن يجب أن يعاملن بالحسنى فى حالة الخطأ، إن أى نوع من القسوة لا يستعمل إلا مع الهاربات اللائى عدن إلى حضن الكنيسة "(٣) ويتضح ذلك من حالة راهبة طردتها إيرين من الدير وكان ذنبها كما يتضح من حديث ثولبتوس عدم الطاعة، لأنه حذرها أنها لو عاقبت هذه الراهبة " سوف تكون ضحية لانفعال الأنانية وحب الذات"(٤) ولم

---

(١) Bebaia Elpis, pp. 1512, 1525, 1569; See Also: Laiou, Observations on the Life, pp. 72, 93–4.

(٢) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 15, p. 77.

(٣) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 2, pp. 45–9.

(٤) Letters of Theoleptos of Philadelphia, Letter No. 2, pp. 45–9.

ينته تعامل إيرين المتكبر عند راهباتها، بل امتد ليكون مع البطريرك نفسه، ومن هنا نصحها معلمها الثانى بأن " تهدأ غضب البطريرك الذى أثارته بسلوكها، وأن تظهر له الخضوع والإذعان، فهو الأب الروحى لكل المسيحيين، والذى ينبغى على الجميع احترامه".(١)

كذلك كانت المرأة الإمبراطورية امرأة متعلمة ومثقفة، لديها علاقات عديدة مع مفكرى عصرها، ولم تمنعها قواعد العزلة، التى كانت من شروط الحياة الديرية، من ممارسة نشاطها الثقافى واتصالها برجال العلم والثقافة والدين فى عصرها.

من هذا كله يتضح أن علاقات مؤسسي أديرة باليولوجوس مع العالم الخارجي واتصال الدير بالخارج تقترح الانفتاح النسبى لأديرة هذا العصر النسائية، وتؤكد لوائح الأديرة هذا الاقتراح، وأن راهبات هذه الأديرة كن مشتركات بشدة فى أمور العالم حولهن. وعليه، يمكن القول أن الدير النسائى فى عصر باليولوجوس والمؤسس بواسطة إمبراطورات وأميرات هذه الأسرة كان المكان الأخير لسكن شخصيات متعددة أكثر منه انسحابًا حقيقيًا من العالم وانفصالاً عن الجنس الآخر، التزم فيه الراهبات بقواعد الديرية الحقيقية من عزلة ومساواة(٢)، فضلاً عن أن مؤسسات هذه الأديرة قد تحكمن في كل صغيرة وكبيرة بداخله، وفرضن شخصياتهن وأفكارهن على نظام الحياة فيها.

---

(١) Correspondence of Princess Irene, Letter No. 18, pp. 91–3.

(٢) Laiou, observations on The Life, p. 93.

اتسمت نظرة المجتمع البيزنطي للمرأة بالتناقض بين حواء التي أغوت آدم وأخرجته من الجنة، وبذلك كانت السبب في أول خطيئة عرفتها البشرية، وبين مريم العذراء رمز الطهر والعفاف، والذي جاء ابنها ليطهر البشرية من خطاياها، وبالتالي لم يكن للمرأة في هذا المجتمع أي وضع أو مكانة مميزة، وإنما كان دورها محصورًا في كونها زوجة وأمًا ترعى أبناءها وتقوم بواجبات منزلها، ولم يكن مسموحًا لها أن تتولى وظيفة سياسية أو قضائية أو اقتصادية أو دينية هامة، فالمجتمع البيزنطي كان مجتمعًا ذكوريًا يدعو إلى تهميش دور المرأة وإخضاعها لسلطة الرجل، ولكن اختلفت هذه النظرة عندما كان يتعلق الأمر بإمبراطورة أو أميرة بيزنطية، إذ تقبل المجتمع البيزنطي قيام هذه المرأة بدور سياسي وإداري واقتصادي واجتماعي وديني مميز، فوجدنا الإمبراطورة تتولى إدارة شئون الإمبراطورية وتدافع عنها أثناء غياب زوجها الإمبراطور أو موته، أو تحكم أجزاء هامة منها، أو تقوم بدور سياسي ودبلوماسي هام في حل المنازعات والصراعات التي تندلع بين أفراد الأسرة الإمبراطورية، فتذهب إلى أجزاء بعيدة من الإمبراطورية إلى المتمردين والخارجين عن السلطة الإمبراطورية، وتحاول إقناعهم بكل وسيلة حتى يعم السلام والأمن أنحاء البلاد. وكذلك استُخدمت الأميرة البيزنطية كثيرًا في تهدئة أعداء الإمبراطورية وإنقاذها في الكثير من المواقف الحرجة التي تعرضت لها، أو كسب الحلفاء والحصول على مساعدتهم العسكرية مقابل إرسال هذه الأميرة أو تلك إلى أراضي الأعداء للزواج.

كذلك أشاد المجتمع البيزنطي بدور الإمبراطورة والأميرة البيزنطية في الحياة الثقافية، فوجدناها تشجع رجال العلم والثقافة، وتتبادل معهم الآراء والكتب والمخطوطات، وترسل لهم المساعدات والمعونات بكافة صورها، وتنفق الأموال على إعادة نسخ وتزيين المخطوطات، بل وتشارك في ذلك بنفسها، وتسخر العديد من الأشخاص في ديرها لإعادة كتابة المخطوطات القديمة، بل وتؤلف سير القديسين.

وهذه المرأة الإمبراطورية أيضًا التي تمتعت بمكانة مميزة، وكان لديها العديد من الممتلكات، كانت شغوفة بالعمل الاجتماعي والخيري، ودائمة الإحساس بالفقراء والمحتاجين، فأنفقت الكثير من الأموال على مساعدتهم، وإقامة الأديرة والكنائس والمستشفيات ودور المسافرين والغرباء ودور الأيتام والمسنين وغيرها من مؤسسات اجتماعية لمساعدة هؤلاء البؤساء.

وجاء دور الإمبراطورات والأميرات في النزاعات والصراعات الدينية التي اندلعت في الإمبراطورية البيزنطية في عصر باليولوجوس ليعبر عن مدى ما تمتعت به هذه المرأة من ثقافة وقدرة وحرية تعبير عن رأيها، حتى في مواجهة السياسة الرسمية للدولة، وظهرت هذه الشخصية بصورة واضحة في إنشائها للأديرة النسائية، والتي وضعت قواعد ولوائح نظام الحياة فيها، بما يعكس شخصيتها وفكرها الإمبراطوري، ويوفر أكبر قدر من الرفاهية والراحة لأمثالها من نساء البلاط البيزنطي اللاتي يرغبن في دخول هذه الأديرة، ونظمت هذه المرأة كل شيء داخل الدير، بحيث تكون هي مصدر كل سلطة وكل أمر داخله.

ومن هنا يمكن القول أن الإمبراطورات والأميرات في عصر باليولوجوس قد تمتعن بقدر كبير من الحرية، ومثلن خروجًا صريحًا عن قواعد هذا المجتمع الذي سيطر فيه الرجل على كل شئ، ولكن هذه المرأة تملصت من هذه القيود ولعبت دورًا بارزًا داخله.